روايات الهلال

# أيام مجاور

سليمان فياض



روايات الهلال
سلسلة شهرية لنشر القصص العربي والعالمي
تصدر عن مؤسسة دار الهلال





الغلاف ريشة:
**علاء الزهيري**

الإصدار الأول
يناير ١٩٤٩

العدد ٧٢٧
يوليو ٢٠٠٩م
رجب ١٤٣٠هـ
أبيب ١٧٢٥ق

**ثمن النسخة**

[illegible]

**البريد الإلكتروني**
[illegible]

**الاشتراكات**

قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) ٦٠ جنيها مصريا داخل ج.م.ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٤٠ دولارا - أمريكا وأوروبا وآسيا وأفريقيا ٥٠ دولارا باقي دول العالم ٦٠ دولارا القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال.

**بريد الاشتراكات**
Email: [illegible]

**الإدارة**

القاهرة
١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا)
ت: ٢٣٦٢٥٤٥٠ (سبعة خطوط)
المكاتبات:
ص.ب ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدي ١١٥١١ - تلغرافيا: المصور - القاهرة ج.م.ع
تلكس
Telex 92703 hilal u n
فاكس
FAX: 3625469

# أيام مجاور

## سليمان فياض

دار الهلال

إسم الرواية : أيام مجاور

تاليف : سليمان فياض

إشراف : محمود قاسم

الخطوط : محمد العيسوى

رقم الإيداع : ١٣٥٦٣ / ٢٠٠٩

الترقيم الدولى I . S . B . N: 977-07-1363-5

## (١)

حين ساقنى أبى للسفر إلى الزقازيق لأول مرة، قدم لى الكاكولة، وقال لى: البسها، والعمامة، وقال لى: ضعها على رأسك. ارتديت الكاكولة طائعًا، ووضعت العمامة على رأسى طائعًا، وعانقتنى أمى وقبلتنى، وأوصتنى بنفسى، والدموع تترقرق فى عينيها.

سرت بجانب أبى طائعًا، تتبعنا زوجة جدى، حاملة فوق رأسها قفة بها زادى وزوادى، تعلوها ثيابى، وضعت فوقها فوطة، وقطعة قماش حيكت بدائر القفة بالدوبارة والمسلة.

لم نكد نتوسط الشارع الكبير فى طريقنا إلى محطة الدلتا، حتى فوجئت بعيال الحى، وكلهم من أصحابى، يسيرون وراءنا، وهم يرددون: شيل العمة شيل. تحت العمة فيل. حط العمة حط. تحت العمة قط. لم يزجرهم أبى. فقط التفت إلىّ، وقال لى:

- لا تسألْ عنهم.

والتفتُّ إلى زوجة جدى، رأيتها تبتسم، وهى تنظر إلىّ مرة، وإلى العيال مرة.

كانت عمامتى على رأسى محبوكة مسبوكة، فقد كان أبى خبيرًا بتعميم العمامة، وكثيرًا ما كنت أراقبه هو ودبابيسه كل يوم جمعة، وهو يلف الشال حول عمامته. وكانت الكاكولة واسعة علىّ، عريضة الأكمام، لا ينقصها فى كل كم سوى جيب داخلى، لأخفى فيه ما أشاء. وكان الحذاء فى قدمى جديدًا أسود اللون مثل كاكولتى، أنا الذى أحب السير حافيًا، وأفضل لبس الصندل. وغاظنى ضيقه علىّ. كنت حتى ذلك الحين قصير القامة، مجرد صبى تجاوز الرابعة عشرة من عمره ببضعة شهور.

حين بلغنا المحطة كان القطار واقفًا كأنه ينتظرنا. ووضعت زوجة جدى القفة تحت قدمى أبى بعربة القطار، ورأيت زوجة جدى تمد يدها لتسلم علىّ، ويدها الأخرى لتأخذنى فى حضنها، وهى تهمس لى من وراء أبى:

– صغير على الحكاية دى يا حبيبى.

ثم قبلتنى، وقالت لى بصوت مرتفع يسمعه أبى:

– مع السلامة يا حبيبى. نشوفك عالم كبير إن شاء الله.

تركتنا زوجة جدى، ونزلت من القطار. وجلست بجانب أبى. وظل القطار واقفًا فلم يأت موعد مغادرته بعد.

شعرت بالحر، فخلعت العمامة عن رأسى، فزغر لى أبى قائلا:

– البس العمة. لا تخلعها أبدًا إلا فى البيت.

همست مترددًا معتذرًا، وأنا أعيد العمامة إلى رأسى بعناية، بحيث يكون زرّها فوق وسط عنقى:

– الدنيا حر.

فلم يرد علىّ. وفكرت أننى أضع فوق رأسى قبة صغيرة حمراء، لها زر أزرق، ولها أضلاع أربعة. واستغرق أبى فى تسبيحاته الصامتة، على حبات مسبحته الكوك.

تحرك بنا القطار. كان واحدًا من هذه القطارات التى كنا نحن الصبية نجرى وراء ها، حين تدخل السنبلاوين، وحين تخرج منها، نصعد إليها، وننزل منها، وهى سائرة. كنا نسميها أحيانًا: السحلية، وأحيانًا: عزيزة. كانت عزيزة بائعة جرجير بشارع القنطرة. كانت سمينة بعرض دولاب، تمشى ببطء، وتتهادى فى سيرها يمنة ويسرة، كبطة مزغطة. ودار القطار مع القضبان، ليسير على جسره الخاص فوق الترعة الذى لا يسير عليه أحد سواه.



كان الجسر قضبانًا فوق عوارض خشبية. كثيرًا ما كنا نتنافس نحن عيال المدينة بالقفز فوقها، واحدة بعد واحدة، ذهابًا وعودة. ابتسمت للذكرى. فاجأنى القطار نهار يوم مضى، كان قادمًا وأنا أثب فوق العوارض الخشبية، من عارضة إلى عارضة. وجدت نفسى آنئذ بين أمرين: أن أقفز فىْ ترعة البوهية، وأنا لا أعرف السباحة. أو أتعلق بكفيْ يديّ فى عارضة خشبية إلى أن يمر القطار من فوقى. ومرت عربات القطار من فوقى وعجلاته تملأ قلبى بالرعب. لا أرى سواها.

رحت أرقب المزارع من شباك النافذة، راجعة إلى الخلف مع أعمدة التليفونات، وخيل إلىّ أنه يسير بنا إلى الوراء. وبين حين وآخر كان القطار يتوقف أمام قرى، ليأخذ ركابًا، وينزل ركابًا، وأجد نفسى أتأمل فى كشك ناظر المحطة الخشبى، وأنتظر اللحظة التى يصفر فيها بصفارته، ليبدأ القطار فى السير.

عند محطة ديرب نجم خلع أبى عمامته عن رأسه، ووضعها فوق ركبته. نظرت إليه مستفهمًا، فقال لى:

– اخلعها. وحطها على ركبتك.

وراح يمسح بمنديله ما تجمع من عرقه تحتها. ووجدتنى أشم رائحة عرقى فى عمامتى، وأضعها بالمقلوب على ركبتى ليجف عرقها. ورأيت أبى يفعل مثلى، ويقلب وضع عمامته على ركبته.

★★★

دخل بنا القطار مدينة الزقازيق. اجتاز بنا الطريق وسط كفر يوسف، حتى وصل إلى موقفه الأخير. نزلنا من القطار ونحن نحمل القفة من أذنيها، أنا من أذن، وأبى من أذن. ودعا أبى إليه حمالا فحمل القفة. كانت المحطة مفتوحة ككل محطات قطار الدلتا بلا أرصفة ولا بوابة، ورحنا نعبر القضبان

وراء الشيال، حتى بلغ بنا موقف الحناطير. اختار أبى لنا حنطوراً، وساومه على قرشين، أجر المسافة إلى كفر الحريرى.

توقف بنا الحنطور فى كفر الحريرى أمام بيت من طابقين. أنزل السائق القفة. واستدار عائداً بحنطوره. خبط أبى على باب بيت، ففتح صاحبه لأبى الباب. كان مطربش الرأس. تصافحا وتعانقا. ولم يضع أبى وقته. ظل واقفاً أمام الباب، وعاد المطربش وهو يدفع أمامه سريراً حديدياً أدهشنى منظره. كان السرير مطبقًا وله عجل. بدا لى كصندوق من سيور الحديد، وملّته سيور من الصاج متقاطعة عرضاً وطولا. وفى قلبه كانت مرتبة مطبقة على وسادة، وملاءة، وكيس المخدة. فتح المطربش مصراع الباب الآخر، ودفع السرير بعجله خارجًا. ودفعنا السرير معًا عبر الحارة، وانعطفنا منها إلى حارة أخرى. كانت الحارة التالية لبيت المطربش.

توقفنا أمام باب بيت فى الحارة المجاورة. فتحت لنا صاحبة البيت الباب. كانت أرض البيت منخفضة نحواً من ربع المتر. أنزلنا السرير داخل البيت. وفتحت لنا صاحبة البيت ضلفتى باب غرفة على اليسار. فدفعنا السرير على عجله. وحرر المطربش صندوق السير من شنكل بأعلاه. فانفرد السرير واستقر على قوائمه تحت شباك الغرفة الوحيد. وبُسطت فوقه المرتبة، وفُرشت الملاءة. ووضعت الوسادة. وقال لى أبى مشيراً إلى صاحبه المطربش:

– عبد القادر أفندى. أخ كريم وعزيز، وتيجانى زيى. إذا احتجت شيئًا زره فى بيته.

ونهض أبى مع المطربش، وهو يقول لى:

– راجع تانى. اقعد واستريح.

خرجا معًا. وجاءت صاحبة البيت، وقالت لى:



– أهلا يا ابنى.

كانت عجوزاً. فى ملامحها جمال ذاهب. كانت سمراء مخضبة الخدين، مكحلة العينين، حادة الملامح، يبدو جلدها كلحاء شجرة مغضنة. وكانت الغرفة مسفلتة ومغسولة، وجدرانها مطلية بجير أصفر، لا تزال تفوح رائحته. تركتنى العجوز. فجلست على السرير، وخلعت عمامتى وكاكولتى، ووضعتهما بجانبى.

جاء أبى ومعه مصباح زجاجى نمرة ١٠ مملوء جازاً، وزجاجة جاز، وفوطة، وصابونتان نابلسى، وشاكوش، ومسامير، وحصيرة، وصحيفة قديمة. راح أبى يدق مسامير متباعدة على جدران الحائط، وعلق الكاكولة على مسمار من قبته، ودلى العمامة على مسمار ثان، وعلق المصباح بالقرب من سريرى على مسمار آخر. تأمل الغرفة، وقال لى:

– سأعود.

وذهب وعاد ومعه حلتان، وصحنان غويطان، ووابور جاز، وإبر لتسليك الوابور، وملعقتان، ووضعها فى ركن الغرفة. ونظر أبى إلى ساعة جيبه. وقال لى:

– تعال نفتح القفة.

سلتنا من غطاء القفة خيط الدوبارة. ورحنا نخرج ما بها. الثياب، والخبز الطرى، ومحشرة المحشى، وبرام الأرز المعمر، يعلوه زوجان من الحمام المحشى المحمر، وعلبة سمن بلدى، وبيض لم تنكسر منه بيضة، وباكو شاى، وقمع سكر. وملح ناعم، وفلفل أسمر. وعلبة كبريت، ورصها أبى على الأرض فى ركن الغرفة المقابل للسرير. ووضع ثيابى الداخلية فى ورقة جرنال دسها تحت المرتبة والمخدة. وفردنا ورقة جرنال على السرير، ورحنا نأكل معًا.

جاء تنا عجوز البيت بابريق ماء وطشت قديم، وأعطاها أبى ما فيه النصيب من طعامنا. وغسلنا أيدينا. وقالت لى العجوز:

- خللى عندك الطشت والإبريق يا...

فقال لها أبى:

- اسمه سليمان.

فقالت:

- عاشت الأسامى.

ومد لها أبى يده بإيجار الشهر، ريالا وخمسة قروش. وزاد فنفحها خمسة قروش أخرى قائلا لها:

- خلى بالك منه.

ونهض معها إلى المرحاض وعاد. وقال لى:

- خد لبالك لما تدخل الكابنيه، أصله ضلمه شويه.

ونظر إلى ساعته، وقال لى:

- بكره الصبح تروح المعهد. اسأل عن السكة. فاتك نسيتها. استلم الكتب، وخد لبالك من دروسك، ومن البيت للمعهد والجامع. وصلّى. صلى يا ابنى ربنا يفتح عليك.

نهض أبى واقفًا، وقبلت يده، فوضع كفه على رأسى، وراح يتمتم داعيًا لى بالبركة. وأعطانى جنيهًا ونصف الجنيه، وقال لى:

- حرس عليهم قرش قرش لآخر الشهر. وأول كل شهر تدى صاحبة البيت ربع جنيه. مصروفك اليومى أربعة قروش. وخمسة قروش فنطزية فى الشهر. وعين فلوسك دايمًا فى جيب الجلابية. ماتنساهاش وراك أبدًا فى الأوضة. ولا وانت بتغير الجلابية. واعرف طريق بيتك كويس. اوع تتوه عنه. حتعرفه لوحدك. واللى يسأل ما يتوهش.



ولم يكن للبيت رقم، ولا للحارة اسم. وغادر أبى البيت فى طريقه إلى محطة الدلتا. وثقل عليّ رأسى من السفر والأكل، فرددت باب غرفتى علىّ، كانت بلا ترباس من الداخل، وتمددت على سريرى، واستغرقت فى النوم.

★★★

صحوت قرب الغروب. سارعت إلى المصباح الزجاجى. أشعلت فتيلته، وشرعت فى وضع الزجاجة على المصباح. فوجئت بها تنكسر من حلقتها. طار صوابى. فذهبت إلى عجوز البيت، لكنها كانت قد خرجت. خرجتُ من البيت باحثًا عن البقال، وعدت بزجاجة مصباح دفعت فيها قرشين ونصف ولم أكد أضعها فى حلق المصباح حتى طقت مكسورة. سارعت مرة أخرى إلى البقال، وجئت بزجاجة ثانية فانكسرت بدورها عند تركيبها، ورحت أروح وأجيء، وقد ركبنى عناد أحمق. وقال لى البقال فى المرة الخامسة، وقد أشفق على قروشى:

- أكيد حلق اللمبة مش مظبوط. روح هات لى اللمبة الأول.

عدت بها إليه. نظر فى حلقها، وقال:

- تمام.

وجاء ببنسة، وأصلح لى بها حلق المصباح، وزاد فأضاءه لى، ووضع الزجاجة فى مكانها بيسر، وسرت بها متمهلا عائدًا إلى البيت.

علقت المصباح فى مسماره. وجلست على سريرى مكتئبًا. فقد صرفت من شهريتى اثنى عشر قرشًا ونصف القرش. ولا أعرف لم تذكرت ثدى أمى، وأنا أرتد عنه بفمى باكيًا، فقد دهنته أمى بالمر، أو الصبر. وقلت لنفسى: "دا فطامك الثانى يا سلم".

وفكرت أننى قد صرت رجلا، وأن عليّ أن أتعلم كيف أحيا وحدى. وشعرت برغبة فى إفراغ مثانتى وأمعائى معًا.

كانت طرقة البيت مضاءة بلمبة بشعلة موضوعة على رف. وبدا لى الكابنيه فى ركن أمام السلم. كان مجرد خن من الطين. وليس أمامه حوض. حملت لمبة الشعلة من الرف، وأطللت فى ذبالة ضوئها داخل الكابنيه. وشعرت بالقرف. مجرد حفرة كالثقب بجانبه مخدتان من الطين للقدمين. وأمامه جردل فى قلبه كوز ماء. سارعت بالتراجع. قائلا لنفسى: "ونعم السكن". وضعت اللمبة على رفها. وفكرت حائراً فيما عليّ أن أفعله مع مثانتى ومصارينى.

شددت باب غرفتى. وباب البيت ورائى. وغادرت البيت. سألت البقال عن اسم الشارع فعرفته، ومدخل الحى وعرفته، وسألته عن أقرب جامع فدلنى على جامع "أبو خليل"، وشرح لى الطريق إليه. ولم أجد كابنيهات الجامع تسر حبيبًا، لكننى قررت أنها أفضل حالا. وحين خرجت مستريحًا، غسلت كفى تحت حنفية الميضأة. وأذهلنى أننى سمعت على بعد سحيق صوت جدى يقول لى من قريتنا على بعد لا أعلمه: طلب العلم له ضريبة يا ابو داود. استحمل. وشققت طريقى مستدلا بأعمدة الكهرباء على مواطئ قدمى، وعلى طريقى إلى البيت.

★★★

فى الصباح سألت مراراً طوال الطريق عن السكة إلى المعهد الدينى، سرت نحواً من كيلو مترين، وأنا أخب فى كاكولاتى الواسعة الأكمام والصدر والذيل، بصورة تتناقض مع إحكام وأناقة العمامة على رأسى. حاذيت سور المحطة ماراً بكفر الحريرى وكفر النحال والمقابر، ثم عبرت مزلقان القطار على يمينى. وانعطفت يمنة أمام حى الحسينية، بجانب أرض فضاء خربة مهجورة بها بقايا زرع. بلغت أخيراً سور المعهد الدينى صانع الطوب وأبوابه الحديدية، وكان الحذاء يخنق قدمى خنقًا.



لا يزال هناك نصف ساعة لدخول المعهد لأنتظم بالدراسة به لأول يوم فى حياتى. فكرت فى الجلوس على الرصيف، وخلع حذائىّ لإراحة قدمى، لكننى خشيت أن تكون قد تورمتا، ولا أستطيع لبسهما مرة أخرى، فلم أنزعهما من قدمى.

أمام المعهد كان بائع بطاطا مشوية صفراء، أعرف طعمها المسكر، الأكثر حلاوة من البطاطا البيضاء. كانت الرائحة فائحة، وكانت النار متقدة على فرن عربة اليد، والبطاطجى البطاط يشوى ويشق بالسكين البطاطات التى شويت بطولها. وثمة طلاب يأكلونها من حولى بنهم وتلمظ. سال لعابى. تذكرت أننى لم أفطر. كانت البطاطاية بتعريفة. لم أفكر كثيراً أنا الذى خسرت ثمن خمس زجاجات لمصباحى. ورحت آكل البطاطا بطاطية إثر بطاطية، يدفعنى الجوع وفراغ البطن وسخونة البطاطا وحلاوة الطعم. ومثل عدد الزجاجات أكلت خمسة بطاطايات.

رأيت الطلاب آكلى البطاطا يتوقفون عن الأكل. ويدخلون المعهد. حان الوقت لدخولى بدورى متحاملا على قدمى خطوة خطوة كمن ختن لتوه. لا أدرى بأى رجل أعرج. وأتذكر يوم ختانى ومشيتى مفرشحاً. كان يومًا لا أنساه.

★★★

كانت الساعة الثامنة إلا الربع حين دق الجرس النحاسى الضخم، إيذانًا باصطفاف الطلاب فى طوابير، يشرف عليها مدرس التربية البدنية كما قيل لى، لكن الطلاب بعمائمهم لم يصطفوا وهم فى اليوم الدراسى الأول. ظلوا متناثرين فى أماكنهم بساحة المعهد الفسيحة، بين مبانيه الثلاثة الضخمة، والحديقتين الوارفتين بالأشجار، وأحواض الزهور. ولم أر بينهم شيخًا كهلا أو هرمًا من شيوخ المعهد. أحسست بنذر الشر تخيم على الساحة، تتجمع تحت العمائم، وتستتر وراء انكواكيل، وتومض بالغضب وراء الجفون.

كانت طرقة البيت مضاءة بلمبة بشعلة موضوعة على رف. وبدا لى الكابنيه فى ركن أمام السلم. كان مجرد خن من الطين. وليس أمامه حوض. حملت لمبة الشعلة من الرف، وأطللت فى ذبالة ضوئها داخل الكابنيه. وشعرت بالقرف. مجرد حفرة كالثقب بجانبه مخدتان من الطين للقدمين. وأمامه جردل فى قلبه كوز ماء. سارعت بالتراجع. قائلا لنفسى: "ونعم السكن". وضعت اللمبة على رفها. وفكرت حائرًا فيما عليّ أن أفعله مع مثانتى ومصارينى.

شددت باب غرفتى. وباب البيت ورائى. وغادرت البيت. سألت البقال عن اسم الشارع فعرفته، ومدخل الحى وعرفته، وسألته عن أقرب جامع فدلنى على جامع "أبو خليل"، وشرح لى الطريق إليه. ولم أجد كابنيهات الجامع تسر حبيبًا، لكننى قررت أنها أفضل حالا. وحين خرجت مستريحًا، غسلت كفى تحت حنفية الميضأة. وأذهلنى أننى سمعت على بعد سحيق صوت جدى يقول لى من قريتنا على بعد لا أعلمه: طلب العلم له ضريبة يا ابو داود. استحمل. وشققت طريقى مستدلا بأعمدة الكهرباء على مواطئ قدمى، وعلى طريقى إلى البيت.

***

فى الصباح سألت مرارًا طوال الطريق عن السكة إلى المعهد الدينى، سرت نحوًا من كيلو مترين، وأنا أخب فى كاكولاتى الواسعة الأكمام والصدر والذيل، بصورة تتناقض مع إحكام وأناقة العمامة على رأسى. حاذيت سور المحطة مارًا بكفر الحريرى وكفر النحال والمقابر، ثم عبرت مزلقان القطار على يمينى، وانعطفت يمنة أمام حى الحسينية، بجانب أرض فضاء خربة مهجورة بها بقايا زرع. بلغت أخيرًا سور المعهد الدينى صانع الشيوخ وأبوابه الحديدية، وكان الحذاء يخنق قدمى خنقًا.



لا يزال هناك نصف ساعة لدخول المعهد لأنتظم بالدراسة به لأول يوم فى حياتى. فكرت فى الجلوس على الرصيف، وخلع حذائىّ لإراحة قدمى، لكننى خشيت أن تكون قد تورمتا، ولا أستطيع لبسهما مرة أخرى، فلم أنزعهما من قدمى.

أمام المعهد كان بائع بطاطا مشوية صفراء، أعرف طعمها المسكر، الأكثر حلاوة من البطاطا البيضاء. كانت الرائحة فائحة، وكانت النار متقدة على فرن عربة اليد، والبطاطجى البطاط يشوى ويشق بالسكين البطاطات التى شويت بطولها. وثمة طلاب يأكلونها من حولى بنهم وتلمظ. سال لعابى. تذكرت أننى لم أفطر. كانت البطاطاية بتعريفة. لم أفكر كثيرًا أنا الذى خسرت ثمن خمس زجاجات لمصباحى. ورحت آكل البطاطا بطاطية إثر بطاطية، يدفعنى الجوع وفراغ البطن وسخونة البطاطا وحلاوة الطعم. ومثل عدد الزجاجات أكلت خمسة بطاطايات.

رأيت الطلاب آكلى البطاطا يتوقفون عن الأكل. ويدخلون المعهد. حان الوقت لدخولى بدورى متحاملا على قدمى خطوة خطوة كمن ختن لتوه. لا أدرى بأى رجل أعرج. وأتذكر يوم ختانى ومشيتى مفرشحًا. كان يومًا لا أنساه.

***

كانت الساعة الثامنة إلا الربع حين دق الجرس النحاسى الضخم، إيذانًا باصطفاف الطلاب فى طوابير، يشرف عليها مدرس التربية البدنية كما قيل لى، لكن الطلاب بعمائمهم لم يصطفوا وهم فى اليوم الدراسى الأول. ظلوا متناثرين فى أماكنهم بساحة المعهد الفسيحة، بين مبانيه الثلاثة الضخمة، والحديقتين الوارفتين بالأشجار، وأحواض الزهور. ولم أر بينهم شيخًا كهلا أو هرمًا من شيوخ المعهد. أحسست بنذر الشر تخيم على الساحة، تتجمع تحت العمائم، وتستتر وراء الكواكيل، وتومض بالغضب وراء الجفون.

وقفت تحت تعريشة أسمنتية السقف، تحملها أعمدة رخامية لا جدران لها. وتحتها كنبات خشبية مصطفة. كانت وقفتى بجانب مدرس الرياضة البدنية فى بدلته البيضاء، وحذائه الكاوتش الأبيض. ورحت أرقب ساحة المعهد، أو ميدانه، وأنا لا أفهم شيئًا مما أراه.

على غير توقع، وفى لحظة خاطفة، بدأت بين الطلاب معركة طاحنة، لا بندقية فيها ولا مسدس. أخرجت الهراوات والعصى من تحت الكواكيل الأنيقة، وظلت العمائم فوق الروس ناصعة البياض، على وجوه محمرة السمرة. تركزت عيناى على "عُتل" فحل فتى معمم، يصول ويجول، مبارزًا فى مكانه وهو يدور حول نفسه كل من يحيط به. يضرب بهراوته الروس تحت العمائم والأعناق والسواعد والسيقان، كأنه لاعب تحطيب ماهر، لا تطوله هراوة أى أحد. كانت هراوته مدقة طعمية مبططة. فأسميته العتل. لا تجسيد عندى للعتل الذى ورد ذكره فى القرآن سواه.

وجدت نفسى أرتجف فزعًا، تائهًا فى كاكولتى، تحت عمامتى، مرائى الدم المتدفق على الوجوه، والكواكيل الملونة بين الرمادى والأسود والبنى، وعلى العصى نفسها، والكل يطارد الكل، ولا أعرف كيف كان الخصم منهم يميز خصمه الآخر، والكل فى رداء واحد، وعمائم متماثلة. وفى كل الجوانب، من ساحات المعهد الأربع، كان أكثر الطلاب يتفرجون صامتين، لا يعنيهم من الأمر شيئًا. صرخت بكل قوتى:

– تعال شوف يابا. تعال شوف يا جدى.

أشفق علىّ مدرس التربية البدنية. ضمنى إلى جانبه بساعده بحنو. ورأيت الدموع تتحدر من عينيه، دمعة إثر دمعة. وسمعته يتمتم بحزن كأنه يغنى:

– يا عينى ع المشايخ.. يا عينى. يا عينى ع المشايخ يا عينى.



رأيت العتل العفى يجر طالبًا عفيًا آخر وراءه.. وقد أحاط بساعده عنقه حتى بلغ به فراغًا بين بناءين، وراح يضربه بهراوته القصيرة على أم رأسه، والشعر يتخضب بالدم، والجلد يتفسخ عن عظم الرأس، والجمجمة تتشدخ.

لم أدر بنفسى، اندفعت نحوهما. حتى بلغتهما، لأنقذ مقهورًا من الموت. جرى ورائى مدرس التربية البدنية، وأمسك بيدى وجرنى عائدًا بى إلى السقيفة. وأجلسنى بجانبه على أريكة خشبية خضراء كأرائك الحدائق العامة. وفى تلك اللحظة أسميت فى نفسى هذا اليوم: "يوم السقيفة".

سمعت أبواق سيارات الإسعاف تزعق أمام أبواب المعهد الثلاثة، وكانت المعركة قد همدت فتوقفت. وراح الكل يتقى شر الكل. وقال لى مدرس التربية البدنية:

– روح يا ابنى. روح. وما تجيش بكره. الدراسة حتتأجل. لحد امته. ما تسألنيش. علمى علمك. الله يعلم.

لم أسأله: لم؟ كنت من حلمى مع صفاء الملائكة، وعمائمهم البيضاء فى فجيعة لن تفارقنى أبدًا. خدعنى جدى وأنا صغير، وهو يحدثنى عن الشيخ الزنكلونى حين زار القرية، وظل يفسر للناس فى الجامع الملحق بدوار العمدة، طوال ثلاث ساعات، آية واحدة: "ولا تأكلوا أموال اليتامى". وخدعنى أبى وشيخه الحافظ التيجانى حين زارنا فى بيتنا بعزبة حبيب بالسنبلاوين. وقال لأبى وأنا أسمعه: ومن يدرس الحديث والتفسير يا شيخ عبد المعطى؟ فكرت آنئذ أننى سأكون شيخًا مطمطمًا، زنكلونيًا آخر.

على مقهى البوسفور بميدان المحطة، تكشفت لى على ألسنة طلاب مشايخ من لاعبى الشطرنج والطاولة حقيقة ما جرى فى يوم السقيفة. أئمة الشيوخ الكبار ممن هم فوق بالقاهرة كان بينهم صراع. كان الصراع بين

أتباع المذاهب الأربعة من جهة، وأنصار القصر وأنصار الوفد من جهة أخرى، ونزل الصراع من فوق إلى شيوخ المعاهد السبعة فى أنحاء مصر، وبُيِّت له فى ليالى الصيف، ونزل من شيوخ المعاهد إلى من دونهم من الشيوخ، فإلى طلابهم ممن لا دخل لهم بصراع الأئمة. لم؟ حتى اليوم لا أعلم. الله وحده يعلم.

***

لم أذهب إلى معهدى إلا بعد يوم السقيفة بأسبوعين. كان الطلبة قد عادوا إليه قبلى بأسبوع، ولم أكن قد عرفت أن تأجيل الدراسة قد انتهى. شغلتنى المدينة الجديدة عن نفسى ومعهدى، فرحت أجوب طرقاتها، وكورنيش بحر مويس، والشوارع والأحياء، وأظل فيها عارى الرأس بدون كاكولتى وعمامتى، وحتى بدون حذائى، وأظل فى ضلالى وتوهانى فى معرفة طريقى إلى بيتى غرفتى. وصرت أستحم فى مغطس جامع "أبو خليل"، وأغسل ثيابى فى ميضأته، خجلا من غسلها فى طشت البيت، وأتردد على مرحاضه. وفى كل مرة تخدش أظافرى جلد كفى وتدميها. لم يعلمنى أحد غسل منديل ولا ثوب.

وتحيرت فى أحياء الزقازيق، فكلها تحمل اسم: كفر. كفر النحال. كفر الحريرى. كفر يوسف. كفر عبد العزيز. كفر النظام. كفر الحسينية. كفر "أبو حسين". كانت كلها كفوراً مثل كفر العنانية القريب من قريتى. خيل إلىّ أن الزقازيق كانت كفوراً متباعدة، ثم نمت والتحمت، وصارت مدينة الزقازيق. وهزرت مع نفسى مبتسماً. تساءلت: "لكن. أين كفر الزقازيق نفسه؟"

وعرفت الجلوس على المقاهى، والفرجة على من يلعبون الطاولة، والدومنه، والشطرنج والكوتشينة. وكان الشاى بتعريفة فقط، وكثيراً ما كنت أشرب الشاى مجاناً من طلبات الفائز فى مقامرات اللعب. ولم أجرؤ قط



على دخول السينما. كنت أقف أمام واجهاتها مندهشاً، وأتعجب كيف يدخلها الرجال والنساء والشيوخ وأنا أظن أن من يدخلها والعياذ بالله م الشواذ والمنحرفين الفاسدين.

***

تسلمت كتبى من ساع بالمعهد، وتسلمت معها ربع جنيه جراية، فوجئ بدخوله جيب جلبابى. فعوضنى عن خسائر زجاجات المصباح الخمس وأزرار البطاطا الخمسة، وقيل لى:

- روح فصل الشافعية. أولى ثالث.

كانت الفصول مقسمة على المذاهب الأربعة: الحنفى والمالكى والشافع والحنبلى. أدهشنى ذلك. ولأن أبى شافعى جعلنى شافعياً مثله.

كان الدرس الأول لى درس فقه، وكان المقعد المتروك لى شاغراً. وكت الشيخ عنوان الدرس على السبورة بين التاريخين الهجرى والميلادى. كتاب الغسل. ولم يكتب بعد العنوان شيئاً قط. فتح الشيخ كتاباً فى يده، وقال لنا:

- افتحوا الكتب يا مشايخ على الدرس.

رنت فى أذنى كلمة يا مشايخ. كدت أضحك. صرت فجأة شيخاً. وراح شيخ الفقه يقرأ ونحن نتابعه. وبين الحين والحين، يشرح لنا معانى المفردات. عند كلمتى الحدث الأكبر نهض الولد الهنداوى. قال للشيخ متسائلا متغابياً، كأنه لا يعرف:

- الحدث الأصغر وعرفناه وعرفنا سببه. لكن الحدث الأكبر يعنى إيه؟ والمنىّ يعنى إيه؟ والودْى يعنى إيه؟ والمذْى يعنى إيه؟

قال الشيخ بهدوء:

- لا حياء فى الدين.

وراح يشرح لنا يعنى إيه، حتى وصل إلى عضوى الحياء والمضاجعة فتوقف، لكن الهنداوى أصر أن يعرف موجبات الغسل، والجنس نفسه. وطلب أن يشرح لنا ذلك بالرسم. ضحكنا وزطنا وتغامزنا واحمرت وجوهنا. كان واضحًا لنا أن الهنداوى يحول الدرس إلى لعب، مجرد لعب. فكلنا يعرف ما تعنيه تلك الكلمات. أدرك الشيخ أن الهنداوى يعرف، وأنه لا يريد سوى استثارته. فسحب خرزانة قصيرة من تحت كاكولته. واتجه إليه غاضبًا قائلا:

- افتح إيديك الاتنين.

قلت لنفسى: "أهون من الضرب فى الفلكة على الرجلين فى الكتاب."

وفوجئ الشيخ بالهنداوى يثب فوق درجه، وراح يقفز من درج إلى درج، ومن صف إلى صف، وهو يزعق: وطى راسك انت وهوه. والشيخ يطارده دون أن تطوله خرزانته. وراح يلهث حتى لم تعد به طاقة. فجلس على كرسى الفصل محمر الوجه، وراح يسعل كمن به ربو.

ساد الصمت فى الفصل لمنظر الشيخ، وأخاف الصمت الهنداوى، فغادر الفصل هاربًا. وقال الشيخ بغلب لطالب:

- خللى الساعى يجيب لى كوباية ميه يا ابنى.

وأخرج من جيبه زجاجة، وسحب من أقراصها حبة، ووضعها تحت لسانه. شرب الشيخ كوب الماء. وظل جالسًا. وجاء ملاحظ القسم، وأعطى الشيخ كشف الغياب والحضور، فأعطاه الشيخ للولد خضر عريف الفصل قائلا له: ناد على الفصل. وراح كل حاضر للدرس يرد: نعم. نعم. واحداً بعد آخر. وقلت لنفسى: "يا نهار اسود. دا فيها حضور وغياب. كل يوم. ويمكن كل حصة."

ذلك اليوم ظل شيخ الفقه صامتًا جالسًا على كرسيه، ونحن صامتون فى



أماكننا، لا يلتفت أحدنا إلى الآخر. وسمعنا صوت الجرس يدق معلنًا نهاية الدرس. فنهض شيخ الفقه واقفًا. ووقف لوقوفه الولد خضر قائلا لنا:

- قيام.

وقفنا احترامًا لشيخنا. وغادر الفصل بهدوء. وتبعناه متدافعين إلى طرقة مبنى القسم الابتدائى الممتدة الواسعة.

كان كل الطلاب فى الطرقة يصيتون ويزيطون، وضجتهم تتردد أصداؤها فى الطرقة الحجرية الضخمة العالية الجدران. ودهشت حين رأيت طلابًا يجرون فى الطرقة، من أولها إلى آخرها، وهم ينشدون: أبو سنة دهب لولى. وشيخ يجرى وراءهم بخرزانته لاهثًا، ويضرب بها كل من تطوله عصاه مرددًا:

- خش الفصل انت وهوه.

ولم يتوقفوا عن الجرى، ويعودوا إلى الفصول إلا حين دق الجرس لبدء حصة تالية. كان الشيخ ذا سنة ذهبية فى فمه، وكان لقبه فى شهادة ميلاده: أبو سنة، وكان مسئولا عن الضبط والربط فى القسم الابتدائى، بغرفه العشرين من أولها إلى آخرها.

★★★

إثر انتهاء الدروس بفصلى غادرت القسم الابتدائى، وتوقفت حين نزلت السلم إلى فتحة باب القسم الحديدى، ورحت أعد الدرجات. كانت سبع عشرة درجة. كان ذلك عادة عندى ملازمة. كلما صعدت درجًا أو نزلت درجًا. لم أستطع الخلاص منها إلا بعد سنين، عندما تكاثر علىّ الدرج فى كل مكان. وعبرت الباب الحديدى المفتوح على مصراعيه، ونزلت ست درجات أخرى.

خطر ببالى أن أكتشف هذا المعهد لأول مرة. طوفت فى الزقازيق من شرقها إلى غربها فى أسبوعين لأكتشفها، مجرد اكتشاف لهيكل مدينة. وها

هو المعهد لم أعرفه بعد. لا من داخله ولا من خارجه. بدا لى المعهد مهيبًا مثل قلعة فى الخيال، من هذه القلاع التى كانت ألف ليلة وليلة وروايات الجيب تتحدث عنها. أحجاره الجيرية الضخمة التى لا طلاء عليها من الخارج. مبانيه الثلاثة المهيبة بأقسامها الثلاثة: القسم الابتدائى على يمين الداخل المواجه. والقسم الثانوى على يساره. وبينهما مبنى الإدارة. الدراسة، والإدارة كلها فى الطابق فوق الأرضى. وغرف الطابق الأرضى كلها فى المبانى الثلاثة للسكن الداخلى للطلاب الفقراء. وأمام غرف السكن كانت أرصفة ثلاثة لها بواكٍ تقطعها أعمدة بانتظام. النوافذ الخارجية لجدران المعهد بالطابق الأرضى من الحديد المزخرف المتقاطع، وكلها ذات تكوين تشكيلى واحد.

مبنى الإدارة هو المبنى الوحيد الذى يصعد إلى طابقه الثانى بدرجين من الرخام. أحدهما فى أوله، ويؤدى إلى غرفة شيخ المعهد المغترب، ولصقها غرفة نومه، ثم غرفة شيخ السكن المقيم، ووكيل شيخ المعهد حين يغيب. ثم غرف الإدارة الأخرى السكرتارية والسجلات وعهدة النظافة، وبوفيه المشايخ وما أشبه.

وأمام المبانى الفخيمة حقًا كانت ساحة المعهد لطوابير الطلاب الصباحية ولنزهات العصارى لطلاب السكن الداخلى. ثم حديقتان عن يمين وشمال كحديقتى أصحاب الجنتين فى سورة الكهف، يمتد بينهما ممر مترب كحوش المعهد. فثلاث بوابات هائلة: باب كبير، يتوسطها بين عمودين من الحجر، ثم بابان صغيران عن يمين وشمال. والسور الخارجى بأسياخه الحديدية المبطنة بشجيرات الحديقتين، يمتد على الجانبين.

فى ركن من الحديقة، بجانب باب صغير على يمين الداخل، كانت غرفة صغيرة لعم مرسى، فيها ينام، وفيها يعيش، وفيها يأكل، وعلى كرسى



أمامها يجلس. وبالمفاتيح الحديدية الضخمة، والأغلال المعلقة على جدار غرفته، يغلق البوابات الثلاث ويفتحها. يعيش وحيداً، يلبس عمامة على جلباب بلدى الطراز، ولا يخفى تأففه كلما رأى طالبًا عارى الرأس، بدون عمامة أو طاقية.

توقفت أمام عم مرسى وأعطيته شلنًا من جرايتى، وتركت عنده كتبى، وسحت فى المعهد لأكتشفه. قطعت الممر المترب بين مبنى القسم الابتدائى، ومبنى الإدارة، لأكتشف مبنى رابعًا فخيمًا، يسد مؤخرة المعهد كلها أمامه بطوله ممر مترب. كان المبنى من طابق واحد. عن يمينه فى ركن السور كان مسجد المعهد لمن شاء أن يصلى، لم أر فيه فيما بعد صلاة جامعة. كان الكل يصلى فيه فرادى، وفى الجمع كانت الصلاة فى أى مسجد جامع من مساجد المدينة.

وفى ركن السور الآخر كان مطعم المعهد الخاص بالفول والطعمية والمخللات، ولا شيء سواها. وبه كانت مناضد ممتدة مكسوة بالصاج، كان من النادر أن يجلس إليها أحد من طلاب السكن الداخلى ليأكل طعامه. كانوا يؤثرون أخذ ما يشترون فى أطباق الصاج، أو السندويتشات فى مزق من الصحف أو ورق الزبدة، ويعودون إلى عنابر سكنهم ليأكلوها على أسرتهم. أو يأكلوها وقوفًا أمام المطعم.

وبين المسجد والمطعم كانت الكابنيهات فى قسم خاص بها على اليمين، والحمامات العشر فى قسم ملاصق لها على اليسار. كان بالكابنيهات عشرون مرحاضًا وراء ساحة مبلطة ببلاطات كبيرة بيضاء. وعلى جانبى الساحة كانت أحواض الوضوء، على الواقف بيضاء ناصعة إذا وجدت من ينظفها.

بهرنى الاكتشاف، فهنا يجب أن أستحم تحت دش، وأنجو بنفسى من مغاطس المساجد البئرية المسمنتة المنتنة الجدران، التى يستحم فيها المريض

والسليم. وقد يتبول فيها لو حزقه البول. وبهرتنى المراحيض فبها خراطيم أدخلت أطرافها بالحنفيات. وبهرنى المطعم، فمنه يمكن أن أتناول فطورى بنصف قرش لا غير. وبهرتنى أحواض غسل الوجوه والأيدى والوضوء، فبها يمكن أن أغسل جلبابى وملابسى الداخلية وشال عمامتى. وبهرنى فراغ المسجد المضاء فى الليالى دائمًا، فهنا يمكن أن أذاكر، وهو أمر لم أفعله قط طوال سبع سنوات سوى مرة واحدة.

عدت إلى عم مرسى لآخذ كتبى. وحين وقفت أمامه تذكرت أنه كان يجب على أن آكل سندويتشًا فى مطعم المعهد. فوجئت بعم مرسى يدعونى إلى الغداء معه داخل غرفته. ترددت معتذرًا فقال لى:

– اجلس. اجلس. كله من فضلة خيرك.

كشف عم مرسى مفرشًا أبيض عن صينية، ففوجئت بما عليها. وراح عم مرسى يحدثنى عن بركات الشلن الذى أعطيته إياه: البطيخة الشليان ثلاثة كيلو بنصف قرش. واللحم نصف رطل بثلاثة قروش ونصف. والزبدة لقلى اللحمة بنصف قرش. وخضروات السلطة: جرجير وشبت وبقدونس وكسبرة وكرفس وخيار وفلفل أخضر وبصل بنصف قرش.

– كم يبقى من الشلن؟

قلت:

– نصف قرش.

فقال لى:

– اديته للبنت اللى بتبيع بطاطا مشوية لصاحب العربية اليد قدام المعهد. غلبانة.

★★★

بعد أسبوع واحد، سئمت الدراسة بالمعهد. ركبنى غرور ما، وأقنعت نفسى، دون أن أعرف ما بهذه الكتب، أن بوسعى أن أذاكرها وحدى، بدون



المشايخ، وقضاء ست ساعات كل يوم مشدودًا إلى درجى، بين طلاب أشد عوزًا منى، تفوح من أفواههم روائح البصل والثوم والمش ودقة الفول، ومن أجسام بعضهم روائح عرق كبريتى. رحت أحضر دروسى يومًا، وأتغيب ثلاثة، وأحضر حصتين، وأتدلى من النافذة لأسقط فى الممر الفاصل بين جدارى المعهد الدينى ومدرسة الصنائع غير مبال بسقوطى على عجزى، أو التواء كاحلى.

على كورنيش بحر مويس، رأيت عمارة من طابقين على الرصيف، يصعد أمامها سلم إلى الطابق الأول، تحته باب بيت مسكون. أسفل السلم رأيت لافتة نحاسية لامعة. مكتوبًا عليها: مكتبة بحر مويس. همست لنفسى: "فرجت. سأقرأ كتبًا بالمجان." ورحت أروح وأجيء أمام المكتبة مترددًا فى صعود سلم الرصيف الملتصق بالجدار. كانت أول مكتبة عامة أراها فى حياتى. وكانت لافتتها أول لافتة أراها لمكتبة عامة.

صعدت السلم. ووقفت على البسطة أتأمل ما وراء باب المكتبة. عبرت الباب، وشيء فيّ يرتجف. أمليت اسمى. لم يكن فى يد أحد فى مصر كلها بطاقة شخصية. أمليت عنوانى بكفر الحريرى. ذكرت أننى طالب بالمعهد الدينى. قال لى من يكتب: غرفة الكتب اللغوية على الشمال، والدينية على اليمين. قلت له بدون حياء:

– عايز أقرا روايات جيب.

نظر إليّ بدهشة، ومط شفتيه بقرف منى، وقال لى:

قدامك فى الوش، على الجانبين، دواليب كلها قصص.

كانت مكتبة مفتوحة. الكتب فيها واقفة متضامة على أعجازها أو روسها. كان الضوء المنار طيبًا. ووقعت عيناى على صف من المجلدات: طرزان. روكامبول. باردليان وفوستا. كنت شديد الحنين إلى روايات الجيب.

قرأت الكثير منها فى السنبلاوين، كل يوم رواية أو اثنتين أو ثلاثًا، حسب فلوسى.

قلت لنفسى، وأنا أفتح المجلد الأول من مجلدات طرزان التسعة: "دى القراية والا بلاش، وببلاش." ورحت أقرأ صفحة بعد صفحة إلى أن تغلق المكتبة فى الواحدة والنصف، لتعود لتفتح بابها مرة أخرى فى الخامسة مساء. لكننى كنت أوثر فى العصارى والليالى سهرات مقاهى الزقازيق، وأعود لأنام مخموداً وسعيداً بعد تناول نصف رغيف، أحشوه لنفسى بالسمن البلدى، خير أمى، والسكر المدشوش، خير أبى، وكتب المعهد كلها فوق بعضها البعض لم تفتح، فوق ورقة جرنال أسفل السرير.

★★★

طارت فلوسى، وأمامى من الشهر أسبوع بطوله. ولعنت يوم الزجاجة، وأياماً أخرى على المقاهى. توقفت أمام دكان نجار بكفر الحريرى، وقلت له:

– عم. يا عم.

نظر إليّ فقلت له:

– مش عايز نقّار؟

فقال لى وهو يضحك:

– نقار؟ يعنى إيه؟

فقلت:

– يعنى أنقر الخشب بالأزميل. أنا شاطر فى النقر. جربنى.

كنت أساعد نجاراً بعزبة حبيب من باب قضاء الوقت، وتعلمت النقر بالإزميل فى كافة أوضاع النقر. ورحت أعمل بمهارة والرجل يراقبنى، وهو يمسح بالفارة قطع خشب أخرى، ويضعها أمامى، وعليها علامات النقر بانتظام بالقلم الرصاص. وعندما انتهيت كان الظهر قد ولى، والعصر قد ولى، وحان وقت الغروب، فناولنى عشرة قروش.



مر الأسبوع بسلام. وبعث إليّ أبى بجنيه ونصف، مصروف الشهر، مع طالب زميل عائد من السنبلاوين. رحت أتأمل الجنيه لأول مرة. كان مكتوباً عليه: تتعهد وزارة الخزانة بدفع جنيه من الذهب مقابل هذا السند.

★★★

رآنى عبد القادر أفندى صاحب أبى أنقر الخشب عند النجار بحى كفر الحريرى. رأيت ظله على الأرض ورأسه مائل نحوى. رفعت رأسى، وبهت حين رأيته يتثبت من أننى هو ابن صاحبه. توقعت أن يقول لى شيئًا، لكنه تركنى ومضى فى طريقه إلى بيته. أدركت أنه سيكتب إلى أبى، ووجف قلبى رعبًا، لكننى استمررت فى عملى. سألنى النجار:

– أتعرفه؟

قلت له:

– هو يعرفنى، وهو صاحب أبى.

فقال لى:

– من الغد ستعمل داخل المحل حتى لا يراك أحد ويعرفك.

وسكت لحظة ثم قال:

– الشغل مش عيب.

وسكت لحظة، ثم قال:

– يا ريت ليه ابن زيك، يجمع بين التعليم والشغل. الصنعة أمان. والتعليم نور.

شعرت بالخجل من نفسى. فأنا فى الحقيقة أشتغل ولا أتعلم، وأصيع فى المدينة مثل.. مثل..

★★★

أمام غرفتى، فى بيت المعلمة المتقاعدة، كان يسكن كهل وسيم، حليق دائمًا، أنيق دائمًا، مسبسب الشعر دائمًا، معووج الطاقية القطنية، فى

جلبابه البلدى السمنى اللون. كان باب غرفته يقابل باب غرفتى. ونادراً ما كنت أراه. كان يبيع ما تيسر من سلع المواسم الزراعية على عربة كارو، يستأجرها ويطوف بها فى حارات الأحياء، للكسالى عن الذهاب إلى الأسواق. كان الوقت صباح يوم جمعة. سمعته يبكى بحرقة، ويتواصل بكاؤه، ويتردد حتى يصبح نشيجاً مفجعاً.

فتحت باب غرفتى. ورأيت باب غرفته مفتوحاً. وسمعت المعلمة المتقاعدة تحادثه. سمعتها تقول له:

- عملت اللى عليك يا راجل يا طيب يا سكره. جواز وما تجوزتش بعد ما هربت أمه وسابته. ضيعت سنين عمرك علشان تربيه. وما طمرش فيه. شوف حالك. خده وارجع العزبة، وافتح لك دكانة، وشغله فلاح. سيب الأيام تعلمه.

سمعته يقول لها:

- حيهرب من العزبة يا ست الناس. كنت عايزه يتعلم ويبقى ابن مدارس.

سمعتها تقول له:

- يبقى تسيبه لقضاه زى أمه.

سمعتها تتنهد، وتقول:

- مكتوب علينا وعليه.

رددت باب غرفتى، وجلست مهموماً، وقد زاد خجلى من نفسى. سألت نفسى: ذلك حاله، مع ولد واحد، فكيف يكون حال أبى مع أربعة من البنين والبنات والبقية ستأتى. كان قلبى هشاً بطبيعته. شعرت برغبة فى البكاء، لكن دمعة لم تسقط لى من عين.

فى الليل، راح جارى المفجوع فى ابنه، يصرخ صرخات مدوية أفزعت



الحارة والحارات القريبة. ولم يلبث أن خمد صوته فجأة. وجاء الإسعاف وأعلن موته، فقد طفحت معدته دماً تدفق من أنفه. وظل ابنه حياً من بعده. رأيته مراراً يدفع مع الأولاد المشردين عربة الدعاية المتجولة لدار سينما، نظير عشرة قروش، ودخول السينما كل ليلة، وفوقها كان مثلث خشبى بطول العربة وعرضها، عليها من ناحية أفيشات الأفلام التى تعرض حالياً، ومن ناحية أخرى أفيشات الأفلام التى سيبدأ عرضها فى الأسبوع القادم.

قلت لنفسى:"سأعود إلى دراستى بالمعهد، وأنتظم بها." وأكدت ذلك لنفسى، لكننى لم أنتظم مرة أخرى، فيما عاهدت عليه نفسى، حتى رأيت أبى يطب عليّ ذات نهار، وأنا النقّار أنقر الخشب بدكان النجار.

★★★

أشار أبى إلىّ فنهضت واقفاً، والنجار ينظر إلينا، دون أن يقول لى أو له شيئاً. أشار إلىّ أبى فتبعته طائعاً. جلس بجانبى فى الغرفة على سرير مهوش الملاءة، ورأى الكتب تحت رجل السرير موضوعة فوق بعضها البعض، وفهمت ما فهمه هو. كتاب منها لم يفتح بعد.

توقعت أن ينهض واقفاً، وأن يسحب خرزانته من تحت كاكولته، ويضربنى بها علقة. لكنه لم يفعل، وظل مطرقاً صامتاً يفكر. ثم رفع رأسه، وراح يسألنى بصوت محايد، عن لبسى، وثيابى، وحمامى، ومعهدى، ودروسى، وأوقات فراغى. ورحت أجيبه بصدق إلا عن أمر واحد، هو مدى انتظامى بدروسى فى المعهد. قال لى:

- لن تعيش بعد ذلك وحدك. أنت لا تزال بحاجة إلى من تعيش معه ويرشدك. لكن، فلندع ذلك إلى أن أعود من الحج مع جدك. سنغيب شهراً. سنسافر ونعود بالمركب فى البحر. سأدعو لك بالتوفيق فى رحاب الكعبة، ومسجد النبى.

دهشت لحديث أبى لى بهدوء مخيف. وما أدهشنى أكثر أنه كان يتحدث بالفصحى، مع تسكين أواخر الكلمات، شأنه شأن أفراد عديدين من أسرتى بالقرية، حين يفرض عليهم الموقف التحدث بحكمة، أو حين يغضبونْ أيضًا، ويتحدون الغير.

ونهض أبى قائلا لى:

– تعال معى. سنتغدى معًا.

ثم قال لى ونحن على باب البيت:

– أتعرف مطعمًا قريبًا للكباب؟

تغدينا معًا فى أول مطعم قابلناه بشارع كفر النظام. وطلب ماء مثلجًا لنا. ودفع الحساب لنا معا عشرة قروش بحالها. وقبل أن ننهض مد يده فى جيبه، وأعطانى شهريتى، وقال لى:

– ستزور أمك كل أسبوع، لتطمئن عليها وعلى إخوتك. أنت الأكبر فلا تخيب أملى. وستأخذ منها الشهرية القادمة بعد شهر لمن يعيش.

ثم قال لى:

– انت استلفت ربع جنيه من عبد القادر أفندى. أعطيت له ما عليك. مد رجليك على قد لحافك يا سليمان. دبر حالك. ولا تمد يديك لأحد. الدين ذل عند السؤال، وهم عند الدفع.

ثم نهض ونهضت معه وهو يقول لى:

– حتوصلنى للمحطة.

فى المحطة، رحت أبحث عما ينبغى لى أن أقوله، وهو ذاهب إلى الحج. عثرت على ما أريده. قلت له:

– حج مبرور إن شاء الله.

ابتسم، ومسح بكفه على رأسى، وقبلنى قائلا:



– بورك فيك. عقبى لك.

كدت أن أبكي لحنانه. ولم يلبث أن قال لى:

– وافتح كتبك يا سليمان.

وجمت. أخيرًا قالها أبى. وأخيرًا قال لى ما جاء من أجله وهو يركب القطار:

– إذا عايز تشتغل نجار، فى عزبة حبيب نجار. أسيبك عنده وانت حر نفسك.

وتحرك به القطار مبتعدًا. وتركنى غارقًا فى الخجل. عاجزًا عن تبرير نفسى.

والقطار قد تحرك بأبى زعقت لأبى:

– أبا. خد لبالك من نفسك ومن جدى.

وغاب القطار واختفى.

★★★

قضيت ساعة من الليل فى بخ شال عمامتى بالماء. كان شالا أبيض حريريًا، أحد شالين زودنى بهما أبى من أجل عمامتى. وأوصانى. فى كل أسبوع كان علىَّ أن ألف شالا وأغسل الشال الآخر، وأنثره وأعلقه على أى جلباب معلق على مسمار، وسوف يجف وحده بسرعة. وفى كل أسبوع، قبل ظهيرة يوم الجمعة علىّ أن ألف شال عمامتى، ومن أجل لفها زودنى بعلبة دبابيس، ذات رءوس دقيقة جدًا كرءوس دبابيس الخياطين الذين يخيطون البدل والكواكيل.

ولم أكن بحاجة إلى أن يعلمنى أبى لف عمامتى، فقد راقبته طويلا وهو يلف عمامته بعد بخه لشاله، ولفه مكورًا على بعضه البعض بخفة مرهفة، ليصل الماء إلى كل خيوطه، وتركه برهة. ثم فتح تكويره ونثره بعزم الجهد،

لكى لا يبقى فيه من الماء سوى نداوة خفيفة، ثم ثنيه كمثلث، طرف ركن فوق الركن الآخر بطرف الشال المناظر له لا المقابل، ثم طى الشال على قاعدته طيتين، بحيث يكون وضع رأس مثلث الشال دون القاعدة. ثم شد الشال بدءًا من طرف قاعدته على دائر العمامة من أسفلها، ركنًا بعد ركن من أركانها الأربعة.

كان أبى عند لفه لشال العمامة يضع أولا فوطة وجه قطنية على ركبته، ويلبس فراغ العمامة للفوطة وركبته ويكبسها كبسًا محكمًا. ثم يبدأ بلف الشال من قاعدة العمامة وإدارته مع حركة لف الشال على الركبة. وأثناء التدوير كان أبى يغرس دبابيس بشال العمامة تقريبًا ركنًا بعد ركن من أركان العمامة فى أوضاع شتى. وكان رشقه للدبابيس متفننًا وعجيبًا بالحدس، وحسب تقدير يده الماهرة، وعيناه مركزتان على الشال والدبابيس، ولا يستطيع أحد حين ينشغل أبى بلف عمامته أن يوجه إليه أى كلمة. حتى لا يقطع عليه حبال اللف. دبابيس من اليمين إلى اليسار وبالعكس، ودبابيس من الأسفل إلى الأعلى وبالعكس، ودبابيس مائلة وموروبة بأوضاع شتى.

وفى كل ذلك اللف، فشراريب الشال كلها متجهة إلى أعلى لا تبين إلا عند اللفة الأخيرة، وليس بالوسع رؤية عين ناظر إليها، عندما تتألق فى كمالها وبهائها، وتتجلى كما الشمس والقمر فى كامل استدارتها وانتصابها، إلا أن يعجب لإحكام الصنعة، ويزدرى بجانبها أى طربوش لا شال له، أو أية عمامة لف شالها عليها على عجل، وكيفما اتفق. كان ذلك طراز عمامات المتأنقين النظاف الوجوه والأيدى والقلوب. هكذا كان يقول لى أبى.

من يلف العمامة مثلى. لقد صرت خبيرًا منذ عامين مضيا، منذ أن أدخلت إلى كتّاب الشيخ إدريس. جربت مرة، وفى يوم جمعة، وهو يأخذ



حمام صباح الجمعة، أن ألف له شال عمامته دون أن أستأذنه. فعلت مثلما كان يفعل، بخًا وتكويرًا ونترًا وفردًا وطيًا وتسوية، لفة لفة، ودبوسًا دبوسًا، وشرابية شرابية، أبلها بريقى، وأبرمها يمينًا بخفة من أسفل الشرابة إلى أعلاها.

وحين طلب أبى منى عمامته لبخ شاله، ولفها بيده، فوجئ بها ملفوفة مقلوظة، وأنا أديرها أمامه مزهوًا بها، على طرف سبابتى فى قلب جوفها. رآها أبى جيدة القلوظة، متأنقة. فهم أبى. نظر أبى إليها لمس دائرة الشال، فلم يغزه منها دبوس واحد. وضعها على رأسه وجدها محكمة لا واسعة ولا ضيقة. نظر إلىّ بزهو انبكّ معه الدم فى بشرة وجهه. قبلنى. منحنى قرش صاغ. قال لى:

- كل أسبوع لفها لى يا شيخ سليمان.

★★★

اكتشفت مصادفة عمل صاحبة غرفتى بكفر الحريرى. كنت قادمًا من الشارع الرئيسى لكفر النظام، حين رأيتها جالسة تحت كوبرى القطار، على رصيف ضيق، وأمامها حزم من البصل والجرجير والفجل، وكومتان من الليمون، والرنجة، وبجانبها كانت صفيحة صدئة بها أنشوجة، تفوح منها رائحة زاعقة.

كان لصاحبة البيت ابن، وكان الابن سائق حنطور وصاحبه. رأيته فى عربته يومًا أمام باب البيت. وكانت للابن زوجة، وسيمة الشكل، مهضومة البدن، تكاد تكون جلدًا على عظم، لم أرها فى البيت يومًا، حين تأتى لزيارة حماتها، إلا ومعها أربعة أبناء صغار، فوق رءوس بعضهم البعض. لم أعرف الصبى منهم من الصبية. وكانت دائمًا ترتدى على اللحم ثوبًا واحدًا أصفر اللون، نقوشه ورقية صغيرة خضراء. وكثيرًا ما كانت تأتى إلىّ فى غرفتى،

وتدفع الباب، وتعرض عليّ تنظيف غرفتي، واعتدت أن أضع في يدها مبلغًا، خمسة قروش دفعة واحدة، ولم أكترث بصاحبة البيت حين لامتني قائلة:

- كفاية عليها قرشين.

لم أشعر بمحنة زوجة الابن إلا حين قالت لي في مرة:

- مش عايزة فلوس. عايزة عشا العيال.

قلت لها آنذاك:

- قدامك الأكل في الركن. خدي اللي انت عايزاه.

ذهبت إلى ركن الغرفة، وفردت حجرها، وأخذت ما تريده. وحين وقفت، جاءت إليّ، وقد فتحت أطراف حجرها بيديها، لتريني ما أخذت، وقالت لي:

- أخذت خمس بيضات، وحتة جبنة، ولوحتين سكر وسمن.

نظرت إلى حجرها، لأنظر أين وضعت السمن في حجرها، وأدركتْ ما خطر لي، فقالت لي:

- ما تخافش. السمن في قلب رغيف.

واتجهت إلى الباب المفتوح. وعند الباب التفتت قائلة لي:

- انت طيب. لو عزت أي حاجة، في أي وقت، أنا تحت أمرك.

وأضافت:

- ما تخافش من حماتي. ما هيش داريانا بالدنيا.

وردت الباب وراءها. ولا أعرف لم تذكرت في تلك اللحظة، درس الغسل الذي استمعت إليه صباح يوم مضى، في فصلي بالمعهد الديني. أحسست بجسد المرأة فجأة، وهي ماثلة أمامي. لحم على عظم، داخل جلباب. نهدان ممصوصان، وعينان واسعتان ربما من الجوع. وشعر مرسل على كتفيها لم يفلح مشط الفلاية العظم في تسريحه، بعد غسله بالجاز. ومعها رائحة أنثى يشي بها عرق تجمد وسدّ المسام.



شعرت تحت أظافري بدبيب نمل لأول مرة. أدركت أنها فتنة كفتنة يوسف، فاستغفرت الله في سري. يخيل لي الآن أنها أحست بي عبر الفراغ بيننا، في حمرة وجهي، أو توقد عيني، فقد بدا على وجهها طيف بسمة، وتألق عينين، وهي ترد الباب وراءها.

★★★

تلك الليلة. استسلمت للنوم وهي ماثلة أمامي، وقد انكمش بعضي في بعضي في رجفة، أتضاغط في نفسي على نفسي، كأني على وشك حمى، ودخلت في غيبوبة نوم وسنان ناعم، موجع وقاس، ذكرني بأدوار الملاريا التي كانت تعاودني بكوابيسها في القرية، كل صيف.

أحسست بباب غرفتي يدفع برفق في ظلام الليل، وقد خمد ضوء المصباح على الحائط. رأيت عينيها تسيران نحوي. نظرت إليها بافتتان ولهفة وخوف، أحسست أن أحدنا سيأكل الآخر. لم أرها تغلق وراءها باب الغرفة. بدت لي الغرفة بلا جدران، ولا أرض، ولا سقف. لا شيء، ولا أحد سواها وسواي. دفعتني بكوعها فتزحزحت على سريري السفري جهة ما أظن أنه نافذة. تمددت بجانبي مستلقية على ظهرها. انتظرتُ لحظة، لكنني ظللت غارقًا في الخوف بلا حركة. همست:

- لا. دا انت خام خالص.

أو لعلها قالت:

- لا. دا انت خيبة خالص.

استدارت لي. لزت نهديها في كتفي، كانا أغنى نهدين في الدنيا. أدرت نحوها وجهي. قالت لي لاهثة الأنفاس:

- بوسني.

قبلتها فأطالت القبلة. عندئذ جلست، وقالت:

– استنى.

نزعت عنها جلبابها وحده، فقفزت لى عروس البحر فى ظلام الليل. نزعت عنى جلبابى دون أن أكون بحاجة إلى وقوف أو جلوس، وأحسست بالأرض تدور، والأفلاك تدور بنا من حولى وحولها. صرنا مركز الكون كله، وليله ونهاره، وفصوله الأربعة، مرة بعد مرة. قالت لى وهى تغادرنى:

– بكره. ما تنامش.

واختفت فجأة.

صحوت فجأة. وجدت الباب مغلقًا، والغرفة مظلمة، وقد هدأت الرجل فى الحارة، وأحسست ببلل، وشممت رائحة عجين متخمر، وصفار بيض محترق يملأ الغرفة. سألت نفسى حائرًا:

– أكانت هنا؟ أكان ما جرى هو الاستحلام فى المنام، لأول مرة؟

***

فى الصباح صحوت. تذكرت ما حدث. بدا لى ما كان حلمًا لا حقيقة له. تحسست نفسى. كان كل شيء بى شاهداً على ما حدث. أنا جُنب إذن، ولقد بلغت ودخلت دنيا وصرت رجلا. كنت بالأمس فقط غير مكلف ولا مسئول أمام الله. اليوم وقد بلغت الحُلم، صرت مسئولا أمامه عن كل ما أفعله، وأفكر فيه. انتهت طفولتى وصباى، ولم يعد حتى أبى مسئولا عنى. شعرت فى تلك اللحظة باليتم، وصار علىّ، أنا الذى لا أصلى، أن أغتسل من الجنابة، مثلى مثل أبى وجدى.

صررت جلبابًا نظيفًا، وفانلة، ولباسا، وفوطة. وحرت لحظة أين أذهب لأغتسل. عدلت عن الذهاب إلى حمامات المعهد فالدراسة قائمة به الآن. لا مفر لى إذن من مغطس مسجد "أبو خليل".

التففت حول المسجد من طرق جانبية، حتى لا أمر على المعسكر الإنجليزى الصغير المقام فى ميدان فسيح أمام المسجد. دخلت الميضأة،



نزعت ثيابى، ونويت الغسل، وانزلقت فى بئر المغطس. جففت نفسى، وصررت الفوطة والثياب المخلوعة، وحملتها منسلا عائداً إلى غرفتى.

***

لم أطق عصر ذلك اليوم البقاء ساعة فى غرفتى المقبضة. لم أطق الجلوس فى مقهى البوسفور الأثير لدىّ، وقطع الوقت أو قتله بالفرجة على ألعاب المقاهى. لم أطق التجول على غير هدى فى شوارع الزقازيق وحاراتها، ولا ترقب غروب الشمس، وانعكاسات الشفق على مياه بحر مويس الرجراجة. شدتنى إليها فقط، بعد ليلة زائرة الليل، صور الإعلانات السينمائية بشارع عباس، وبها وجوه شابة كالورود، شبْعى بجمال الصحة، وألق الألوان. رحت أتنقل بينها حالمًا بعوالم مسحورة، أعرف أننى لن أصل إليها قط، إلا فى لحظات عابرة من الخيال والأوهام.

أدرك أن ليلة زائرة الليل، وهمًا كانت أو حقيقة، قد تعدت بى شاطئ المألوف، إلى عوالم ألف ليلة. أدركت أننى قد دخلت دنيا أعيش فيها، ولم أر ما بها من مسرة، وتجاوزت حدود الرضا والألفة، إلى دنيا يختلط فيها الرضا بالشعور بالذنب والإثم، ولا سبيل إلى المقاومة. توقفت أمام سينما أبو لون. استعرض أفيشات الفيلمين العربى والإفرنجى وصور أبطالهما.

رأيت صورة طرزان الخيالية تخرج من مجلدات طانيوس عبده المترجمة، فى مكتبة بحر مويس، وتتجسد أمامى، وهو معلق بحبل فى الفضاء، طائرًا به مع حبيبته من شجرة سامقة إلى شجرة سامقة. كانت عارية إلا من ورقتى شجرة على النهدين، وورقة شجرة على موضع العفة. ورأيت أفيشًا آخر لفيلم عربى بطلته وسيمة حلوة التقاطيع رشيقة، اليوم سأرى أنثيين، لا أعرف كيف ستتحركان، على ما يقال أنه شاشة فضية.

عجزت عن المقاومة. وقفت فى الصف. وصلت إلى شباك التذاكر. وقفت أمام أنثى الشباك. قدمت لها شلنًا، وعيناى مثبتتان على وجهها، ومفرق ممر

مسحور بين نهديها. أعطتني تذكرة، وناولتني ثلاثة قروش، ولمست كفها كفي. سرى في جسدي دبيب النمل ودفؤه مرة أخرى فلم أسحب يدي، ولاحت لي بسمتها، وهي تسحب يدها. خرجت من الصف، واتجهت إلى المدخل، فأخذ مني عامل الباب نصف التذكرة، وأعطاني النصف الآخر.

جلست في الترسو أنتظر لحظة البدء، وعيني مثل غيري تنظر إلى شاشة جيرية من القماش الأبيض، مشدودة على الجدار المقابل، والضوء كاب، والضجة هائلة، وقشور اللب تتطاير من الخلف على الأقفية، وروائح عرق الدنيا تزكم أنفي من كل جهة. انطفأ الضوء بقاعة السينما فانقطعت في التو أصوات الترسو، والصالة، والبلكون، والألواج. تركزت عيناي على الشاشة الجيرية كانت من قماش أبيض مشدود. لماذا يسمونها إذن شاشة فضية؟

فوجئت بمن كانوا على الأفيش يتحركون ويتحدثون على الشاشة. نظرت حوالي لأرى من أين قدموا. رأيت خلفي على أعلى الجدار ثقبًا تتدفق منه درجات من الأشعة متقلبة، تدور حول نفسها، تتجسد لتوها على الشاشة الجيرية، والمكان من حولهم قد صارت له أبعاده. تابعت المشاهد التالية، بحركاتها وأغانيها، لم يكن ينقصها لحواسي شيء سوى الروائح، روائح البشر والأماكن، والخروج من الجدار الجيري.

فجأة انتفضت واقفًا صارخًا. كان ثمة قطار يقبل بواجهة وابوره، نحو كل من في الصالة. أيقنت أنني قد ضعت، وضاع معي كل من حولي. سمعت انفجارات الضحك والشتائم: اقعد اقعد. وبينها لم يفارقني صوت: اقعد يا غبي. احنا في سينما. اختفى القطار كما أقبل. وجلست خجلا. تذكرت مشاهد صندوق الدنيا حين كان يهلّ حامله على قريتي. الصور مثلها عدا أن هذه أروع وأكثر حياة وحركة وتتكلم، وتسلم وتعانق وتقبل، وتمشي وتأكل وتشرب. غادرت السينما. سرت كالتائه في المدينة.

★★★



جلست على المقهى بردان متوحدًا. خيل إليّ في تلك الليلة، ليلة السينما، أنني قد انتقلت من عصر إلى عصر. تذكرت يومًا سمعت فيه صوت الراديو، ورأيت الراديو لأول مرة. كان أبي قد انتقل بنا من قريتنا إلى السنبلاوين، واستقر بنا في عزبة حبيب، وبدأ يمارس عمله هو الأزهري، حامل شهادة الثانوية الأزهرية، سكرتيرًا لمدرسة المدينة الأولية.

أمام ساحة قصر أصفر بشارع القنطرة بالسنبلاوين، سمعت صوت مقرئ يقرأ القرآن، أجمل وأعمق وأرحب صوتًا يمكن أن يسمعه أحد، لقارئ يقرأ القرآن، كأنه في معبد. كان الصوت خارجًا من محل ساعاتي. توقفت أمامه أسمع. جرؤت ودخلت المحل. جلت بعيني فلم أر القارئ. سألت الساعاتي:

- مين بيقرا القرآن هنا. صوته حلو.

ابتسم الساعاتي. نهض. سحبني من يدي. وأراني صندوقًا من الخشب به مسطرة من زجاج، وقال لي:

- الشيخ محمد رفعت بيقرا في الراديو ده. صوته جاي من مصر.

صحت:

- من مصر، لحد هنا؟ ازاي؟

حين عدت إلى بيت الأهل، رحت أتوسل إلى أبي باكيًا، ليشتري لنا راديو الشيخ رفعت، وليس أي راديو آخر.

وضع أبي يده على رأسي، وقال:

- إن شاء الله.

ولزم الصمت. أحسست بعجزه عن شراء الراديو. أحسست أننا جئنا من قرية وراء الشمس. أقصى ما شاهدته من عجائب الدنيا في القرية. يوم دخل عسكري من النقطة قريتنا، وهو يركب عجلة، فرحنا نحن أولاد القرية

نجرى وراءه ووراءها، فالحديد يجرى براكبه على عجلتين كأنه شيطان، ويوم جاء الحاج بلهنية من طنطا، وفاجأ القرية فى وقت القيلولة، بصوت يغنى مدويًا: أحب عيشة الحرية. صحت القرية من قيلولتها، واتجهت من كل جهة ناحية الصوت. رأت الجرامفون لأول مرة فى أرض محروثة، وشهدت وسمعت أسطوانة تغنى، وبوقًا فوقها يزعق: أحب عيشة الحرية. زى الطيور بين الأغصان. يومها ضحك عبده الفشار، وكان خالا لأبى، وقال باستنكار:

– عيشة الحرية. تعال عيشها، وشيل الفاس.

وضحك الناس وعبد الوهاب لا يزال يغنى.

★★★

فى طريق العودة تذكرت أن اليوم عيد ميلادى. خطر لى خاطر مجنون: لم لا أحتفل به كما يحتفل به ناس رأيتهم على الشاشة الفضية. حسبت ما بجيبى. اشتريت فى كوب دفعت ثمنه عسلا أسود، بنصف قرش. ورغيفًا بمليمين ونصف مليم، وزجاجة كوكاكولا كبيرة سأذوقها لأول مرة بنصف قرش آخر، وشمعة كبيرة بمليم واحد. فوجئت بحى الحريرى وقد هجع، وانطفأت أنواره الهادية عبر ثقوب النوافذ والأبواب.

فوجئت فى ظلام الليل، بهرير كلب ضخم يقبل نحوى من قلب الحارة. سرى إلىّ شعور بالخطر. أدركت أن الكلب مسعور. فى اللحظة التالية وثب الكلب عاليًا نحو وجهى، فى اللحظة نفسها، أنا البطيء التفكير والاستجابة، طوحت بقدمى نحوه. أصابت مقدمة حذائى الكلب فى عنقه، تحت فمه. هوى الكلب وعوى. وارتد عاويًا ومبتعدًا. رأيته ضخمًا أسود اللون، أكثر ظلمة من ظلام الليل.

عند باب بيتى رأيت صاحبة البيت واقفة فى فراغ الباب بعجزها وخضاب وجهها، وفى يدها مصباح بشعلة. قالت لى:



– يا حبيبى. انكتب لك عمر. ادخل يا ابنى.

قادتنى إلى غرفتى. دفعت الباب. أضاءت لى مصباحى. وبسطت لى ورقة صحيفة جلبتها من الركن، ووضعتها على طرف سريرى لأتعشى، رأت الشمعة. فهمتْ. ابتسمت. قالت:

– عيد ميلادك؟

ذهبت إلى غرفتها، وعادت بكوبين وسمكة رنجة شويت من قبل، وانسخت. سكبتْ الكوكاكولا فى الكوبين لى ولها. أضاءت الشمعة. تراقص ضوؤها مع أنفاسها وأنفاسى، والهواء المتسلل من ثقوب النافذة. فجأة، قبل أن نمد أيدينا إلى طعامنا، رأيتها تغنى: هابى برث دى تو يو. هابى برث دى تو يو.. هابى برث دى تو داووود. كأن السينما قد نقلت إلى غرفتى. ضحكنا. مالت إلىّ، وقبلتنى قبلة خاطفة، ونهضت قائلة:

– كل سنة وانت طيب.

★★★

لم أنفذ شيئًا مما عاهدت أبى عليه بينى وبين نفسى، سوى الانقطاع عن الذهاب إلى النجار. ومقاطعة صاحبه عبد القادر أفندى القريب السكن منى. ورحت أضيع وقتى فى مدينة الزقازيق مرات أخرى، بين مكتبة بحر مويس، وكورنيش بحر مويس، ومقهى البوسفور، وأفلام السينما الجديدة، فى كل دور السينما بالمدينة، يعيننى عليها أن تذكرتها فى الترسو بقرشين. ورأيت فى عز الظهيرة، على شاطئ بحر مويس حين تنقطع الرجل، أو يسقط المطر، ويقيل الكثيرون فى منازلهم، ما يثير خجلى وحسدى وفضولى.

تحت أشجار الكورنيش، كانت فتيات شريدات، بين باعة للمناديل والجوارب والأزهار والعطور والأمشاط، ومحترفات للبغاء، يستترن وراء الأشجار، ويمارسن البغاء علانية، نظير قرشين أو خمسة قروش، وهن

واقفات متعجلات، مع شباب من العمال والمشردين وطلاب المدارس المراهقين.

تمنيت أن أدخل فى اللعبة، شأنى شأن غيرى، لكن الخجل من العلانية، وبهذه الصورة المقرفة، حجزنى دائمًا. وتمنيت مراراً، أن أضع على رأسى طاقية إخفاء، وأقتحم حى الوسعة، مع المستترين المتنكرين الساعين إليه، فى ظلام الليل، أو عز الظهيرة، أو مع قواد من هؤلاء القوادين المنتشرين فى مقاهى المدينة، وهم يعرضون صوراً لفتيات ونساء فى أوضاع محتشمة، وأوضاع فاضحة. وحققت هذه الأمنية ليالى طويلة، مع الاحتلام حينًا، والاستمناء حينًا آخر. قدرَ ما كان يسوقنى سوقًا.

★★★

على ميدان المحطة، بمقابل شارع عباس، كان نفق يرى فاغراً فاه، مغموراً بالضوء من خارجه فى النهار، والضوء فى داخله فى الليل. كان النفق ممتداً تحت قضبان القطارات المارة فوقه شمالا إلى المنصورة ودمياط، وجنوبًا إلى القاهرة وشرقًا إلى معسكرات الإنجليز والإسماعيلية. كل الأنفاق التى عرفتها فى الدنيا كان لها مدخلان عدا هذا النفق، فلم يكن له مخرج آخر على الناحية الأخرى تحت قضبان القطارات. كانت وظيفة النفق التى شيد لها هى خدمة أرصفة القطارات فقط، بدرج إثر درج على يمين الداخل إلى النفق يصعد عليه المسافرون، إلى رصيف إثر رصيف، وينزل منه المسافرون، من رصيف إلى رصيف.

كان نفقًا للمسافرين فقط، لا يجد معه المارة من أهل مدينة الزقازيق فرصة للعبور تحت القطارات من جهة إلى جهة أخرى، ومن أحياء بجهة إلى أحياء أخرى تقابلها. وبدا لى أن المدينة مقسومة بقضبان القطارات ونفقها إلى نصفين. نصف تجارى مدنى ميسور الحال هو قلب المدينة ينتهى بفوهة



النفق على ميدانه، ونصف شبه معدم وراء سور ممتد مع القضبان يمنة ويسرة، يقطنه العمال والطلاب وأصحاب البيوت الصغيرة المؤجرة، فى غرف مقبضة وشقق بائسة لهؤلاء وهؤلاء.

وكان على من يريد العبور من جهة للمحطة إلى جهة أخرى أن يتبع أحد سبيلين. سبيل طويل مرهق ومنهك بجانب طريق السور ليعبر منه فوق قضبان القطارات إلى الجهة الأخرى على الكوبرى العلوى بين حى "أبو الريش" ومدرسة الصنائع والمعهد الدينى، وسبيل آخر طويل ومرهق ومنهك بجانب طريق السور أيضًا ليعبر مزلقانًا للقطارات بين حى الحسينية والمعهد الدينى من جهة، والمقابر العطنة بترابها الذى يحمل روائح الموت وحى كفر النحال من جهة أخرى.

ولذلك كان لا بد مما ليس منه بد أمام أهل المدينة على الجانبين. شقوا فتحات بالأسوار الأسمنتية من الجانبين للدخول منها والخروج، واجتياز قضبان القطارت كلها قفزًا بينها وفوقها فى النهار، وتلمسًا لمسارات القضبان المتقاطعة فى الليل، ومراقبة حركة القطارات المقبلة ذاهبة وعائدة، طلبًا للنجاة، والعبور بسلام. وكثيراً ما كان ينكفئ عابر قضبان ما على وجهه متعثرًا بقضيب أو بزلطة أو بحجر، أو يفاجأ بدهم وابور له كان فى طريقه إلى عنابر مخازن الفحم والصيانة. وأحيانًا كانت القضبان المتقاطعة تطبق على رجل عابر تعيس الحظ لتتركه ذا عاهة، أو تريحه منها بدهم قطار مقبل له.

ومع ذلك لم تتوقف مغامرات المارة فى العبور اختصاراً للطريق، ولم يقدم أحد من حكومة المدينة ولا حكومة بر مصر على فتح مدخل أو مخرج آخر لنفق ميدان المحطة، فوجود مدخل واحد ووحيد للنفق ييسر مهمة الأمن مع النصابين والنشالين وحماية عساكر الإنجليز وقطاراتهم من الوطنيين

المغامرين. ولا أظننى توقفت يومًا من أيام الهروب من حصص الدراسة بالمعهد، عن اجتياز شق السور المقابل للمعهد، واجتياز قضبانه، وأرصفته، ونزول درجها، لألحق بحفلة صباحية من حفلات السينما، أو بجلسة فى الضحى على مقهى البوسفور، أو الذهاب إلى مكتبة بحر مويس على الكورنيش، أو سبق مظاهرة خرجت من المعهد إلى ميدان المحطة، قبل أن تصل من مزلقان الحسينية إلى شارع عباس.

وفى مدخل النفق كان يجلس أو يقف على الجانبين باعة سريحة، يبيعون كل ما خف ورخص ولمع من أشياء وسلع وساعات مسروقة، وأمتار من أقمشة المظلات المسروقة أو المباعة من معسكرات الإنجليز بالتل الكبير والقصاصين، أو حتى من عساكر الإنجليز فى شبابيك القطارات، نظير قطع من الصابون، أو تمثال فرعونى مغشوش، أو تربيعة مصرية مزينة بالخرز والترتر. وعبثًا كان عساكر البوليس يطاردونهم، فدائمًا يعودون. يسقط منهم من يسقط. وينجح فى الهرب منهم من يهرب، ليعود من جديد.

★★★

وراء مبنى المحطة كانت أرض فضاء، بها سرية من عساكر الجيش المصرى، لحماية قطارات الإنجليز عند الضرورة، وحماية المحطة نفسها عند الضرورة أيضًا، كان عساكر السرية بخيامهم ليلا، ويتناوبون الحراسة فى جوانب معسكرهم الصغير طوال الليل والنهار، ويمارسون تدريباتهم اليومية كل ضحى، ويتناولون طعامهم البسيط من العدس والفول واللحم أحيانًا، والتمر المنقوع فى الشاى. كان يحلو لى مراقبتهم عن بعد من وراء رصيف مهجور لمبنى المحطة. لم أر أحدهم قط يتجول على الأرصفة لحراسة قطارات الإنجليز الذاهبة والعائدة.

ذات نهار رأيتها على المحطة. كانت تبيع وتشترى لعسكرى إنجليزى بشباك قطار مفتوح. دار الحوار بينهما بالإشارة. فهمت من إشارات الحوار



ما فهمته هى. فالعسكرى يساومها على ما يعطيه لها بمضاجعتها تحت القطار بين القضبان. أبدت له قبولها بهزة من رأسها، وإشارة من يدها لكى ينزل. أخذت منه خيرًا من خيرات المعسكرات مقدمًا. وحين نزل من القطار حاملا بندقيته اللى أنفيلد كانت الفتاة قد اختفت. تلفت العسكرى حوله، وطار صوابه. لمحها وهى تختفى وراء المحطة، تبعها وتبعته بدورى. أدركت أنها مقتولة لا محالة. لاذت البنت الهاربة بسرية العساكر المصرية فى الخيام. ورأيت شاويشًا يتبعه عسكرى بشريطين، وعسكرى بشريط واحد، يخرجون من الخيمة شاهرين أسلحتهم فى وجه العسكرى الإنجليزى. رطن لهم وبرطم، وهدد وتوعد، ورطنوا بمقابله وبرطموا، وهددوا وتوعدوا، ولم يجد العسكرى الإنجليزى مفرًا سوى الانسحاب والعودة إلى قطاره.

وظهرت البنت الهاربة من الخيمة. والتف عسكر الخيام حولها، وفى عيونهم الجوع نفسه الذى كان فى عينى العسكرى الإنجليزى، ولكنه ظل جوعًا مكبوحًا. حكت البنت وأنا بالقرب أسمع، أنها هربت مع أهلها من الإسكندرية، خائفين من غارات الألمان بطائراتهم عليها، ونزلوا ضيوفًا فقراء على أقارب فقراء بمدينة الزقازيق.

على غير توقع انتبهت للشاويش يحدق فىّ ويقترب منى، ويقول:

– ازيك يا سليمان. انت هنا بتعمل إيه؟

حدقت فيه. تعرفت إليه. صحت به:

– ازيك يا محمد يا ابو إبراهيم. انت هنا بتعمل إيه؟

ضحك محمد علىّ، وقال لى:

– ما انت شايف. أنا شاويش السرية.

أخبرته أننى طالب بالمعهد الدينى، وأننى أتسلل إلى أرصفة المحطة لأرى المسافرين والقطارات وعساكر الإنجليز، وأسلى نفسى.

كان الشاويش محمد قريبًا لى من فرع آخر لشقيق أبى جدى لأبى. كان أكبر إخوته الأربعة، وكان أبوه معروفًا بين أهل القرية كلها باسم "بلهنية" لكرمه البالغ الحد فى السر لا العلانية، ولضحكه الدائم كأنه لا يحمل همًا، ولا يسنح لهمٍ أن يعرف طريقًا إلى قلبه.

أشار الشاويش محمد للأومباشى، فذهب وعاد لنا بكوبى شاى. وطاب لى المجلس والعساكر من حولنا يسألوننى فى أمور الدين، وأنا أفتى فيها بما أعرف وما لا أعرف. فلدى فى البيت عمامة.

كان شهر رمضان ذلك العام يقترب، وقال لى الشاويش محمد:

– كويس اللى انت جيت. ما تشوف لنا من زمايلك واحد من الطلبة صيِّيت، يقرا لنا ربع قرآن كل ليلة من ليالى رمضان.

دهشت لطلبه، فأنا لا أعرف صيِّتًا بين الطلبة، بل لا أكاد أعرف طالبًا لا يزال يحفظ القرآن. لكننى قلت بعد تفكير:

– حاحاول. لكن.....

فقاطعنى الشاويش محمد:

– لازم ينسى حكاية الفلوس، لكن ممكن نسحره كل ليلة ونسحرك معاه، وآخر الشهر يا شيخ سليمان، نجمع له من بعض عيديته. اللى فيها النصيب. يعنى جنيهين تلاتة.

***

فى المعهد بحثت عن صييت حتى عثرت عليه. كان أيضًا يحسن الغناء، وتقليد المغنين، والعزف على العود، ويرتجل شعر الإنشاد الدينى فى مدح الرسول، والابتهالات إلى رب العزة جل شأنه. وكان بوسعه فيما قال للشاويش محمد حين التقى به، أن يعود إلى قريته وما حولها من القرى ويكسب من ورائها جنيهات ذهبية، فى بيوت العمد والأعيان لو وافق له أبوه



ولن يخسر بغيابه شيئًا من دروس المعهد، فهو يذاكرها وحده فى شهر المذاكرة كل عام. وأكد له أنه ينتظر عامًا ما يأتى فيه شهر رمضان فى غير شهور الدراسة بالمعهد الدينى، لو عاش، ومد له فى العمر.

فى اليوم الأول من شهر رمضان ذلك العام حضر الإفطار مع عساكره ضابط السرية. كانت له خيمة خاصة بالمعسكر الصغير، ولكنه لم يكن يبيت بها أية ليلة. وفاجأ الشاويش محمد والعساكر ضابط السرية بالمقرئ الصييت الذى أنسانى الزمن اسمه، وشكل وجهه، ولم ينسنى بعد ذكره. وأحسبه صار صييتًا شهيرًا بأدائه الغنائى صعودًا وهبوطًا مع المعانى والإيقاعات القرآنية من مقرئى القرآن الكريم بالإذاعة، ومبتهلا ومنشدًا يحلو للناس سماعه، إذا لم يكن الأجل قد عدا عليه. وكافأ الضابط المقرئ الصييت من جيبه فى تلك الليلة بجنيه ذهبى، ودبر له ولى وجبتين من اللحم على الإفطار مع كل غروب. واعتاد الضابط أن يصحب معه بين ليلة وأخرى ضابطًا أو أكثر للسهر معنا فى الشهر الكريم، والسماع للإنشاد والابتهالات، فيما يكون الديدبانات ساهرين لحراسة المحطة على حدود المعسكر الصغير.

وحين سرى الصوت للركاب المسافرين فى قطارات الليل أمر الضابط بحواجز فوضعت حول المعسكر، وكان الناس يقفون عندها حينًا، وينصرفون حينًا، ويتجددون حينًا كل ليلة بلا انقطاع. واعتدت بين ليلة وأخرى أن أبيت بالمعسكر مع قريبى "محمد أبو إبراهيم فى خيمته.

***

بين التلاوة والتلاوة كان يطيب الحديث ويحلو السمر. العساكر القادمون من النوبة وبلاد بحرى وقبلى، مدنها وقراها، يحكون. يصدقون حينًا فيما يحكون، ويفشرون حينًا فيما يقولون، ولا يمر كثير من الفشر بسلام،

فسرعان ما يرتفع الضحك على الفشار، ويضحك الفشار بلا حرج مع الضاحكين.

فشار واحد، أو صادق واحد، هو وحده الذى لم نستطع له تصديقًا، ولم نقدر معه على ضحك. هو الشاويش عبد السميع. كان من الصعيد الجوانى. وكان غائبًا عن المعسكر فى إجازة، وكان أقدم من قريبى الشاويش رتبة. كان لوحى القوام، هضيم الوجه، غائر العينين والخدين.

إثر سهرة ليلة راح الشاويش عبد السميع يحدثنا، ونحن مشدوهون لأدائه بما يحكيه، ولا نستطيع له تكذيبًا ولا تصديقًا، كأنه يحكى حكايا من حكايا ألف ليلة وليلة، وألاعيب من ألاعيب البطال والشاطر شيحة. حكى عبد السميع فى تلك الليلة حكاية مطولة عن عربة بضاعة انزلقت عجلاتها عن قضبان قطار الصعيد، وتعطل القطار عن متابعة سيره إلى أسوان. وكانت العربة فى منتصف القطار. ومع توقف القطار، توقفت حركة كل القطارات القادمة من أسوان، والقادمة من القاهرة. وقدم صعيدى مجهول وطلب فصل العربة عن العربة التى أمامها، والعربة التى وراءها. وحين تم ذلك تقدم الصعيدى المجهول، وانحنى بجسده على مؤخرة العربة، وصاح مستعينًا بالله: يا قوى. ورفع عربة البضاعة بكفيه وساعديه، وأعاد وضع عجلاتها على القضبان، وسارع رجال السكة الحديد بربط صواميلها المفكوكة جيداً، وواصل القطار مسيرته إلى أسوان. وحين بحث المسئولون عن ذلك الصعيدى لمكافأته، لم يعثروا له على أثر.

وعلق عبد السميع قائلا لنا:

- كان واحداً من أهل الله الذين يجوبون البلاد.

وحين علم ضابط المعسكر الصغير بتلك الحكاية ضحك من قلبه؛ لأننا صدقناه، فلو حدثت تلك الحكاية لتصدرت أخبارها كل الصحف.



وحكى لنا عبد السميع فى تلك الليلة عن صديق له من أصدقاء عمره. كان طالبًا فى الكلية الحربية، وعاد فى إجازة إلى بلده وسار وحيداً من محطة القطار فى ظلام الليل، ولكنه لم يصل إلى بيته أبداً. وفى عز النهار عثر الناس على ما بقى منه. حذاؤه وحزامه الميريان، وأشلاء من ثيابه العسكرية، وعظامه، وبطاقة كليته ملطخة بالدم. وتحدث الناس عن أن الضبع المتربص بين الأشجار الصحراوية هاجمه على غفلة وافترسه.

وحزن لأجله صديق عمره. وقرر الصديق قتل ذلك الضبع، وراح يستشير عواجيز القرية، ونفذ ما قالوه. استلقى فى نفس المكان الذى افترس الضبع به طالب الكلية الحربية، حتى أقبل الضبع، وكتم الصديق أنفاسه متظاهراً بالموت، فمن عادة الضباع أنها لا تاكل الموتى. وحين هم الضبع بالانصراف، وثب الصديق فوق الضبع، وأحاط جسده بفخذيه ورقبته بساعده، وجز بكف ساعده الآخر رقبة الضبع، وبات ليلته يسلخ جلده حتى الصباح، وذهب إلى والد الضابط بجلد الضبع، ومعه قلب الضبع وكبده ليأكلهما الأب الكليم، ويشفى غليله.

وصدقنا ما رواه عبد السميع، وأيقنا أنه كان هو ذلك الصديق. ولم يسأله أحدنا قط عن وجود أو عدم وجود ضباع فى كل بر مصر.

★★★

دهشت صباح يوم من وجود مستشفى فخيم فى قلب المدينة، تابع لوزارة الصحة، تقف أمامه نساء منتظرات دورهن فى الولوج من الباب الموصود. وعلى الباب، بل فوق الباب، كانت لافتة كبيرة بعرض الباب ذات أرضية سوداء مكتوب عليها بخط الثلث الأبيض العريض، بكل زهو: مستشفى الأمراض السرية. وكانت النسوة بين جريئات سافرات الوجوه والسيقان، فارعات العيون، مزججات الحواجب والجفون، ومستترات بالملايات السوداء،

ومقنعات بالبراقع، ومحجبات طلبًا للستر، وتخفيًا من المعارف. وظللت أراقب المشهد بفضول من مقهى بشارع عباس لا أذكر اليوم له اسمًا.

عصر يوم آخر، تغير جمهور المشهد من النساء إلى الرجال، على رءوسهم طواق، أو طرابيش. كنت فى تلك اللحظة أقف على بعد فى زيى المعهدى، وراقنى وأسعدنى أننى لم أر عمامة على رأس أحد الواقفين. جلست على المقهى، ورحت أرقب الموقف. قرب الغروب قلت لجارى بمقهى المراقبة بعبارة مزهوة:

– شايف. ولا عمة واحدة.

فضحك منى ساخرًا، وقال لى وهو يشير إلى أكثر من واحد:

– بص. شوف. كل واحد حاطط لثام أبيض على بوزه وخدوده من زمايلك يا مولانا.

ابتعدت عن المشهد والمقهى بسرعة، وأنا أقول لنفسى ما قرأته فى كتاب من كتب أبى الصفراء: "إذا بليتم فاستتروا".

★★★

سافرت إلى أمى يوم الخميس. كانت تذكرة قطار الدلتا بين الزقازيق والسنبلاوين بقرشين ونصف، وعزمت على أخذ أجرة السفر ذهابًا وعودة من أمى خمسة قروش بالتمام والكمال. وقد ذهلت حين رأتنى، وصاحت:

– بسم الله الرحمن الرحيم. فين عمتك؟

فضحكت زوجة جدى، وقالت:

– لسه بدرى يا أم سليمان. سيبى الواد يعيش زى الناس.

ومع ذلك قال أخى الأصغر وهو يضحك:

– شيل العمة شيل....

فقلت له بغيظ وكأننى بليت ببلية:



- ما تستعجلش. بكره تحصلنى.

عندئذ سكت. وبدا عليه الخوف. كان فى الصف الثالث بالمدرسة التوفيقية الابتدائية. ولم تتردد زوجة جدى فى أن تنهرنى قائلة لى:

– تف من بقك يا ابو داوود. فال الله ولا فالك.

★★★

كنا فى شهر مارس، وكانت امتحاناتنا على ما أذكر من تلك السنة، فى شهر مايو. وكان من عادة الطلبة، فى كل عام، أن يمنحوا أنفسهم قبل الامتحان شهرًا للمذاكرة، بل إن بعضهم كان يعطى نفسه شهرًا ونصف شهر، أو شهرين، يعيشها مع الكتب بين أهله فى بلده. وبين الطلاب كان طلاب أباؤهم مياسير، يعطونهم شهريًا من ثلاثة إلى خمسة جنيهات. كانوا أبناء عمد وأعيان من القرى، أو تجار من المدن الصغيرة. وكانوا جميعًا عايقين وفلاتية، ترى شعورهم مفلوقة من الجانب الأيسر أو الأيمن.

لقينى أحدهم بمقهى البوسفور، وقال لى:

– بيقولوا إن خطك حلو وجميل.

قلت له:

– يعنى.

فقدم لى كشكولين مكتوبين وثلاثة كشاكيل فارغة الأسطر من الكتابة، وهو يقول لى:

– انسخ لى الكشكولين دول فى التلاتة دول، وحاديلك عن كل صفحة كتبتها قرش صاغ.

قلت له فى الحال:

موافق. كل تلات أيام تاخد كشكول.

وتتالت عليّ الكشاكيل من غيره وغيره، حتى صرت لا أجد تقريبًا وقتًا لنفسي.

★★★

خلت فصول المعهد من الطلاب بقدرة قادر مع آخر شهر مارس، حتى عنابر السكن الداخلي هجرها معظم من كانوا بها، ومع أول إبريل كان عليَّ أن أعود إلى أهلي حاملا معي ثيابي، وكتبي التي لم يفتح منها بعد كتاب واحد، ووجدت لسريري السفري بعجلاته ومرتبته ووسادته ومخدته وملاءته مكانًا أمينًا عند عم مرسي، مع أدوات النظافة بمخزنها بالمعهد.

حين فتحت لي زوجة جدي الباب. وجدت أبي وجدي جالسين في الصالة. قبلت يد جدي ويد أبي. وراح قلبي يرتجف. فقد كان أبي ينظر إليّ بغيظ لا أعرف له سببًا.

صحبني أبي وجدي إلى غرفة الصالون. وقال لي أبي:

– خير. إنت سيبت المعهد وجيت ليه.

أخبرته أن الطلاب يعطون أنفسهم إجازة للمذاكرة قبل الامتحان بشهر ونصف. عجب أبي، وقال غير مصدق:

– لم يكن ذلك في زماننا.

وفوجئت بأبي يتنهد، ويقول:

– لكن إيه الفائدة وأنت محروم من الامتحان السنة دي.

بهت لما قاله، وقلت:

– إزاي؟ وليه؟

فقال لي أبي:

– علشان حضرتك صعت في الزقازيق.

لزمت الصمت. وتساءلت بيني وبين نفسي. ما دخل الصياعة بالحرمان من الامتحان؟



وقدم لي جدي مظروفًا مفتوحًا ومطويًا، وهو يقول لي:

– اقراه يا فالح.

سحبت الورقة من المظروف. في أعلاها بخط جميل راق لي: الجامع الأزهر الشريف. وتحته في السطر التالي: معهد الزقازيق الديني. ورحت أقرأ أنني حرمت من دخول الامتحان ذلك العام، لأنني لم أحضر سوى ستين حصة وعشرين يومًا طوال العام الدراسي. بهت ووجمت. وقال لي جدي:

– ليه يا سليمان. وانت مش خباص ولا غبي؟

ولم أجد جوابًا له ولا لأبي. ونظرت تجاه باب الصالون لأهرب من هذا الموقف إلى حين. رأيت أمي واقفة هي وزوجة جدي على الباب تنظران إليّ. كان وجه أمي الأسمر مزرودًا مثل الكبدة من الغم. قالت لي ما لم أتوقعه، فهي شديدة الحنان دائمًا، باسمة الوجه دائمًا، لا تهزها الأحداث العابرة. قالت لي:

– ليه يا ابن بطني. شقانا ترميه في شوارع الزقازيق. وترجع لنا إيد ورا وإيد قدام.

لم أرد. وسمعت زوجة جدي تقول لها:

– وحدي الله يا ام سليمان. كل مشكلة لها حل؟ يعيد السنة وإن شاء الله السنة الجاية...

ولم تدعها أمي تكمل. صاحت بها، متجاوزة حدودها:

– أنت خاسس عليكي إيه؟ ما هو مش ابنك.

في الحال، انسحبت زوجة جدي مصدومة مما قالته أمي. وصاح بها أبي:

– اخص. امشي اتأسفي لها.

وانسحبت أمى من الصالة. وساد الصمت فى الصالون. فقد سمعنا نشيج زوجة جدى فى الصالة الداخلية. وسمعنا صوت أمى يقول لها:

– سامحينى يا زكية. أنا دمى فاير. دا انتى اللى ربيتى ولادى.

وأخذ أبى منى الورقة وطواها، ودسها فى جيب جلبابه العلوى، وقال لجدى:

– حاحاول ادخله الامتحان. حاشوف زميلى أيام الطلب الشيخ الجداوى يمكن يعرف يدخله الامتحان السنه دى. يمكن. ادعى لى يا ابا.

وسكت لحظة ثم قال لجدى:

– حاسافر بكره الزقازيق. وربنا يعمل اللى فيه الخير.

ونهض أبى، ووقف لحظة، وهو ينظر إلىّ بجانب عينه نظرته الساخطة القاتلة، حين يكظم غيظه. قال لى:

– حسابك معايا بعدين.

وغادر الغرفة ليريح جنبه على سريره فى غرفته. كنت مطرقًا لا أستطيع أن أرفع رأسى. لكن عينى كانت تدور فى محجرها تراقب ما يجرى حولى. طال الصمت بينى وبين جدى. ولم أجرؤ على النهوض لأرى إخوتى، أو أجلس مع أمى وزوجة جدى، أو حتى لأذهب إلى الحمام.

قطع جدى الصمت. وقدم لى كعادته معى حين نكون وحدنا، علبة دخانه الفرط وورق البافرة، وقال:

– لف لى سيجارة يا ابو داود لف.

لففتها له. وقدمتها له قائلا:

– سامحنى يا جدى. ما فيش حد بيتعلم بالساهل.

نبر جدى من أنفه ساخرًا وعيناه علىّ. ثم قال لى:

– أكيد نسيت كمان القراية والكتابة وحفظ القرآن. وأكيد ما فتحتش كتاب من كتبك.



صدمنى ما يقوله فلم أنطق بحرف. ووضع جدى كفه على رأسى، وقال لى متضاحكا:

– ما عنتش تنفع فلاح يا ابو داود. ومن بكره حوديك تتعلم صنعة. الظاهر إن ما لكش فى العلم نصيب.

ونهض جدى، وغادر الغرفة وبقيت وحيدًا. ودخلت زوجة جدى علىّ. وقدمت لى مسبحة، وهى تقول لى:

– دى هدية جدك ليك.

وقدمت لى سجادة صلاة عليها محراب به الكعبة، وقالت لى:

– ودى سبحة هدية أبوك ليك، من عند النبى.

لم أمد يدى إليها. وحاولت البكاء لينقذنى، لكن عينًا من عينى لم تذرف دمعة واحدة. وضعت زوجة جدى الهديتين جانبًا، وقالت لى:

– فاتك ما تغديتش. تعال معايا أحط لك الغدا.

لم تنهض. ولم أرد. وأطل أخى أبو سمرة من باب الصالون، وقال لى:

– ما تاخدنى معاك. نلعب ونهيص. أكيد اتعلمت طاولة وشطرنج ودومينو.

نهرته زوجة جدى وطردته من الغرفة. فاختفى من فتحة الباب. ومدت يدها لتأخذنى فى حضنها، لكننى أبعدتها. وغادرت الغرفة قائلا لها:

– حامشى شويه لوحدى وأرجع المغرب.

فزعت وهبت تجرى ورائى:

– إوعى تعمل فى نفسك حاجة يا ابنى.

كان جدى فى الصالة. سمعت جدى يقول لها وأنا أفتح باب البيت:

– سيبيه يتعلم يا زكية. أنا حاربيه.

★★★

بعد صلاة العشاء عدت إلى البيت. لم يكن لى مكان آخر أذهب إليه. وضعت لى جدتى طعامى فأكلت، وأعدت لى طشت الحمام فاستحممت. وصحبتنى إلى غرفتها، وكان جدى نائمًا أو متناومًا على سريره. وجلست مع زوجة جدى على الكنبة التى سأنام عليها. وقالت لى زوجة جدى لتسلينى:

– إيه أحسن حاجة شفتها فى الزقازيق.

أجبتها على الفور:

– المكتبة. مكتبة بحر مويس. قريت فيها قراية. ياما.

لم تفهم زوجة جدى. قالت ساخرة:

– ما قريتش معاها كتب المعهد؟

عندئذ نترت يدها. وقلت لها:

– سيبينى. عايز أنام.

وتمددت على الكنبة. وفكرت وأنا أدخل فى النوم أننى لم أر إخوتى، وأن أحداً منهم لم يأت إلىّ. أبو سمرة وسها يذاكران دروس الغد. وسوسو وسونة جالستان بلا صوت، فلم يذهبا إلى المدرسة بعد. ونهضت زوجة جدى، وأطفأت نور الغرفة. وساد الظلام. ورحت فى غيبوبة الموت الأصغر.

★★★

فى الصباح كان أبى قد سافر مبكراً إلى الزقازيق فى قطار السكة الحديد لسرعته عن قطار الدلتا. وفوجئت بما يفعله جدى معى. كان يضحك فى وجهى ويضاحكنى. رابنى ما يفعله معى، وكانت زوجة جدى تنظر إليه فى دهشة لا تفهم سر انقلابه فى معاملتى. وأمى تروح وتغدو من أمامنا فى الصالة ناظرة إلى جدى نظرة لوم لمرحه معى. وجدى يتجاهل الاثنتين.

حين اقترب الظهر وضع جدى يده على رأسى، وراح يقلب شعرى، ويقول لى:



– شعرك طول يا ابو داوود. تعال معايا نحلق سوا. ونرجع سوا على الغدا.

انتهى الحلاق من حلق شعرى. حلقه بنمرة تلاتة، وحين رفعت صوتى محتجا قائلا:

– تصليح بس..

كانت مكنة الحلاق اليدوية قد جزت بالفعل مستطيلا طويلا من منتصف رأسى. صحت به:

– مش حاحلق عندك تانى. دى حلاقة المساجين.

أغرق جدى فى الضحك، وقال لى:

– الحلاقة كده بتثبت العقل يا ابو داود. وتخليك ذكى.

لم أرد عليه، وظللت أنفخ صامتًا فى غيظ.

حين انتهيت من الحلاقة، أخرج جدى من جيبه طاقيتى الدبلان البيضاء المزدوجة الداير، وأعطاها لى وهو يجلس فى مكانى أمام الحلاق. وقال لى:

– استنانى حنروح سوا يا ابو داود.

جلست على كرسى فى مواجهة مرآة كبيرة، أرقب قفاه، ووجهه أراه فى المرآة، ويد الحلاق المدربة، وحركتها الرتيبة بمكنة الحلاقة، وسنه للموسى على سير من الجلد فى طرف منه أبزيم من الحديد الأبيض اللامع. وطرقاته الموقعة عليه بالموسى.

حين انتهى جدى من حلاقته، قال للحلاق:

– زى ما قلت لك.

ولم أفهم شيئًا. كانا يتهامسان أثناء حلاقته بما لم أفهمه، وما لم أهتم به. وغادر جدى دكان الحلاق، وأنا أتبعه، لكن الحلاق وقف بينى وبين باب الخروج، وقال لى:

– حتفضل معايا هنا تتعلم الصنعة.

شتمته، وكان جدى يمضى فى الميدان مبتعداً دون أن ينظر وراءه.

كان سير المسن الجلدى لا يزال فى يد الحلاق، فهوى به عليّ مرة بعد مرة. دفعته بلكمة فى وجهه، فطار صوابه. وراح ينهال عليّ ضرباً بالسير من جهة الأبزيم. آلمنى الضرب، فانهرت جالساً على الكرسى، وجلس هو على كرسى آخر. وأدار ظهره لباب المحل، حتى لا أفكر فى الخروج.

توقف بكائى. ومن غيظى لم أجفف دموعى. أيقنت فى تلك اللحظة أننى سأكون حلاقاً، بل صبى حلاق. أفزعنى المصير. انتظرت حتى أغفى الحلاق فى جلسته، أو لعله كان مطرقاً يفكر.

نهضت من مكانى فجأة. وخطفت المكنسة ذات العصا الخشبية من ركنها، ورحت أدمر بها كل شيء تطوله يدى. المرآة. وأدوات الحلاقة. والشماعة العمود. وبدا الحلاق خائفاً للحظة من هياجى وسرعتى. هجم عليّ بسيره لكن عصاى ضربته على أذنه ففر من الدكان، وتبعته وأنا أجرى، والعصا لا تزال فى يدى، عائداً إلى بيتى.

***

حين رأتنى زوجة جدى والعصا فى يدى صرخت. ونادت:

– الحق يا حاج على.

جاء جدى ونظر إليّ مبهوتاً، وقال لى:

– انت عملت إيه؟

لم أرد عليه، ورميت بعصا المكنسة، وجلست فى الصالة، ورحت أبكى بحرقة، فلم يزد جدى على أن قال لى:

– حنرجعك البلد تشتغل فلاح أحسن لك.

صحت به:



– حاشتغل نجار. أختار الشغلة اللى تعجبنى. مش عايز أبقى شيخ علشان خاطرك.

جاءت أمى من حوش المطبخ لتعرف ما الذى يجرى. قفزت من مكانى مغادراً البيت. وقفت فى الحارة حائراً أجفف دموعى. ونظرت إلى باب البيت، فرأيت أمى واقفة تشير إليّ كى أعود.

رأيت زلابية وصفية ابنتى جارنا واقفتين فى شرفة البيت المقابل. ضحكت زلابية الخفيفة الظل، وقالت لى:

– مين اللى ضربك يا سُلم. انت وديت شعرك فين؟

كانت قد نهدت وصارت أنثى مكورة الثديين، وبدت شفتها السفلى، وكأن عليها قطرات ندى. لم أرد عليها، واتجهت من الحارة إلى الشارع، واستدرت على الخرابة.

حين رآنى روشة فى شادر الخشب، هب واقفاً، وعانقنى، وجلسنا، وفى الحال قال لى:

– أنا عندى شوية روايات جيب جديدة.. تهبل.

ظللت صامتاً. وآثر روشة الصمت مراعياً لحالتى. وحين هدأت سحب من جانبه روايات جيب. وقدمها لى. وفوجئت بنفسى أقول له بهدوء:

– بعدين. بعد الامتحانات يا سعد.

عجبت من ردى عليه، وكأننى فعلا سأدخل الامتحان هذا العام، وكأننى فعلا سأكون شيخاً. ورحت أفكر فيما فعله جدى معى. شرخنى ما صنعه بى، هو وحده من بين كل الناس من أمنت له، كما لم آمن لأبى ولا لأمى ولا لأى أحد. مع الغروب أغلق روشة شادر الخشب. وعدت إلى البيت لأعرف ما فعله أبى.

***

كان الصمت يسود البيت لما فعله جدى بى. غضبت أمى. وغضبت زوجة جدى وقاطعتاه. وجرؤت أمى فقالت لجدى:

– فال الله ولا فالك يا حاج على.

وضحك أخى مما فعله جدى بى عند الحلاق، لكنه لم يلبث أن قاطع جدى بدوره.

حين هدأ مَن فى البيت، جاء جدى وأنا جالس مع سيدتىْ البيت، وجلس بجانبى وابتسم، وقال لى أمامهما:

– كل اللى فكرت فيه يا ابو داود إنك تاخد درس. تشوف حتكون إيه لو سبيت العلم.

لم أرد عليه، ولم يرد عليه أحد آخر. وساد صمت قطعته زوجة جدى بقولها، وهى تنظر لجدى، وكأنها تحدث نفسها:

– عينى عليك يا عبد المعطى، عليك تدفع خسارة محل الحلاق.

نظر إليها جدى بغضب، وغادر الصالة، وذهب إلى سريره، وأضرب فى تلك الليلة عن تناول عشائه.

***

اقترب منتصف الليل، ولم يعد أبى من الزقازيق، وكان واضحًا أنه لم يعد ثمة قطار سيأتى الليلة إلى المحطة، وراحت أمى تتلفت يمنة ويسرة، وتنهض وتروح وتجيء، وتجلس، وتنظر من الشباك إلى الشارع المظلم، وزوجة جدى تقول لها مرة:

– الغايب حجته معاه.

وتقول لها مرة:

– ما دام اتأخر يبقي خير إن شاء الله.

وتقول لها مرة:



– هوه فيه حاجة بتنقضى فى يوم واحد يا أم سليمان.

كانت زوجة جدى برغم ما تقوله أكثر قلقًا من أمى. تقول ما تقوله لتصبر نفسها وتصبر أمى معها.

كنت أكثر مَن فى البيت قلقًا، فمع قلقى وتراوح نوبات من الأمل واليأس علىّ، بين دخولى الامتحان وحرمانى منه، كان الشعور بالذنب يغمرنى، ويرعشنى خوفًا على أبى أكثر من خوفى على نفسى، حين يصبح حرمانى من الامتحان أمرًا واقعًا. وكان جدى يخرج من غرفته بين فترة وأخرى، بل بين لحظة وأخرى، لينظر من النافذة دون أن يسأل أحدًا:

هل جاء أبى؟ ولم يتعلل فى كل مرة بأى عذر يخفى به قلقه. كان ابنه الوحيد على ثلاث بنات تزوجن، وعائلنا الأوحد، ولا عائل لنا بعده.

كان جدى قد توقف عن الفلاحة، وأجّر الأرض، وجاء مع زوجة جدى نزولا على إلحاح أبى، ليعيش معنا فى المدينة، ليطمئن عليه أبى، وليريحه من الأرض وشقاء الأرض، ولم يكن جدى سعيدًا بهجره القرية، وأهله وأهلها، وأراضيها وسمائها، وذهابه إلى الأرض، وتفقده لغرس يديه، وعودته سعيدًا يطلب العشاء، وجلوسه يمنى نفسه بأيام الحصاد، وبقائه وحيدًا وغريبًا فى مدينة غريبة لا شأن له بها، ولا مكان له فيها، ولا صديق، إلى أن اصطنع له صديقًا.

كان الصديق كبير السن مثله، كاتب عرضحالات للناس، أمام المركز، وبالقرب من المحكمة، وحديقة المركز، يجلس بجانبه، ويجلسنى معه، لألف له سجائره اللف، وسجائر كاتب العرضحالات، وأقدم لهما أقداح الشاى، ويروح يرقب شكاوى الناس، ويسمعها، ويحاورهم، ويعجب حينًا لعبط المظاليم، وحينًا لعبط الظالمين، وحينًا لكاتب العرضحالات، ينطق وهو يكتب: لا سيما، ويا حبذا، وحيث إن، ويضحك ساخرًا قائلا للشاكين:

– هيه دى اللى فيها البركة إن شاء الله.

★★★

فى الصباح، أيقظتنى أمى. كان فى يدها منبه البيت، وكانت أرقامه هى الوحيدة التى تعرفها من القراءة والكتابة، على حين كانت أمها تعرف القراءة والكتابة وتتحدث بالتركية أيضاً. قالت لى:

– الساعة عشرة يا ابنى، وأبوك لسه ما جاش.

جلست فى الحال لاهتمامها بى كأكبر بنيها، ورحت أخترع لها حكاية أبرر بها غياب أبى، دون أن أكون على ثقة بأى شىء مما قلته. ومن الغريب أن كل ما قلته لها تحقق بالحرف الواحد.

مع الغروب جاء أبى. دق الباب دقة، فأرهف كل من فى البيت سمعه، كأن الزمن قد توقف، فدقة، فخفق قلبى منتظراً الدقة الثالثة. جاءت الدقة الثالثة. قفزنا كلنا من حيث كنا نحو الباب، فتلك هى دقات أبى الثلاثة المعتادة المنفصلات المتتابعات، والتقت على مزلاج الباب من الداخل يد أمى ويد زوجة جدى فى وقت واحد. وكان أول ما فعله أبى هو ذهابه إلى جدى فى غرفته، ورده الباب وراءه. وظل أبى معه برهة.

ظل جدى فى غرفته حين غادرها أبى. وأحاط الكل أبى بالأسئلة عن.. وعن.. ومع أن أبى لم يرد على أحد، لا أمى ولا زوجة جدى، ولا أخى "أبو سمرة"، فقد نزلت الراحة على قلوب الكل، لأنه عاد، ولأنه كان ينظر إلىّ فى لحظة، وللحظة خاطفة مبتسماً، ولكنه لا يلبث أن يسحب ابتسامته. وذهب من فوره إلى غرفة جدى مرة أخرى. وتبعه الكل، ولم أجرؤ على أن أتبعه، فما زلت خجلا من نفسى.

★★★

كان جدى جالساً على طرف سريره متوشحاً كعادته بكبريائه، كجد وأب ورجل، حريصاً أبداً على أن يبدو ثقيلا وحكيماً، وقدم له أبى ورقة فى يده.



قلبها جدى لحظة فى يده من أعلى ومن أسفل إلى أعلى، ومن يمنة إلى يسرة. نسى أبى أن جدى لا يعرف من القراءة إلا أن يقرأ آيات المصحف، ويعجز عما عداها، ويعجز كذلك عن الكتابة إلا عن كتابة اسمه. رفع جدى رأسه باسماً وضاحكاً. وقال لأبى وكأنه قد قرأ وعرف:

– الحمد لله.

واشرأب جدى برأسه، فلم يرنى، فغادر الجالسين وأقبل نحوى وفى يده الورقة وتبعه الكل. وحين وقع نظره علىّ قال لى:

– مبروك يا ابو داود.. شد حيلك بقى.

فانصرفت من الصالة وأنا بين الرضا والغضب. وخلوت بنفسى فى حوش البيت، وقلت لنفسى وقد غفرت لجدى: "علقة تفوت ولا حد يموت".

بعد الغداء خلا أبى بأمى، وروى لها سبب تأخره فى العودة، وما فعله كى يأتى لى بموافقة المعهد على دخولى الامتحان هذا العام. وحين انتهى، سمعت أمى تقول له:

– ده اللى قاله ليه سليمان بالضبط. الواد ابنك ده شيخ مرفوع عنه الحجاب يا حاج.

فضحك أبى وسمعته يقول لها:

– قولى ذكى.. ماشى.. لعبى ماشى.. لسه بينه وبين المشيخة بدرى.

فى تلك اللحظة، وضعت يدى على رأسى أتحسس عمامة لا وجود لها. وضحكت على نفسى. وانسللت إلى غرفة المذاكرة، وكانت غرفة إخوتى. وانحنيت تحت السرير. وسحبت حقيبتى، وأخرجت منها كتبى. رصصتها صفاً واحداً فوق واحد، وأنا لا أعرف اسماً واحداً منها، ولا فى أى مادة هو. وكانت لها رائحة غبرة لزجة قد التصقت بها من طول الهجر.

★★★

فى مدينة الزقازيق، لجأ أبى إلى زميله فى سنوات الطلب الشيخ عبد المنعم الجداوى. وجده جالسًا مع المشايخ فى غرفة شيخ السكن. انفرد به أبى وشكانى له، أنا الذى لم أره ولم يرنى إلا مرة واحدة، حين صحبنى من يدى إلى لجنة القبول بالمعهد، وأجلسنى. وقال لى ببساطة، وكأنه يضع كل شيوخ الامتحان فى حفظ القرآن فى جيبه:

– سمّع يا ابنى .. أول آل عمران.

ولم أكد أقرأ بضع آيات لا تزيد عن الخمس، حتى قال لى:

– بارك الله فيك. إنت حافظ كويس.. روح لأبوك يا ابنى. وشد حيلك فى امتحان الإملاء وامتحان الحساب.

ولم يكن الشيخ الجداوى يعرف أننى ماهر فيهما فقد درستهما ودرست الخط الجميل معهما بالمدرسة الإلزامية بقريتى ثم بالمدرسة الأولية بالسنبلاوين.

فى الحقيقة كنت قد حفظت نصف القرآن جيداً. وحفظت النصف الباقى الأخير نص نص. وفى انتظار امتحان القبول بعد شهرين. كان أبى يجلس ويجلسنى أمامه ويفتح المصحف ويتابعنى على صفحاته، وأنا أقرأ له غيبًا عن ظهر قلب ما يقرؤه هو بعينيه. خمسة عشر جزءًا كنت أسمعها له عن ظهر قلب كل يوم نصفها فى الصباح، ونصفها فى المساء فقد أعطى نفسه إجازة من المدرسة طوال شهر كامل. كل يوم بعد أن ينتهى تسميعى أعاود الحفظ لما سأسمعه له فى اليوم التالى، حتى ما لم أكن قد حفظته جيداً من القرآن الكريم. عندئذ تركنى أبى لأعاود تسميع القرآن بنفسى لنفسى، فتظاهرت بذلك، مع أننى لم أسمع القرآن لنفسى طوال ذلك الشهر مرة أخرى، حتى ظننت أننى قد نسيت القرآن كله، وبت قلقًا من لحظة الامتحان به بالمعهد الدينى.

***



نصح شيخ السكن أبى والشيخ الجداوى بالذهاب إلى دكتور المعهد للحصول على شهادة طبية منه، تبرر انقطاعاتى غير المنتظمة، أيامًا وحصصًا وأسابيع، عن حضور دروسى بالمعهد. ولم يتح لأبى وصديقه الفرصة للقاء طبيب المعهد بعيادته، إلا فى الليل، ووضعا فى يده الواجب وما ينبغى، فحرر دكتور المعهد لى شهادته بأننى كنت مصابًا بحمى راجعة، متقطعة، تذهب بدون مناسبة، وتعود بدون مناسبة، وأننى كنت تحت العلاج فى عيادته. وقضى أبى ليلته فى لوكاندة بميدان المحطة.

وفى اليوم التالى قرب الظهيرة، اعتمد شيخ السكن شهادة طبيب المعهد، وكتب فى ورقة من أصل وصورتين ما يفيد السماح لى بدخولى امتحان العام الدراسى الميلادى ١٩٤٢/ ١٩٤٣

***

فى الصباح فاجأنى أبى بدخوله علىّ. وقال لى وهو يجلس على الأرض بجانبى:

– كويس إنك افتكرت الكتب. وكويس إنها لسه معاك.

ورفع كتابًا منها وشمه، وتحسس غلافه، وفر أوراقه، وكانت به بعض أوراق متصلة ببعضها لم تطلها حد سكين. وكرر ذلك أبى مع ما يليه، وما يليه. ثم قال لى دون أن ينظر إلىّ، ولو نظر إلىّ لقتلتنى عيناه:

– ولا كتاب منها اتفتح.

ونهض واقفًا. وكاد يغادر الغرفة، لكنه توقف، فوقع قلبى فى قدمى، خوفًا مما سيقوله أو يفعله. قال لى أبى:

– النهارده سماح.. من بكره الصبح حتذاكر.. حاذاكر لك بنفسى.

وتركنى وحدى. حملت كتبى إلى غرفة الصالون. جلست على كرسى. ورحت أحاول أن أفهم: كيف سيذاكر هو لى، وأنا الذى سيذاكر لا هو.

وكيف سيذاكر لي وهو يجلس على نَفَسِي، وأتوقع منه في كل لحظة صفعة بيده، أو نقحة من خرزانته.

★★★

في الليل، جذبني صوت ضحك أبي، وهو جالس مع زوجة جدي وأمي، في غرفة جدي. كان جدي يحكي له ما فعله بي عند الحلاق، وما فعلته عند الحلاق، وبدلا من أي رد فعل آخر من أبي راح أبي يضحك. فجرَّ بضحكه معه ضحك جدي وزوجة جدي وأمي. كان أبي سعيداً لأنني سأدخل الامتحان، وسعيداً لأن جدي أعطاني تحذيراً قاسياً. قالت أمي محتجة فجأة:

– الحلاق ضرب ابنك يا حاج بسير الجلد.. ويتضحك؟

فقال لها:

– براوه.. براوة عليك يا ابا.

فقالت له أمي:

– الواد ابنك ضربه بالمقشة يا حاج وكسر له المحل.

فوجم أبي لحظة ثم ضحك، وقال:

– اتعلم يبقى راجل.

فضحك جدي، وقال:

– بيفكرني بيك يا عبد المعطي، يوم ما مسكت طه فياض من رقبته وفقعته راس.. فضل نايم فيها تلات تيام. طالع لك.

فعلقت زوجة جدي لجدي:

– هه.. وفلوس المحل اللي اتكسر.. مين حيدفعها يا حاج علي. دي تلاقيها إيجار فدان.

صمت جدي. وصمت أبي، وأدركت في تلك اللحظة، أن أبي سيدفعها حتى لو اقترضها، وأن أبي سيسترد مني ما دفعه لسبب ولغير سبب، علقة



وراء علقة. وانسحبت من باب الغرفة في الحال، لأبحث عن خرزانة أبي، وأخفيتها من غرف البيت كله. دسستها في قلب الفرن بحوش البيت، مع ركن الحطب به، في قلب الرماد.

وبت ساعات من ليلتي ساهراً بغرفة الصالون، أقلب في كتب علومي، وأفكر بأيها أبدأ، وكلما أمسكت بكتاب وقلبته، شعرت بالفزع مما به، واستثقلت ظله، وحدثت نفسي بأنه سيسد نفسي عن المذاكرة، أو وضعته جانباً لخفة ظله. فالكتب الثقيلة الظل هي التي ينبغي أن أركز عليها أولا. وأعود أحدث نفسي بالبدء بكتاب خفيف الظل لفتح النفس، ورحت في نوم كابوسي كالتيه، وكتاب منها في يدي، وامتدت يد أحد بالبيت، وأطفأت نور المصباح المدلى من حبل بسقف بالغرفة، وردت عليّ الباب.

★★★

صحوت مبكراً، خرجت لغسل وجهي ورأسي طلباً للإفاقة واليقظة. وحين عدت إلى غرفتي وجدت أبي جالساً بها، وفي يده كتاب الأجرومية في النحو. قال لي دون أن ينظر إليّ:

– اجلس. جلست.

قال لي:

– سنبدأ بكتاب النحو.

قلت له:

– الفقه أحسن. الفقه صعب.

قال لي:

– بدون نحو ما فيش فقه. بدون لغة. ما فيش علم. أنا أدرى منك.

وفتح لي صفحة على أول درس عن الكلام المفيد والكلام غير المفيد بكتاب الأجرومية. كان الكتاب مكوناً من متن وتحته خط في كل صفحة بعرض الكتاب. وتحت الخط شرح لما ورد بالمتن. وقال لي أبي:

- اقرا. عايز اعرف قرايتك.

قرأت بعجلة وسرعة، ثم بهدوء وتؤدة. فقال لى:

- قرايتك كويسة. غلط فى النحو كتير. ماشى. مش مشكلة.

ثم قال لى:

- أنا حاروح المدرسة. وارجع العصر. المغرب حاسمع لك عشر صفحات تكون حفظتها صم، وفهمتها كويس.

وأخرج لى خرزانة من تحت كاكولته، ووضعها بجانبى، وقال لى:

- الخرزانة دى تفضل هنا. ما تنشالش من هنا زى الخرزانة التانية. عندى غيرها وغيرها. فاهم.

ونهض مغادراً البيت. وجاء جدى وجلس بجانبى، وقال لى:

- أكبر منك بيوم يعرف عنك بسنة.

فقلت له بغيظ:

- أنا اعرف أكتر منه بألف سنة.

قال لى جدي:

- ازاي؟ مش فاهم تقصد إيه.

قلت له محتجاً:

- كله حفظ حفظ. هوه قرآن. فيه فهم. العلم فهم. بقى معقول يا جدى احفظ كل الكتب دى. عشر كتب فى شهر ونص قبل الامتحان.

فقال لى متوجساً شراً:

- لو بدأت من أول السنة. كانت اتحفظت كلها وانت السبب.

بدا لى يائساً وغير فاهم. ونهض وتركنى. فى طريقه إلى الباب، ودخلت زوجة جدى حاملة الفطور لى وله على صينية، فقال لها جدى:

- مش عايز أكل. سد نفسى. نفسه هوه مفتوحة. ادى له ياكل.



وخرج، ووضعت زوجة جدى الصينية بجانبى، وقالت لى:

كل يا ابو داود علشان تعرف تذاكر.

وهى تخرج. قلت لها ساخراً بوقاحة ما لم تفهمه:

- قصدك علشان اعرف أحفظ.

★★★

عاد أبى مع العصر من مدرسته. كنت لا أزال بالغرفة. وعاد بعده أخى وأختى. ولم يفتح عليّ أحد منهم الباب. كنت كالمنبوذ الذى تقررت مقاطعته. دخلوا وتغدوا وقيلوا، وتغديت وحدى غداء خفيفًا على عجل، حتى لا يغلبنى النوم. ولم أجرؤ على الخروج من البيت لتمشية رجليّ. اكتفيت بالمشى فى الغرفة.

حين صحا أبى من النوم، توضأ وصلى المغرب بالبيت. ودخل عليّ غرفة الصالون. وجدنى وكراسة فى يدى، أروح وأجيء وأتمتم أحيانًا، وأنظر فى الكراسة أحيانًا. ونظر أبى جانبًا فرأى الخرزانة لا تزال فى مكانها كما تركها. جلس أبى، وقال لى:

- هات الأجرومية.

أعطيته الكراسة، فطوح بها إلى مقعد بالصالون دون أن ينظر فيها، وعاد يقول لى:

- هات الأجرومية.

أعطيته الأجرومية. واستعددت لتلقى علقة على رجلى أو كفى أو ما شاء أبى من جسدى، ولن ينجدنى أحد، فالكل غاضب عليّ فى هذا البيت. أخذها منى، وقال لى وهو يشير إليّ لأجلس أمامه تحت قدميه على السجادة:

- اجلس وسمّعْ.

جلست أمامه على السجادة. فقال لى قبل أن أقول له حرفًا:

– سمع من الأول. وأى غلطة حتاخد عليها خرزانة.

لزمت الصمت مبهوتًا أمام إصراره على التسميع. قال لى مكرراً:

– سمّع.

فقلت له:

– لم أحفظ منها حرفًا. قرأت ثلث الأجرومية فى نهارى، وفهمت ما يقوله المؤلف. فاسألنى ما شئت فى هذا الثلث.

لم يرق لأبى ردى، وبدوت له مغروراً. فقال لى:

– افتح إيديك الاتنين.

فتحت كفى وأنا أقول له بهدوء:

– اضرب. اضرب. مش حاصرخ. مش حاقول آه أبداً.

أحسست بحركة. خارج الباب المغلق. قدرت أن جدى وأمى وربما إخوتى خارج الباب ينتظرون ما يحدث، ويتسمعون ما يقال. راح أبى يضرب كفى بالخرزانة، ولم أقل له: آه. ووصلت إلى لحظة لم أعد أشعر معها بأن كفى هما كفاى. فرحت أبتسم له فقط، وأنا أنظر إليه فصاح بى:

– انت حتعمل لى زى ما عمل لى ابن الطرشوبى.

كان ابن الطرشوبى زميلا لى بمدرسة القنطرة الأولية التى يعمل أبى سكرتيراً بها. وكنت وإياه نعاقب يومًا بخرزانة على قدمينا فى الفلكة. أنا لأننى اتهمت ظلماً بمعاكسة بنت قبيحة شعثاء الشعر فى الحارة، لم أستجب لمعاكستها لى قط. وهو لأن أباه جاء إلى المدرسة وشكا منه، وطلب من ناظرها معاقبته، أنا صرخت وصرخت وتلقيت على قدمى عشرين خرزانة. وهو تلقى خمسين خرزانة، ولم يصرخ قط، فقط كان يضحك، ويقول مستفزاً: اضرب. لسه. لسه. كمان. كمان. اضرب. اضرب. رقدت فى البيت متورم القدمين طوال يومين، أما هو فلم يكذب خبراً. انتقم من أبيه، لا من



أبى، ولا من المدرسة، حمل نبوتًا، وهاجم محل أبيه، وحطم معظم ما فيه، وضرب كل من اعترضه، وامتلأت أرض المحل بقطع الأكواب الزجاجية، والشفاشق، والأطباق الصينى، وطواجن الخزف.

توقف أبى عن ضربى وغادر الغرفة غاضباً ويائساً.

دخل جدى إلىّ، وقال لى:

– ورينى الكراسة.

نظر فيها فرأى عشر صفحات بها ملأى بالكتابة بقلم كوبيا، راح يقلبها صفحة بعد صفحة. وقال لى بدهشة:

– عملت ده كله النهارده.

قلت له بغرور:

– أنا أذكى منه.

ضحك جدى من غرورى. قال لى مستفهمًا وهو يمسك بالأجرومية والكراسة معًا:

– يعنى كل اللى هنا هنا. اللى فى الكتاب ده فى الكراسة دى.

أكدت له ذلك بهز رأسى، وقلت:

– كلام الكتاب دقة قديمة وكلامى يفهمه أى حد. ويتفضل يسألنى من الكتاب والا من الكراسة أسئلة فهم مش حفظ.

كأن أبى كان وراء الباب، فقد دخل وقال لى متحدياً:

– هات الكراسة يا فالح. حنشوف.

أعطيته الكراسة تنقلت عيناه على صفحاتها بسرعة. كتم شعوره بالرضا عما لقطته عيناه من كتابتى. وقال:

– طيب. جاوب يا فالح.

وراح يسألنى عن الكلام المفيد وغير المفيد، والجملة الاسمية، والجملة الفعلية، وشروط المبتدأ، وأنواع الخبر الخمسة، وأزمنة الفعل، وأنا أجيبه

وأضرب له لكل ما يسألنى عنه بدلا من المثال الواحد مثالين وثلاثة. وبدا لى أبى فى لحظة وقد نسى النحو كل النحو، فقد كانت عيناه دائمًا على الكراسة. وقدرت أن أبى جرى تعليمه بالحفظ والتسميع والفهم يأتى بعد ذلك أو لا يأتى قط. ووضع أبى الكراسة، وقال لى بشك ورجاء:

– يعنى حتنجح وتقدر تخلص كل الكتب دى فى شهر ونص على الامتحان؟

قلت له مؤكدًا:

– سأذاكرها كلها بطريقتى مرة واحدة فى شهر. والمرة التانية فى نص شهر. زى ما زمايلى قالوا لى. انت مش عايزنى أنجح حانجح. والله حانجح.

فقال لى:

– قول إن شاء الله.

قلت:

– إن شاء الله.

نهض وقال لى بشك:

– حنشوف يابنى. حنشوف. اتوكل على الله وعوض اللى فات.

وغادر الغرفة، وعز علىّ أنه لم يعتذر لى لضربى ظلمًا. ولمت نفسى، فاعتذاره لى سيوجع قلبى، هو أبى، ومن حقه ضربى، وأطل وجه زوجة جدى علينا مشرقًا، فقال لها جدى:

– عشينى أنا وابو داود هنا. عشا كويس يا زكية يغذى.

ورحت أذاكر وحدى. فى النهار والليل كيفما شئت، فى البيت وخارج البيت كيفما شئت، على شاطئ ترعة البوهية، أو فى حديقة المركز كيفما شئت. وضربت الرقم القياسى فى مذاكرتى ثمانى عشرة ساعة فى كل يوم.



[illegible] لكل علم كراسة خاصة، وفى المذاكرة الثانية اعتمدت على كراريسى [illegible].

وسافرت إلى الزقازيق وحيدًا قبل الامتحان بيومين. سكنت غرفة فى بيت لا يكاد يوجد فيه أحد سواى. أطعم نفسى، وأشعل مصباحى. وأضبط [illegible] زودنى به أبى لصحوى ونومى.

★★★

كانت الغرفة الوحيدة المسكونة فى بيت بحى الحسينية بمدينة الزقازيق. قادنى إليها الشيال من المحطة. قال لى:

البيت فاضى إلا منك. وأنا مسئول عن البيت ده فى غياب صاحبته عند أختها بالقنايات.

كانت الغرفة تطل على حارة، لا يزيد عرضها عن متر ونصف المتر. غرفة متربة أرضها بلون جدرانها مدهوكة بالطين دهكًا جيدًا. وكان بها سرير ومصباح فعلا كما قال لى الشيال. كل ليلة كنت أذاكر فى كراستى العلمين اللذين سأمتحن فيهما غدًا، لا أغادرها قط إلا لأذهب فى الصباح إلى الامتحان. وأعود إليها كل ظهر، لآكل ما حملته فى عودتى من طعام، وأغفو ساعة، وأصحو على جرس المنبه الذى اشتراه لى أبى حتى لا تروح علىّ نومة. وكل عصر كنت أنظر من النافذة حين أسمع صوته على رأس العطفة. رجل كبير السن يجلس محتبيًا، وفتاة على جسدها ملاية لف، وعلى وجهها برقع، وفى يد الرجل خرزانة طولها بعرض الحارة. يقول لها نفس العبارة عصر كل يوم:

– رايحه على فين يا وسخة، يا...

فتقول له:

– يوه يابا. ما انت عارف. مطرح ما بروح كل يوم. رايحه للسيد.

فيقول لها وهو يمد الخرزانة إلى الجدار المقابل معترضاً طريقها:

– مش فايته إلا ما تجيبي حق السجاير.

تمد البنت يدها في عبها، وتخرج منه صرة صغيرة، ومن الصرة الصغيرة تخرج ريالا فضياً. وتضعه في حجره، فيسحب عصاه، وتنعطف إلى حارة أخرى أوسع وتختفي. كان الاثنان تسليتي الوحيدة. الصوت والحوار والمشهد، والبنت في الملاية اللف التي لا أعرف لها وجهاً ولا عينين.

في الليلة قبل الأخيرة لي في هذه الغرفة، رأيت النافذة المقابلة لنافذتي بالعطفة مضاءة. مغلقة الشيش كانت، ومفتوحة الزجاج، وصوت الكركرة والضحك والرقص يصل إليّ مع رائحة الحشيش. أدرت للمشهد كله ظهري، وتحولت الأصوات مجرد غاغة بعيدة، وحين انتهيت من المراجعة للكراسة التي كانت بيدي، غالبني النوم، فضبطت المنبه، ومسيت المصباح، ورحت في النوم.

حين عدت من المعهد ظهراً كانت النافذة المقابلة لي مفتوحة المصراعين شيشاً وزجاجاً. وكانت هي ذات الملاية اللف في مواجهتي على سريرها، وكان وجهها ناحيتي وعلى جسدها ملاية، وكأنها أحست بي أنظر إليها وأرقبها، فقد فتحت عينيها، وحدقت فيّ لحظة خاطفة، نترت بعدها الملاية التي تغطيها، وعادت تنظر إليّ وهي تخرج لي لسانها من فم مذموم، ثم انقلبت على جنبها، فحدقت للحظة في كل استدارات ظهرها. وخجلت من نفسي، فأغلقت نافذة غرفتي، وانطرحت على سريري ورحت في النوم.

بعد يوم، في ظهيرة اليوم الذي أديت فيه امتحاني الأخير، بحثت عن الشيال في المحطة، وأعدت له مفاتيح البيت، ونفحته كل ما بقي معي. وركبت قطار الست عزيزة عائداً إلى السنبلاوين، ويدي من مخاوف الامتحانات لا تزال على قلبي.

★★★



حين جاءت شهادة نجاحي بالبريد، فوجئت وفوجئ أبي معي وجدي، بدرجات نجاحي. كانت كل الدرجات لا تقل عن أربع درجات دون الدرجة الكبرى للنجاح. وقبلني أبي، وقبلني جدي. وقال جدي لأبي:

– من هنا ورايح ما لكش دعوة بأبو داود إن سقط والا إن نجح.

ومنحني جدي ريالا فضياً لأنزه به نفسي كما يقول. وسارعت أكاد أطير شوقاً إلى روايات روشة بشادر الخشب، تاركاً كل من في البيت، والغداء المخصوص الذي راحت سيدتا البيت تعدانه للكل فرحاً بنجاحي. النجاح الوحيد الذي كان له طعم في فمي، في سنوات التيه بالزقازيق. وسارعت بالذهاب إلى ما وراء البيت المفتوح الباب دائماً أمام بيتنا.

★★★

قبل عامين فتح باب البيت المهجور المقابل لبيتنا بعزبة حبيب. لم تكن له إلا واجهة واحدة، على يمينه على الناصية كانت مدرسة ابتدائية تظل مغلقة الباب طوال شهور الصيف، وعلى يساره بيت آخر لا يعنيني أمره فلا يجذبني شيء إليه. وراء البيت المهجور كانت خرابة واسعة مهجورة أيضاً، لا يجتازه أي أحد، ولا يلعب فيها أحد لعبة الكرة الشراب، لكثرة ما بها من شقف الخزف والأحجار المسننة، والزجاج المكسر الذي تخفيه الأتربة، فلا يومض له بريق، حتى في عز الشمس، وكثيراً ما كانت تفزعني في كوابيس النوم بشتى الرؤى.

على غير توقع فتح باب البيت المهجور. اكتشفت فتحه ذات عصر، اكتشفت أن البيت المفتوح الذي كان مهجوراً له عمق يمتد إلى الأرض الخراب. ورحت أتفرج على هذا البيت، وأدور حوله، يدفعني الفراغ، وفضول لا أعرف له غاية. اجتزت الخرابة التي وراءه آمناً ففي قدمي حذاء. اكتشفت أن وراء هذا البيت سوراً خشبياً يحد ساحة واسعة وراء البيت. من السور

والساحة كانت تطل من الأعالى عروق من الخشب والألواح. وفى السور كانت بوابة خشبية مفتوحة. ومن الباب المفتوح لاح لى بآخر صالتيه باب آخر مفتوح، سمعت صوتًا يقول لى:

– تعال يا مولانا.

درت بعينى. رأيته جالسًا فى ظل العصارى، وفى يده كتيب مفتوح. دخلت نحوه يجذبنى إليه أنفه الواسع المنخارين، وعيناه الكبيرتان، وجبهته العريضة، وشعره الجاف الأكرد المتلبد كما لِبدة لازقة، وقصره الفادح حتى فى جلسته على كرسى يكاد يبتلعه، كأنه طفل، كان ظهره متباعدًا فى جلسته المستريحة عن ظهر الكرسى الخشبى. أول مرة فى حياتى أرى فيها قزمًا كبير الرأس جالسًا أمامى. رأيت فقط مثله فيما بعد فى فيلم به سيرك يقوم فيه أقزام لا أدرى من أى جهة جلبوا يقومون بأدوار المهرجين. قال لى:

– ادخل واقعد ما تخافش.

جلست أمامه على كوم من الألواح الخشبية فلا مقعد آخر بالمكان سوى المقعد الذى يجلس عليه. سألته للتعارف، وفتح الحديث عن الكتاب الذى فى يده. قدمه لى. كان رواية جيب أراها لأول مرة من الروايات البوليسية، روايات التحرى والمغامرات. لاحظت أنه أحدب الظهر. وأرانى أحدب الشادر صفًا من روايات الجيب بجانبه.

رحت أتصفح سطور أغلفتها. سألنى عن مدى حبى للقراءة. سألته من أين يشترى هذه الكتب. أجابنى بصراحة أنه يشترى من كل كتاب عددين كل أسبوع، أو كل شهر، حسب التساهيل، كل عدد بقرشين. ويحتفظ لديه بعدد منهما لوقت الحاجة إليه، ويؤجر العدد الآخر بنصف قرش لمن يريد، حسب رغبته واختياره. سارعت بالمغامرة، واستأجرت منه روايتين بقرش



واحد، مطمئنًا إياه بأننى أسكن فى مواجهة البيت الذى وراء هذا الشادر. طلب تأمينًا قدره أربعة قروش. أكد لى أن ذلك هو مبدؤه فى التعامل. أعطيت له شلنًا. ضحك وقال لى راضيًا:

– أهل هذا البيت هم أصحاب هذا الشادر، وبوسعك كجار، الدخول إلى الشادر من بابهم واختصار الطريق.

لكننى لم أجرؤ أن أفعل ذلك طوال شهور متوالية، وحل الغروب ونحن نتحدث. أخبرنى أن اسمه روْشة حرضنى اسمه على الضحك، لكننى لم أضحك حتى لا أفقده لمجرد ضحكة. أتى به معه الحاج عبد الجليل أفندى من حى الحسين بالقاهرة، ولا أهل له بها سوى عائلة جليلة زوجة الحاج عبد الجليل، ليكون لهم حارسًا لهذا الشادر فى الليل والنهار، ينام فيه ويصحو فيه، ويقضى حاجته فى وقت متأخر من الليل بآخر الخرابة، ويجلب الماء لإبريقه من زير بصالة البيت. ولم يتردد فى إخبارى بممارسته للعبة واحد وثلاثين الشبابية، ليفرغ أتواقه وأشواقه.

أنست لصدقه، وصرنا صاحبين فى جلسة واحدة. ولم أجرؤ زمنًا، فى أى يوم، على الوصول إليه من باب أصحاب الشادر. كانوا لا يزالون مجرد جيرة.

★★★

حين عدت من مدينة الزقازيق مع الصيف إلى بيت الأهل فى السنبلاوين، كان الحاج عبد الجليل أفندى قد عاد إلى مصر، مصطحبًا معه زوجته جليلة، وكانت أمى وزوجة جدى تتحدثان عن نذالته، فقد ترك وراءه أولاده، وجرى وراء امرأته ممسكًا بذيلها، وكانتا تتسايران عن مكر المصراوية، التى لابد وأنها قد دبرت المجيء بهم إلى السنبلاوين، وتركهم بها، والعودة به إلى مصر، لتنفرد به وحدها، وتنام على قدرته على الكسب وعقد صفقات السمسرة. هكذا يقول الجيران وجيران الجيران.

وكـان إبراهيم بن عـبـد الجليل قـد أصـبح حـديث أهل السنبـلاوين ودهشتهم. كـان كل عصر يسلى نفسـه بلعبـة من ألعاب سيرك عـاكف أو سيرك الحلو بالقاهرة، اللذين يجوبان مدائن المديريات فى مصر بين الحين والحين. كان يطيل رجليه بعرقين من الخشب بارتفاع أربعة أمتار، ويصنع بمكان بعينه فى الساقين الخشبيتين عارضتين أفقيتين، ليقف عليهما بقدميه. وتحت العارضتين كانت زاويتان رأسيتان لتعزيز متانتهما وقدرتهما على حمله.

رأيته فى الحارة يجلس بين العارضتين، فوق سطح بيته، ويضع قدميه على العارضتين، ويرفع نفسه بمهارة وحذر وجرأة، ويقف بالقائمين ممسكًا أعلاهما بقبضتيه، ويأخذ فى السير مجتازًا شوارع السنبلاوين، مرتفعًا فوق رءوس السـائرين والجـالسـين والماشين، مـتـفـاديًا السـيـارات فى طريقـه. والسيارات تتفاداه بدورها، وربات البيوت وبناتهن وصبيانهن يتفرجن عليه من النوافذ والشرفات كل عصر، ولم يقلده أحد فى السنبلاوين، فمن أين لهم بجرأته الهائلة، أو بعروق الخشب، أو بمواجهة صرخات الأمهات الخائفات الفزعات.

وجاء وقت اعتاد الناس فعلته، وصاروا يضحكون على عبطه وعبثه. فابتكر إبراهيم حركة جديدة للعبته. جاء بقماش وصنع له الخياط بنطالا بطول القائمين جعله حين يسير بعرقى خشب ماردًا عملاقًا مخيفًا يسير على أطول قدمين رأتهما عين أحد، ولم يلبث أن أضاف إلى البنطال جرسين يتدليان من أسفل القدمين، ينبهان فى سيره المارة والسيارات والعربات إلى قدومه، وكان يحلو له أن يستريح أحيانًا على شرفة بيت، أو سطح بيت، ويشرب ماء أو شايًا من أهل البيت، ثم يواصل مسيرته. وفتنت به وبما يفعله بنات من بنات السنبلاوين، وصار الناس فى السنبلاوين يتحدثون عن



خطورته على بنات السنبلاوين، فقد يحمله الشيطان ببنطاله الطويل إلى شرفة إحداهن فى ظلام الليل، والناس نيام.

وجاء يوم منع فيه بوليس السنبلاوين إبراهيم بن عبد الجليل من ممارسة لعبته، بسبب ومن غير سبب، والأسباب ميسورة عند أهل الضبط والربط وأهل المدينة معًا، ولا أعرف كيف تفجرت فى السنبلاوين فى شهور هذا الصيف نفسه ألعاب أخرى، وجدت نفسى فيما بعد منبهرًا بها، ومشاركًا فيها، وكانت كلها من ألعاب السيرك: المشى على الكفين بدل القدمين أمامًا وخلفًا. مشية الساقية الدوارة على طول الطريق. لعبة المقص بطول الشارع نهبط فيها على اليدين فالرجلين وبسرعة فائقة على طول طريق خال، أو حتى على طريق يسير فيه الناس.

ولم يلبث إبراهيم أن تزوج. كـان شـريكنا وقـائدنا فى كل الألعـاب، لم نعرف مَن تكون الزوجة. لم يكن ثمة فرح. ولا دعوة لأحد، وربما لم يعلم أبوه أنه قد تزوج. غاب عنا شهرًا بطوله داخل غرفة الزوجية، وحين رأيناه ليلا فى جلسة سمر بالخرابة، فى ضوء القمر، أمام شادره، كان مصفر الوجه غائر العينين، وأضحكنا بقوله إنه انهرى واتبرى فى شهر العسل. وراح الأحدب روشة يطوف علينا فى الجلسة بأكواب شربات وشاى يجلبها من داخل البيت دورًا بعد دور. وأغرقنا فى الضحك والعجب وهو يخبرنا بما جرى له من الزواج. حبسته زوجته الشابة معها شهرًا، ثم أطلقت سراحه، لتبدأ شهور البصل بعد شهر العرق والعسل. كنا غارقين فى الضحك، وهو يحكى لنا كيف تفترس الزوجات الأزواج، وكانت بينه وبينها مفاكهات لا يبوح بمثلها أحد سوى جدى، فقد حرره كبر سنه من كل تردد.

وما لم يقله إبراهيم لنا أخبرتنى به زوجة جدى. ضجت أختا إبراهيم زلابية وصفية من خدمة العروسين ليلا ونهارًا، والطهى لهما كعروسين،

وربما أثارت ضجتهما الغيرة من العروس لأنها عروس دونهما، ولأنهما صارتا لها خادمتين، وبدأت المشاجرات بين الزوجة والأختين. واحتاس إبراهيم فأخذته الحماسة وضرب زوجته وأختيه بلوح خشب علقًا ساخنة. فنهضت زوجته بواجباتها على ضغن وترصد.

وعدت إلى البيت مع الليل بعد أن أغلق روشة شادر الخشب حاملا على صدرى وساعدى عشر روايات من روايات الجيب. كانت أمى وزوجة جدى مشغولتين بجمع وربط كل ما سيلزمنا فى بيتنا الكبير بالقرية. انتهت الامتحانات، وظهرت النتائج، وأن لنا أن نقضى شهور الصيف فى بيتنا الكبير المهجور بقرية برهمتوش.



## (٢)

صرت طالبًا بالسنة الثانية الابتدائية. سكنت مع بلدياتى فرج، بحى الحسينية القريب من المعهد. اختاره لى أبى لأسكن معه. شاء أن يسكننى مع طالب كبير، يجمع لى ما تشتت من أجزائى فى عام مضى، وما تفرق من حياتى فى مدينة الزقازيق. وأحسب أنه لم يعد مطمئنًا إلى حسن تصرفى فى الغربة لو عشت وحدى، فى مسكن منفرد خاص بى.

كان مسكننا غرفة نظيفة بصالتها بالطابق الثانى فى بيت الست أم عبده، بها نافذتان، وكانت حسنة التهوية، تضربها الشمس معظم النهار شتاء، وتنحرف عنها قليلا فى الربيع والخريف.

كان فرج محمر الوجه يبدو لى دائمًا مسلوخ الجلد، ملون العينين، مصفر سواد العين، كما العساكر الإنجليز الذين يطلون من نوافذ القطارات العابرة بمحطة السكة الحديد. وكنت دائمًا أحس بثقل ظله، وأضيق ببخر فمه حين أقترب منه. وكان سريرانا بالغرفة متباعدين فى ركنى الغرفة، ولأنه كان الطالب الأكبر سنًا، والأرقى فصلا، صار عليّ خدمته، وخدمة ضيوفه، وخدمة نفسى، مع أن أباه كان أبونيه القرية، يروح ويجيء بين القرية والمركز لقضاء الطلبات لذوى الحاجات من أهل القرية. أكنس الغرفة، والصالة الصغيرة أمامها، وأمسح بلاطهما، وأغسل الأطباق والحلل تحت الطلمبة فى الطابق الأسفل، وأشترى كل ما نحتاجه لطعامنا من السوق، والبقال أبو عفارة، ومطعم الفول المجاور. صباحًا ومساء.

كان طعامنا الفول المتبل بالصلصة والزيت، وأقراص الطعمية الفواحة الرائحة بزيتها المحروق مرارًا. وأحيانًا كنا نرتقى بأقراص الطعمية إلى

طعمية أخرى نواتى متبلة بالبقدونس، ومحشوة ببيضة مفقوسة فى قلبها.
وأخترق المقابر فى عز الظهر للحصول عليها، من مطعم بعينه فى حى كفر
النحال، المقابل لحى الحسينية. لم يكن يفرق بين الحيين سوى شريط القطار
المتجه نحو حى بسطة أو العائد إلى ميدان المحطة. كان قطعى للمقابر على
عفن هوائها وروائحها يوفر لى الوقت، ويريحنى من سير الطريق الطويل
تحت وقدة الشمس إلى مدخل كفر النحال، ثم إلى ميدانه الفسيح.

يوم الخميس وحده. كان يوم الفرج فى بيت فرج فلم أشعر قط أنه بيتى
أيضًا. كنا نطهو الكشرى فى حلة، ونسلق بها أربع بيضات لى وله، ولمن ق
يطب علينا من الطلاب الجياع أو المتطفلين. ويوم الجمعة وحده كان هو يو
الخضار واللحمة، نطبخهما مسبكين على مهل بالبصل والقوطة والثوم،
وناكل طعامًا شهيًا كطعام أمهاتنا، مع السلطة الخضراء المكونة من
الطماطم والخس والخيار والجرجير والبقدونس والشبت والكسبرة والكرفس
والبصل والثوم والزيت والليمون، ونبيت ليلتها متخمين منفوخين بلا عشاء.

وبرغم انتظام حياتى لم أفارق عاداتى السيئة، أو الحسنة، الفرار من
الدراسة بين الحين والحين بالسقوط من النوافذ، وتسلق بوابة السور الخلفية
للمعهد، لأذهب إلى المقهى، أو إلى مكتبة بحر مويس. وحدثتنى نفسى يومًا
بأن المعهد به قاعة مكتبة، لا أعرف الطريق إليها، وقد أجد فيها كتبًا بديلة
لكتب مكتبة بحر مويس.

سألت الشيخ أبو سنة المشرف على الضبط والربط بالقسم الابتدائى بين
الحصص، وفى الفسح، فنفى لى وجود مكتبة بالمعهد للطلاب. به فقط غرفة
مكتبة مغلقة، خاصة بشيوخ المعهد وحدهم، ويشرف عليها شيخ السكن.
وهى مكتبة بها كتب دينية ولغوية وكلها كما قيل لى فوق مستواى.

★★★



فى أوقات الفراغ، فى أيام الجمع خاصة، حين لا يكون فرج بالبيت، كنت
أشغل نفسى بفتح البرجل، ورشق سنانه فى باب صالتنا الصغيرة، حين
يغادر فرج البيت، إلى أن انغرس سنان البرجل بخشب الباب، وانكسر به،
ولم يفارقه، وبت بحاجة إلى برجل آخر أحصل عليه لحصة الجغرافيا أو
الأشيا كما كنا نسميها، وحصة الرسم وحصص أخرى لا أذكرها. وحين
يكون فرج بالبيت أسارع بالخروج منه لشعورى الدائم بمراقبته لى،
ولضيقى من أسئلته السخيفة المتكررة عن أهلى وعائلتى وإخوتى. كان فرج
ابنًا لرجل غريب وفد على البلد، واشتغل مرسالا للعمدة بينه وبين القرى
الأخرى الصغيرة التابعة لقريتنا. ولعل فرج كان يحدث نفسه بمصاهرتنا
يومًا، فقد كان دائم السؤال لى عن إخوتى من البنات وأعمارهن.

أفر من البيت إلى أماكن فرارى المعتادة، إلى أن اكتشفت المكان الدائرى
الذى تدور منه قطارات الدلتا خارج مدينة الزقازيق، ركبت على عربة به من
عربات الصينية، ورحت أدفع بذراعها أمامًا وخلفًا فجرت بى دائرة فوق
القضيبين الدائريين. وحين مللت من هذه اللعبة وثبت متعلقًا بسيخ من
الحديد بجوار القضبان لسبب أعلمه. كان السيخ محمولا على عمودين
متوسطى الارتفاع، ورحت أذهب وأجىء عليه بكفى وكأنى أمشى عليه
بيدى. كنت أرجو بهذه اللعبة أن أطيل جسمى قليلا فى سن النمو، حتى
أصل برأسى حين عودتى لبيت الأهل إلى الحافة السفلى لنافذة عالية به
تطالها رأس أبى، وكانت تطل على منور البيت.

سئمت اللعبة فخرجت بنفسى إلى طريق المعاهدة، كان طريقًا يربط بين
شرقى مصر ومدن القناة، أنشئ بعد معاهدة ١٩٣٦، أسير بجانبه طويلا
وبعيدًا، وأجرى وأغنى فلا أحد سواى يسمعنى، وأتوقف وأحاول الخطابة
فى جمهور ما لا وجود له، بما يحضرنى من هلوسة وخواطر فى السياسة

والناس والأحزاب والأحوال، مقلداً طلبة المعهد الكبار. كنت أعانى كثيراً، وأتوقف كثيراً بسبب البحث السريع عن الألفاظ والمعانى، وانقطاع حبال التفكير، وكانت السيارت تمرق فيه بين حين وآخر رائحة وغادية.

وأحاول إشعال سيجارتى وظهرى إلى ريح شتوية فى الطريق المكشوف بعود كبريت، حتى قاربت الأعواد أن تنفد، كانت الريح تصب دائماً فى بطن كفى، وتطفئ الأعواد عوداً إثر عود. جربت أخيراً مواجهة الريح بكفى، وأنا أشعل السيجارة. ولدهشتى اشتعلت السيجارة واتقدت بالعود الأخير.

★★★

يوم جمعة أيضاً، اشتقت إلى تدخين سيجارة، وكان جيبى خالياً من كل مليم وكان زميلى فرج مسافراً إلى أهله لم يعد بعد. صحبتنى نفسى لتحقيق هواها. ذهبت بى إلى بيت الهنداوى، لأستلف منه سيجارة عبرت باب بيته. ودفعت باب غرفته الموارب. وجدته نائماً على سريره يغط فى شخيره. بجانبه كانت علبة سجائره البحارى. فتحتها. أخذت منها سيجارة واحدة. أغلقت العلبة. هممت بالخروج. لاحظت أن محفظته متدلية من فتحة جلبابه، خارج صداره. دفعتها إلى جيبه. واتجهت خارجًا من باب الغرفة. لاحظت فى مغادرتى لبيت الهنداوى أن صاحبة البيت جالسة بفسحة صغيرة مظلمة، وراء باب الصالة المعتمة، متشحة بالسواد.

قرب المغرب، والدنيا لا تزال منيرة، عاد فرج إلى غرفته ومعه قفة الزاد والزواد. لم يكد يضعها، ولم أكد أسحبها إلى ركن الغرفة، حتى طب علينا الهنداوى وكأنه كان مع قدوم فرج على موعد. جلس. وزفر ونفخ. سأله فرج عما به. فوجه إليَّ اتهاماً أمامه بأننى ذهبت إلى بيته أثناء نومه، ودسست يدى فى جيبه، وأخذت من محفظته مائة وكذا وعشرين قرشاً وتركتها له خاوية. صعقنى الاتهام. صرخت مقسماً بأننى لم آخذ من غرفته إلا سيجارة



من علبته البحارى. وأننى لم أفتح محفظته. ضحك الهنداوى وقال غاضباً:

- اعترفت. جئت إلى البيت كما قالت لى صاحبة البيت. ومن أخذ سيجارة أخذ الفلوس.

لم ينتظر فرج رداً منى. قال للهنداوى:

- شوف لى خرزانة وتعال بسرعة.

أذهلنى أن الخرزانة كانت جاهزة تحت جلباب الهنداوى. أخرجها من فتحة جلبابه وناولها لفرج. وطرحانى على بلاط الغرفة على وجهى. وجلس الهنداوى على ظهرى وجذب قدمى نحو وجهه. وانهال فرج على بطن قدمى بالخرزانة، حتى تعب. انهمر الدمع من عينى، لكننى لم أصح بصرخة واحدة. كأننى قد شللت وفقدت صوتى. وحين تركانى. جلست فى الركن صامتاً، فلا جدوى من قسم ولا من تبرئة نفسى بأى كلام، والدموع لا تزال تنحدر من عينين باكيتين. قال لى فرج:

- طلع الفلوس ورجعها لصاحبها.

قلت بهدوء:

- ما فيش معاى مليم واحد فى جيبى من فلوسى. وفلوسه لا أعرف عنها شيئًا. وفتش كل شىء.

فعاد يقول لى:

- خبيتها فين؟

لم أرد عليه بحرف. نهض هو والهنداوى وراحا يفتشان كل شىء لى وكل شىء لفرج، وزادا ففتشا كل السطح، وعاد فرج ليقول لى:

- حتدفع الفلوس ازاى؟

قلت له بهدوء:

- سأكتب لأبى ليرسلها . وسأترك السكن معك.

بهت فرج لردى. صمت لحظة، وأخرج من جيبه فلوس الهنداوى ودفعها له. وظل جالساً حتى قدم له فرج الطعام من الزاد والزواد. رفضت الأكل معهما. وقلت للهنداوى:

- سيب السكن اللى انت فيه. صاحبة البيت هيه اللى سرقتك واتهمتنى.

وأدهشنى أن الهنداوى قد أقسم أن صاحبة البيت لم تدخل غرفته، ولم تسرقه، وأننى الذى سرقه.

لزمنا الصمت. وكتبت إلى أبى رسالة أخبرته فيها بما حدث، ولم أخبره بحكاية السيجارة. فأرسل إليّ بالمبلغ لأعطيه لفرج ومع المبلغ أرسل جنيهين لى. وأمرنى بتغيير سكنى معه والسكنى وحدى. وجهد فرج ليقنعنى بالبقاء معه. لكننى كنت قد استأجرت لى غرفة أسكنها وحدى. غرفتى، بقية عامى.

***

واجهت محنة أخرى فى علم الفقه لا قبل لى بها. كانت دروس الفقه فى تلك السنة فى أبواب المعاملات. وكان الكتاب تراثياً قديماً مثقلا على الورق الأصفر بأقوال فقهاء المذهب الشافعى، وآرائهم فى المسألة الواحدة، والعنعنات والقيل والقال والاحتمالات والتجويزات، حتى صار المذهب الشافعى نفسه مذاهب، مثلما صار تفسير القرآن والحديث معه مذاهب وروايات، على ألسنة الفقهاء والمفسرين والمحدثين. وانفرجت عنى تلك المحنة بكتاب رأيته فى يد طالب، يعرض فقه المعاملات الشافعية فى تلك السنة بأسلوب حديث ومنظم، وحتى الأقوال والآراء، والقيل والقال، خضعت بدورها فى هذا الكتاب للتحديث والتنظيم.

بذلت جهدى مع ذلك الطالب لأستعير منه الكتاب لأنسخ نسخة منه بيدى، لكنه رفض، فسرقت من غلافه الداخلى اسم ناشره، والمطبعة التى قامت



بطباعته بشارع رشدى بمدينة القاهرة. كان الكتاب من تأليف الشيخ الخضرى فسارعت بكتابة رسالة إليه أشكو إليه بثى وحزنى مع الفقه، وأتوسل إليه ليرسل لى نسخة من كتابه، وأقسمت له أننى سأرسل إليه ثمنه بحوالة بريدية، ولم يمض أسبوع واحد حتى جاءتنى أول رسالة لى فى حياتى، كانت الرسالة منه، وكان بداخلها الكتاب الذى طلبته، وكانت على صفحته الداخلية كلمة إهداء موجهة إليّ، باسمى، وإعفاءه لى من ثمنه. وقد صرت فيما بعد صديقاً لابنه، وصاحب المكتبة بعده.

***

على الدرج نفسه بفصلى الدراسى، كان يجلس إلى جوارى تحت النافذة طالب اسمه سامح، والاسم من عندى. كان سوسة قراءة ومذاكرة، حريصاً على الحضور الدائم كل يوم للدروس كلها، حصة حصة، حريصاً على الاستماع للدروس، وتدوين بعض الملاحظات على هوامش الكتب. وكم أدهشنى دائماً بفتحه لكتب باللغة الإنجليزية أو الفرنسية فى الدقائق الخمس بين كل حصة وحصة. وفى فسح الظهيرة، لا يغادر درجه، لأنه يواصل مذاكرته، بل حفظه لدروس أخرى فى الكتاب الإنجليزى أو الفرنسى. حتى شنعت عليه يوماً بأنه ليس من البشر، وأنه لا ينام مطلقاً، وإذا نام فهو يواصل التسميع لنفسه، لما حفظه من كتب المعهد، أو كتب الإنجليز أو الفرنسيس.

وقيل لى من طلاب الفصل إنه ابن عمدة غنى جداً، وقيل لى إنه من أبناء الأعيان الكبار فى قريته، وقيل لى إنه يعيش وحده فى شقة مستقلة تطل على بحر مويس نفسه، ويخدمه خادمان من أهل قريته، أحدهما يطهو له، والآخر مخصص لخدمة شخصه. وقيل لى إنه ملتحق بمدينة الزقازيق بليسيه الفرنسيس، وفى الوقت نفسه بالمجلس البريطانى لدراسة اللغتين. ويذهب إلى أحدهما عصراً بين يوم ويوم.

حاولت التودد إليه، والتعارف معه، لكنه ازورّ بنفسه عنى، كأنه من طينة أخرى. وبقدر إعجابى بطموحه الذى لم أعرف له آنئذ غاية، بقدر ما لعنت حظى بمشاركتى له فى درج واحد. وجهدت لإقناع غيرى من الطلاب بتبديل درجى مع درجه، لكنهم جميعاً رفضوا واحداً بعد واحد. وصرت كلما ذهبت لحضور درس محدد فى وقته المعلوم أترصد لدرج آخر بالفصل غاب صاحبه، وأسارع بالجلوس بعيداً عنه، فقد كان بالنسبة لى بلا طعم ولا لون ولا رائحة. ورحت أرقبه عن بعد بفضول شديد.

لم أره يوماً بمصادفة ما، وما أكثر المصادفات، يشهد فيلماً فى أى حفلة من حفلات الليل والنهار، أو يجلس على مقهى، أى مقهى، وكنت بها جميعاً ولها جميعاً من العارفين والطارقين، ولم أره يوما يقرأ صحيفة أو كتاباً قراءة حرة. كتب الدراسة وحدها، والتعلم، هى التى كان حريصاً عليها، حرص البخيل على جمع المال، وحرص البخيل على ألا يعطى منها أحداً، وحرص البخيل على ألا يدل على طريق المال أحداً سواه.

فيما بعد، عرفت أنه كان أيضاً طالباً منتسباً بمدرسة ابتدائية، ثم بمدرسة ثانوية، وكان يتقدم للامتحان أربع مرات فى ختام كل سنة، مرة بالمعهد الدينى، ومرة بالمركز الفرنسى، ومرة بالمجلس البريطانى، ومرة بالمدرسة الابتدائية أو الثانوية. وعلمت أنه كان يدرس بمدارس التعليم المدنى دون أن يعلم أبوه، فقد أقسم عليه أن يكون طالباً بالمعهد الدينى، ثم طالباً بكلية أصول الدين دون سواها، ليصبح يوماً عالماً كبيراً من كبار العلماء، وقد يكون مفتياً للديار المصرية، أو شيخاً مطمطماً للإسلام، وإماماً للجامع الأزهر نفسه.

ولم يخب سامح أملا لأبيه ولا لنفسه. كل عام كان ينجح فى كل الامتحانات الأربعة، وكل عام كان ترتيبه الأول دائماً على المديرية أو المملكة



المصرية أو فى المجلس البريطانى أو فى المركز الفرنسى. وكل عام كان يحتفظ بشهاداته المدنية لنفسه، ويعطى الشهادات الأزهرية لأبيه.

وحين نجح ذات عام فى الشهادة الثانوية بالأزهر، والشهادة الثانوية بمدارس نظارة المعارف، وكان ترتيبه فيهما الأول، صارح أباه بما فعله فى سنوات التعليم التسع، ورجاه أن يأذن له فى الالتحاق بكلية العلوم دون أى كلية من كليات الأزهر، فأبى أبوه وأقسم عليه بالطلاق والعتاق من أمه، والتبرؤ منه إذا لم يكمل تعليمه بالأزهر. ولم يجد سامح مفراً من مواصلة مسيرته مع الكذب. التحق طالباً بكلية أصول الدين، وكان مبناها آنئذ بحى شبرا، والتحق طالباً بكلية العلوم، فى العام نفسه، من وراء ظهر أبيه، وفى كل عام كان ينجح، وكان ترتيبه الأول، هنا وهناك، ويقدم شهادة الأزهر لأبيه، ويحتفظ بالشهادة الأخرى لنفسه.

وفى العام الأخير عين معيداً بكلية العلوم بجامعة القاهرة، ورفض أن يكون معيداً بكلية أصول الدين، فى قسم من أقسامها، وكان فى اختياره هذه المرة حراً لأول مرة، فقد ودع أبوه الدنيا.

★★★

اعتاد شيوخنا وأشياخنا فى معهد الزقازيق الدينى مخاطبتنا نحن الطلاب بقولهم لنا فى مفتتح أى كلام يقولونه لنا: يا مشايخ. يقولونها لنا فى فصول الدراسة، وبين أيدى المتظاهرين التى يحثوننا على المشاركة فيها، أو ينهوننا عنها. واعتدنا نحن الطلاب ألا نخاطب أحدهم إلا بالقول: يا شيخنا، وألا نتحدث عنهم جماعة إلا بقولنا: شيوخنا. اكتشفت ذلك منذ عامى الأول بهذا المعهد، داخل الفصل، وخارجه. واحترنا نحن الطلاب أياماً فى هذا الجمع: مشايخ. فجمع شيخ هو شيوخ. ولكن ما مفرد مشايخ، وفعله الثلاثى المجرد لازم. وتوكل على الله أكبر من معى بغرفة السكن عمراً، وقال:

– وجدت لها حلا هو: مشيوخ. وفعله شيَّخ بتضعيف عين الفعل. وهو جمع مخالف للقياس. فالقياس هو: مشيَّخ.

وضحك قائلا:

– أعرفتم أيها المشايخ المشيَّخون. هذه فتواى، وذلك تأويلى. والله أعلم.

وأضاف ضاحكًا:

فمن شاء عمل به، ومن شاء لم يعمل.

★★★

ضحكنا جميعًا، حين قال لنا شيخ شيوخ المعهد، وهو يستند إلى شرفة مبنى الإدارة، أثناء استعدادنا للخروج فى مظاهرة وطنية:

– يا مشايخ. مالى أرى عمائمكم على رءوسكم كلوزات قطن بيضاء، أو ككك.. كككك...

وتعلق توالى الكافين على لسانه مرارًا، وهو حريص على نطق كلمة بعينها. فانفجر كل الطلاب المحتشدين للمظاهرة بضحك صاخب. كان يريد أن يقول متفاصحًا فى تشبيهه: ككواكب. وأخيرًا قالها دفعة واحدة: ككواكب مضيئة فى ظلام السماء. كان بوسعه أن يستبدل الكلمة بقوله مثلا: كنجوم، وكان بوسعه أن يغير كاف التشبيه بقوله: مثل، ولكنه لم يفعل. ورحنا نضرب كفًا على كف فى بيوتنا، ونحن نتذكر ما حدث.

كان هذا الشيخ عضوًا بهيئة كبار العلماء. وكان هو الذى جهر فى قلب اجتماع لهذه الهيئة يومًا ما بتكفير الشيخ الدكتور المتفلسف المطربش العائد من أوروبا: محمد البهى، لأنه يدعو إلى تحويل الأزهر إلى جامعة مدنية حديثة، تضم مع علوم الدين علوم الدنيا. كان الشيخ عالمًا فحلا باللغة، ولكنه كان على قد الحال فى التعبير الأدبى، شأنه شأن عالم بلاغة، كان فحلا من فحول حلقات دروس البلاغة فى أزهر ما قبل سنوات الثلاثينيات، ولكنه كان



يستكتب غيره ممن حوله، لينشئ له رسالة أدبية على لسانه يوجهها إلى صديق، أو يلتمس بها أمرًا ممن هم فوقه فى الأزهر، وخارج الأزهر.

وجاء من بعده شيخ جديد لشيوخ معهدنا هو على ما أذكر الشيخ الدكتور الجميل الطباع، الشديد التواضع، العالم المتنور بالشريعة الإسلامية، الشيخ عبد الرحمن تاج الذى صار فيما بعد شيخًا أكبر، وإمامًا للجامع الأزهر. رأيته أول مرة عصر يوم ما، يمسك بمقشة، وبجانبه سلة وجردل ملىء بالماء، وهو يروح ويجي، كانسًا أرض المعهد بالمقشة بيده التى تمسك بالقلم، ويده الأخرى التى تمسك بالأوراق. ظننته لأول وهلة ساعيًا جديدًا بالمعهد، وبلغت صدمتى منتهاها، حين قيل لى إنه شيخ المعهد الجديد. لم ترق لهذا الشيخ حال نظافة المعهد كله: باحاته ملأى بالأوراق والأكياس والأتربة، وجدرانه لطختها الأكف الملوثة ببقايا الطعام، ودورات مياهه مثل كثير من دورات المدارس والمساجد فى الأحياء الشعبية.

لزم الشيخ تاج الصمت حتى انتهت دروس اليوم الأول بالمعهد، ولم يعاتب الوكيل المسئول عن المعهد، وهو شيخ السكن المقيم بغرفة نظيفة خاصة به بالمعهد. ولم يدع إليه أحدًا من السعاة بالمعهد وفراشيه، ليعاتب أحدًا منهم أو يحاسبه أو يزجره أو يعاقبه متوعدًا ومهددًا.

عند انتهاء اليوم الدراسى ذهب الشيخ تاج إلى مخزن أدوات النظافة، وسحب منها ما يلزمه، وملأ الجردل من صنابير حمامات المعهد، ورفع ذيل جلبابه الأبيض، وعقده حول وسطه كأى فلاح، وراح يمارس بتواضع وهمة عمل غيره. تصايح عندئذ طلاب السكن، وتنادى المقيمون من السعاة والفراشين إلى حيث الشيخ. حاولوا جاهدين إراحته من هذا العمل، لكنه نهرهم، وواصل العمل، فسارعوا يعملون مثل ما يعمل، جالبين من المخزن كل أدوات النظافة الوفيرة.

في ساعات قليلة، والشيخ على رأسهم، كانت باحات المعهد مكنوسة مرشوشة، وبواكيه تضوى، ومصابيحه عند الغروب تومض بعد خفوت أضواء، وأحواض الحمامات، والحمامات، والمراحيض، تلمع بالبياض والنقاء، وجدران المبانى الحجرية داخل الفصول وخارجها تبدو بعد جهد من مئات الطلاب بعنابر السكن الداخلية، وكأنها قد خرجت لتوها من أيدى البنائين. وكان وكيل المعهد وشيخ السكن يرقب الأمر كله من الشرفة، ويدخن سيجارة إثر أخرى، ويدهسها فى النهاية بحذائه، على أرض ممر مبنى الإدارة، وهو ينفخ ويزفر فى قلق. وكان الشيء الوحيد الذى لم تمتد إليه أيدى النظافة بعد فى تلك الليلة مطعم المعهد المغلق الباب، وأكوام الزبالة الهائلة وراء الجدار الخلفى للمعهد، ترتع فيها الحشرات من الصراصير والبورصات والسحالى والنمال والهوام الأخرى.

فى تلك الليلة اغتسل الشيخ تاج فى حمام من حمامات الطلاب بالمعهد، وغير ثيابه، وطرح فوطته على كتفه، وعاد بها إلى غرفته الخاصة بمبنى الإدارة، ورقد إلى الصباح. ومع الضحى دعا إليه وكلاء المعهد، وأعلن إعفاء الوكيل المدخن من مسئوليته كشيخ للسكن، وخيره بين البقاء بالمعهد والعودة إلى المشيخة بالقاهرة لنقله، فاختار الرحيل عن المعهد. وإثر انفضاض الاجتماع تحدث الشيخ تاج، فيما كانت تتناقله الأخبار، إلى جهة ما بالمدينة فاقبلت سيارات النظافة، وعمال النظافة بالمديرية، وحملوا معهم فى السيارات أكوام الزبالة من وراء المعهد.

وفى ذلك الصباح أغلق الشيخ تاج مطعم المعهد إلى أن ينتهى متعهد المطعم من تجديد مطعمه كله، وتنظيف أدواته ومناضده المصفحة بالصفائح، وجدرانه العارية الكئيبة، وحمله مسئولية التخلص يوميًا من زبالة مطعمه، وتنظيف أدواته كلها وفاء بتعاقده مع المعهد، وهدده بإلغاء التعاقد معه.



وامتدت من داخل المعهد خراطيم المياه لتغسل كل جدران المعهد الخارجية وأسواره. وشن حملة لكنس سقف المعهد وغسله عصر نهار.

نهض كل من بالمعهد فى تلك السنة بواجبه. واعتاد الشيخ أن يفاجئ بحضوره كل مكان بالمعهد فى مواعيد متكررة، وغير منتظمة، وأن يسعى مهيبًا بين قاعات الدرس، وعنابر السكن، ويتحدث بهدوء بالغ إلى الطلاب والشيوخ والسعاة، وأن يترك بابه مفتوحًا لكل قادم. وفى الليل، كان الليل له وحده، مع خواطره أو كتبه أو قلمه وأوراقه.

كلما تذكرت حال هذا الشيخ معنا فى تلك السنة تذكرت حوادث أخرى مماثلة يقوم بها أفراد بطولهم. وحين يعفون من هذه المسئولية، بالمعاش، أو بالغضب عليهم، ويأتى سواهم وذلك ما حدث تمامًا مع معهدنا حين نقل الشيخ تاج من معهدنا، ولم نعرف حينها أين ذهب. وطوال السنوات التالية التى عشتها بهذا المعهد كان الشيخ تاج هو الشيخ الوحيد الذى حدث فى عهده ما حدث بمعهدنا.

★★★

رُوِّع طلاب المعهد وشيوخه بمصاب نزل بأتقى وأورع شيوخنا بالمعهد. كان له ابن وحيد لم يرزقه الله بسواه. كان رياضيًا ووسيمًا وعالى الذكاء، وكان طالبًا بالمدرسة الثانوية، القريبة من معهدنا، وكان من أبطال رياضة العقلة. وفى حفل رياضى بالمدرسة، ووسط الحضور، وبينهم كان أبوه الشيخ الورع التقى، سقط هذا الابن من فوق العقلة على عنقه، فانقصفت فى سقطته رقبته. وأسلم الفتى روحه إلى ربه فى لحظته. فى تلك اللحظة لم يزد الشيخ وهو يقف عن قوله: إنا لله وإنا إليه راجعون. اللهم صبرك. ورفض أن يساعده أحد، فيما روى لنا، فى وقوفه أو سيره قائلا لمن حوله: الله معى.

وما أدهشنا نحن الطلاب، وأذهلنا، هو رؤيتنا لهذا الشيخ يسير في اليوم التالي، بيننا نحن المشايخ والشيوخ بالمعهد، يتلقى العزاء مصافحاً على عجل، ويدخل الفصل بعد الفصل ليلقى درسه على مهل. يسأل ويسمع، ويجيب عما يُسأل. وظل يأتي إلى المعهد طوال أيام ستة، صامتًا كان أو متحدثًا. وفي اليوم السابع لم يأت الشيخ لأول مرة إلى المعهد في سنوات اشتغاله بالتدريس كلها. وجاء إلى الشيخ تاج من يقول له: البقية في حياتك. وحمل كل منا طلابًا وشيوخًا، حزنه عليه وحده لا يتحدث عنه لأحد.

★★★

لم يمض شهر على عودتي إلى السنبلاوين، حتى نجح أخي في الشهادة الابتدائية، بمدرسة التوفيق الابتدائية، وصار مؤهلا لدخول المدرسة الثانوية.

وقرر أبي أن يوقف أخي عن مواصلة التعليم المدني، وأن يدفع به إلى كتّاب الشيخ إدريس ليحفظ القرآن عنده بدوره، ثم ليلحقه معي طالبًا بالمعهد الديني بالزقازيق بالصف الأول الابتدائي، وكأنما قد كتب عليه أن يدرس المرحلة الابتدائية مرتين. حدثني جدي بذلك الأمر، وكان يأنس لي، بقدر أنسي به.

بدا لي قرار أبي، مع أنه أبي، قرارًا أحمق غاية الحمق. جلست إلى أبي أناقشه في هذا الأمر، فازور عني، فلاحقته دفاعًا عن أخي، وحتى لا تتبعزق أربع سنوات مضت من عمره.

لاحقت أبي يومًا بعد يوم، وحرضت أمي وزوجة جدي عليه، وزدت فوسوست إلى أخي بما سوف يكون مصيره عليه.

يئست من أبي. جلست معه جلسة الختام الحاسمة. قلت له وهو يسبح في سره بعد الصلاة وردًا من أوراده:



- أبي. لا تفعل. كفاية العيلة تضحي بواحد.

فنظر أبي إليّ باستنكار، ربما لتعبير التضحية. ولم أجد مفرًا سوى مواجهته وصدمه وتحديه، وجدي جالس على قرب يرقب، ويسمع، ويدخن صامتًا. عدت أقول له:

- إذا صممت، حاروح البلد، واقعد عند جدتي، وأشتغل فلاحًا في أرض جدي إبراهيم، ومش حارجع المعهد مرة تانية.

لم يبال بي أبي، ونهض، وطوى سجادته، وغادر البيت غاضبًا.

★★★

في اليوم التالي نفذت ما قلته بالحرف الواحد دون أن أخبر أحدًا. دخلت بيت جدتي، وحين انفردت بي قالت لي:

- خير يا ابني. إيه اللي جرى.

قلت لها ما جرى. فضربت كفًا على كف، ولم تقل كلمة تخطئ بها في قول أبي. وطلبت مني البقاء عندها، فسوف يأتي أبي بعد أن يعاود التفكير في حكايته مع أخي.

في اليوم الثالث جاء أبي يبحث عني عند جدتي. كان خائفًا أن أكون قربت منه إلى حيث لا يعرف لي خبرًا. حين رآني بدت عليه الراحة، وارتسمت على فمه المزموم ابتسامة خفية. رحبت به جدتي، وجلست تنظر إليه حتى يفتح هو الموضوع، لكن أبي قال لي وجدتي تسمعه:

خلاص يا ابني. أنا قدمت لاخوك في المدرسة الثانوية بالسنبلاوين.

وعصر اليوم، بعد غدائنا عند جدتي، عدت مع أبي إلى السنبلاوين. وأخبرني أبي ونحن معًا في قطار الدلتا بأن شهادة نجاحي قد وصلت في اليوم التالي لسفري. وأن درجاتي بها عالية في علوم اللغة والدين خاصة،

وعلى غير عادته قبلنى راضياً عنى. وخيل إلىّ أن أبى كان يائساً منى، و... لم يعدل عن قراره إلا بسبب هذه الشهادة وحدها.

★★★

أتى حج أبى وجدى فى عام مضى، والمرض الذى بات ملازما لجدى إ... حجه، ونفاد ما كان جدى قد ادخره من عائد أرضه الصغيرة، ولم يبق ل... ولأبى كما يقول سوى غفران الله لما قدماه من ذنوب فى دنياهما عملاها أ... لم يعملاها. وصار واضحاً لى ولأبوى وجدى وزوجة جدى أن الجنيها... الخمسة عشر التى يتكلفها أبى لنفقاتى كل عام، فى مدينة الزقازيق، صار... أمراً مجهداً.

وضغطاً لكل أبواب النفقات قرر أبى وجدى، فالقرار كان لهما معاً ألا نذهب فى صيف عامنا لقضاء إجازة الصيف فى بيتنا وقريتنا. وراح بيتنا فى القرية وحنينى إليه يتخايل لرأسى طوال شهور الصيف فى أحلام نومى ويقظتى. ورحت أعبر فى نفسى لنفسى عن حنينى لهذا البيت، ورحيل أهله عنه فى مراثى الديار النثرية، أحملها بين جوانحى، ولعبى مع الزنابير والفراش، وأفراس النبى الخضراء المتقافزة بين الأشجار، وصيد السمك فى قناة الجربوع، وبركة الشعايرة والمصرف الكبير الذى يجرى بمياهه الآسنة صوب بحيرة المنزلة، والجرى حافياً على الجسور الطينية والمتربة، والنوم فى بيتى الخاص بين أغصان شجرتى على شاطئ ترعة اللظمية، وسهر الليالى على حواف حلقات الرجال الكبار مع غيرى من الصبيان فى مجالس الليل، أستمع إلى حكاياتهم عن الراحلين من الأهل وكأنهم لا يزالون أحياء بينهم، ونكاتهم المفاجئة والمحاذرة من جرح مشاعر الآخرين، أو على حواف حلقات النسوة المجتمعات للخبيز عن الرجال والأزواج المتعبين منهم والمريحين، ولعب الكرة الشراب بالرجل حيناً وباليد فى أغلب الأحيان. وصرت فى



عصارى الأيام وأضاحيها أزعق بها خطباً منفلوطية عصماء، بين قضبان قطار السكة الحديد خارج مدينة السنبلاوين، كما المراثى فى أشعار الرثاء الديار، وتذكر الأطلال، وصرت أدفع عن نفسى رغبة محرقة فى كتابة الخواطر الموجعة فى صحيفة الإصلاح بمدينة السنبلاوين، فقد يقرؤها أبى، ويقرؤها بدوره لجدى فأزيد جدى وجعاً على وجع.

كنا منذ انتقل بنا أبى من قريتنا إلى مدينة السنبلاوين قبل بدء الحرب العالمية بسنة نقضى الصيف كل عام فى بيتنا الكبير. نعيد ملأه بأنفاس أهله، وملء مقاعده العلوية بالطيور التى اعتادت أمى وزوجة جدى تربيتها على عجل، فى غرف المقاعد العلوية، والنوم جماعة على الحصير عدا أبى وأمى على سطح البيت فوق حوش البيت، أمام مقاعد السطح، ننظر إلى نجوم الليل، وقمر الليل فى أشكاله الليلية المتوالية والمتغيرة من ليلة إلى ليلة، ونتنسم نسمات هواء رطبة، تهب عابرة ومفاجئة. لكننا فى ذلك العام حرمنا من ذلك كله. وفقدت وإخوتى مباهج الحصاد فى الصيف، جمع القطن من أرضنا المزروعة بالمزارعة لأعمام أبى، ونفضه من قشره، وكبس القطن فى الأكياس الكبيرة بالأرجل، وقفزى وإخوتى من فوقها بعد امتلائها، ومراقبتها وهى توزن بميزان القبان، وهى تحمل على ظهور الجمال، ومشاهدة جدى وهو يقبض ثمن القطن المباع، وهو يسلمه لأبى، مسارعاً للخلاص منها.

لحظ جدى ما بى من حزن لبقائى بالسنبلاوين، وكان يخشى بوادر غضبى، خشيته لنوبات عزلتى، فراح يحاول ملء فراغ وقتى بمحادثتى، إلى أن اهتدى إلى ما ظنه ملئاً لفراغ ساعات من نهارات الأيام. راح يطلب منى أن أحدثه عن مدينة الزقازيق والمعهد الدينى وشيوخى ورفاق الطلب من المجاورين، فأحكى له بعضاً، وأحجز عنه الكثير منها، حتى لا يزل لسانى بحكاية ما عما أعيشه بمدينة الزقازيق من مفاسد تبدو لى صغيرة وهينة

وعبث صبية، وتبدو له كبيرة ومنذرة بالخطر، والوقوع فى الفواحش. وصا يصحبنى معه إلى صديقه العرضحالجى.

كنت أعجب لنفسى من نفسى لصبرى وحرصى على المراقبة والمشاهد. وكان بوسعى دائمًا أن أحكى لجدى وزوجة جدى فهما الأقرب إليّ عم شاهدته وسمعته، أزيد عليه أوصافًا لوجوه الناس وملابسهم وحركات الأيدى، بل أزيد عليها من عندى ما لم يكن ولم يحدث قط. حتى قال لى جدى ذات ليلة:

– ستكون واعظًا يا سليمان قادرًا على رواية قصص الأنبياء والأولياء فى المساجد الكبيرة.

وحدثنى فجأة حديثه المعاد عن الشيخ الزنكلونى الذى زار القرية، وألقى على الناس درسًا امتد ساعات فى تفسير آية واحدة عن أكل مال اليتيم. وعندئذ فوجئ جدى بى أصيح به غاضبًا فى حمق:

– لا أريد أن أكون واعظًا.

اكتأب جدى، وبان الهم على وجهه، وران عليه الصمت، وراح ينظر وهو يدخن إلى حجره، وهمس قائلا لى:

– ماذا تريد أن تكون؟

فقلت لفورى:

– لا أعرف. العلم عند الله.

فقال لى مستسلمًا:

– ونعم بالله.

وفى خاطرى تذكرت رفاق طفولتى بالقرية فى سنوات مضت، ذلك الولد الذى كان يخترع لنا الحكايات عن الجن والعفاريت والمردة وخطفهم للناس وركوبهم لأرواح الناس، ولكن لم يكن أبوه ولا أمه قارئًا ولا كاتبًا، ولم يكن



فى بيته مجلة ولا كتاب ولا جدة تحكى، ومات قبل عام واحد حاملا معه حكاياته وخرافاته كلها، وذاك الولد الذى كان قادرًا على رسم الوجوه والعيون خاصة بقلمه الرصاص، وبدرجات من الخطوط والرتوش والتظليل، وكان يعطيها لنا هدايا بالمجان، لنعلقها على الجدران فى بيوتنا، وجاء وقت صار فيه حلاقًا مثل عمه وأبيه فى دكان أبيه، وهجر التفنن بالقلم إلى التفنن فى حلق الرءوس. وعدت أكرر لجدى قولى زاعقًا:

– مش عارف. والله ما انا عارف.

ولم أكد أصمت. حتى قلت له كأننى أحدث نفسى:

– نفسى اقعد فى بلدنا واعيش فلاح.

فقال لى:

– فال الله ولا فالك. انت ما تعرفش لسه مر الفلاحين والفلاحة، ومقاومة الدودة وعيا البلهارسيا والدوسنتاريا والانكلستوما، فال الله ولا فالك.

ثم عاد إلى الصمت مرة أخرى، وعاد إلى الكلام مرة أخرى:

– لو كان عندنا أرض كبيرة كان ماشى يا ابو داوود. أرضنا دلوقتى حيكون نصيبك منها قراريط. وحتلاقى نفسك فى الآخر من عمال التراحيل انت وعيالك. عارف عامل التراحيل يعنى إيه؟

وسكت، ثم نهض عنى مفارقًا إلى حين. ورحت أفكر فى حال عمال التراحيل، وبنات عمال التراحيل الذين يعيشون بالقرية حول بركة. بل مستنقع على الأعرج، قرب طاحونة القرية بين قريتنا وكفر العنانية. وفى الليل انفردت بزوجة جدى زكية. فوق السطح. وقلت لها:

– احك لى.

(٣)

مضى الصيف وعدت إلى مدينة الزقازيق. سكنت بحى الحسينية مع آخرين، فى غرفة تحت مستوى أرض الشارع، مثلها مثل عتبة البيت، بين نافذتها ومستوى أرض الطريق نصف متر لا غير. كان لى، دون رفاق السكن، سرير موضوع تحت النافذة، وتحته كان حصير ممتد إلى الحائط المقابل لسريرى، وفوقه كانت مراتب رفاق السكن الثلاثة، التى تطوى بجانب الجدار فى النهار، وتفرد فى الليل عند النوم. وفى ركن الغرفة كانت المواعين ووابور الجاز والمكنسة الليفية، وبراد شاى، وكنكة قهوة تتسع لملء فنجانين.

كانت النافذة ذات مصاريع أربعة، وكان يطيب لى حين أكون وحيداً بالغرفة أن أفتح المصراعين التحتيين وحدهما لأرى الثلث الأوسط فقط من أجساد السائرين والسائرات، أو أفتح المصراعين العلويين من النافذة لأرى أثلاثهم العلوية، والسحنات الجانبية لوجوه السائرين والسائرات.

لا أدرى لماذا تصادف فى هذا السكن أن تكون أسماء رفاقى من أسماء العبادلة مثل اسم أبى: عبد الوهاب، عبد الحميد، عبد العزيز. كان هذا الأمر يستوقفنى.

اثنان من رفقة هذا السكن كانا من قرية قريبة من قريتى، كان أحدهما ابنًا لكاتب حسابات فى دائرة باشا إقطاعى أمىّ، أدخل كلا من أبنائه الأربعة، فى حزب من الأحزاب الأربعة التى تتداول الحكم فى مصر، ليضمن وجود واحد منهم دائمًا فى برلمان الحزب الذى يحكم مصر. ذلك هو: عبد الوهاب.



كان عبد الوهاب يعانى من أنيميا لابدة بجسمه، وساعياً للزواج من ابنة طحان فى حارة قريبة، تعرف به يومًا على المقهى، ودعاه الطحان يومًا إلى بيته، فصار يتردد عليه، مفتونًا بمنظر علبة الكراملة المفتوحة، يأخذ منها من شاء ما شاء لما شاء، وبعلبة كراملة أخرى مفتوحة، وممتلئة أبداً بقروش الوهبة فى المطحن وشلناتها، يأخذ منها من شاء ما شاء لما شاء. ولا تفتأ ابنة الطحان فى مخالسة عبد الوهاب النظر، وأمها تنهرها بنظرة عتاب راضية، وأبوها ينسج لها خيوط زواجها من عبد الوهاب على مهل.

كان عبد الوهاب فى الصف الثالث الثانوى بالمعهد، وكان يخطط للزواج من ابنة الطحان المقتدر، وأخذها معه إلى قريته، فسوف يكون كاتب حسابات مع أبيه بدائرة الباشا الأمى، وانتهى به الأمر، فى صيف ذلك العام، إلى إغراء الطحان وزوجته وابنتهما له، ليبقى معهم ويعيش معهم، ويعمل طحانًا مع الأب الطحان، فقروش الوهبة أعلى مما سوف يناله من الباشا، والناس لا يكفون أبداً عن طحن حبوبهم، وابنة البندر لا يليق بها سكنى الريف، والغربة بعيداً عن الأهل، لكن عبد الوهاب المصصوص الدم الضعيف المقاومة قضى على صدره غبار الدقيق شهراً بعد شهر.

والثانى كان ابنًا لخولى أنفار فى دائرة هذا الباشا، هوى الدروشة، وحاصرته الوسوسة، فصار يشك فى كل لحظة فى طهارته، أو فى كونه على وضوء، أو حتى فى أنه توضأ أصلا، فيسارع إلى الوضوء، تحت حنفية الحوض العطن، ويشك إثر كل رقدة فى طهارته، فيسارع ساعيًا إلى الاغتسال فى حمام من حمامات المعهد الدينى، حتى فى عز الشتاء، وشدة برودة الماء.

كان ذلك هو عبد العزيز، وكان طالبًا بالصف الثانى الثانوى، وانتهى به الأمر إلى العمل كاتبًا للحسابات فى دائرة الباشا، وظل عبد العزيز يسعى

إلى عمله بهدوء، إلى أن اجتاحته يومًا ثورة شباب أهل القرية من طلاب المدرسة الثانوية، ضد الباشا اليمينى الإقطاعى الرجعى، فحملته معها إلى مهاجمة قصر الباشا الإقطاعى ذات نهار، يقودهم اليسارى الثائر نجيب سرور الذى صار شاعراً وممثلا ومخرجًا وكاتب مسرح فيما بعد. ولم يعجل الباشا بالعقاب. انتظر حتى كانت ساعة الغروب فى أول رمضان، وانقض رجاله من حراس أملاكه المتنامية بكرابيجهم وأسلحتهم عليهم هم وأهلهم، وهم يتناولون الإفطار، ثم طردوهم فى ظلام الليل بعيداً عن القرية. وقيل لى إن عبد العزيز، انتهى به الأمر إلى أن يكون واحداً من قطاع الطرق، فى السنوات التى طغى فيها الإقطاعيون على الفلاحين فى ريف مصر.

وكان ثالثهم، بلدياتى، تشيع الصفرة فى بياض وجهه، تشى زرقة عينيه بأصول أجداده الفرنسية فى عهد حملة لويس التاسع على مصر، أو من زمن حملة بلدوين أو نابليون. كان ذلك هو عبد الحميد. ممعود العود كان، رقيق العظام، فائق الجمال والوسامة لو كانت به صحة وعافية. كان عاكفًا أبدًا على كتبه يذاكر بها، وظهره إلى الجدار، وركبتاه مطويتان إلى صدره، لا يقرأ شيئًا سواها، حريصًا على أن يغير قدره وقدر أبيه. كان أبوه متعدد الأعمال بالقرية. أحيانًا كان يشتغل "أبونيه" بين القرية وبندر المركز، يشترى للنساء والتجار الصغار حاجاتهم العاجلة من البندر. وأحيانًا كان يشتغل كاتب عرضحالات بجوار المركز، ويعود مع الليل فى آخر قطار من قطارات الدلتا. وكثيراً ما كان العملان يتداخلان. ونجح عبد الحميد فى التخرج من كلية الشريعة بالجامع الأزهر. ولم تتم فرحته، ولا فرحة أهله به، فقد ودع الدنيا فى القرية، وهو ينتظر تعيينه كواعظ أو كمدرس فى أواخر الخمسينيات، وكانت التعيينات فى مصر كلها موقوفة إثر حرب عام ١٩٥٦ إلى أن أعلن التأميم، وآلت ثروة الإقطاعيين إلى بيت المال.



وأمام غرفتنا المشتركة كانت غرفة مقابلة بيننا وبينها طرقة متربة، كانت غرفة المجاور عبد الرحمن. كان ابنًا لعمدة ثرى، كان وسيمًا فارع الطول، المقار الوجه شقرة تميل إلى السمرة. كنا نراه أبدًا يدخل إلى غرفته، ويخرج من غرفته فى جلباب إفرنجى بياقة وكمين ببزارين من الحرير الأبيض، وكان شعره أسود فاحمًا غزيراً وناعمًا، يحرص أبدًا على جعله ملتفًا حول بعضه بعضًا، ذا "غُرَّة" تتوج جبينه. وكانت له سن فى جانب شدقه، يرى بها خفيف الدم، خاصة حين يبتسم أو يضحك بعنوبة تكاد تكون أنثوية.

على تحفظنا معه، كان هو عشَريًا، مقتحمًا للغير من حوله بظرف ولطف. يطرق بابنا أحيانًا للتعارف، وأحيانًا لتأكيد التعارف، وأحيانًا للمودة من جار لجار، وأحيانًا ليشرب معنا شايًا. وفى كل مرة، كان يوزع عليَّ وعلى عبد الوهاب السجائر المكنة يخرجها لنا من علبة معدنية أسطوانية فاخرة، أو سجائر ملفوفة بورق البافرة، من أعقاب السجائر التى يدخنها، ولم تكن فلاتر السجائر قد وجدت بعد. كان يحتفظ بالأعقاب، من سجائره هو وحدها، عُقبًا بعد عقب، طلبًا لنظافتها ولخصوصيتها بفمه هو، لوقت الحاجة إليها، حين لا يجد سجائر فى قلب الليل، وحين يكسل عن الخروج من غرفته لشراء السجائر المكنة، كان بالغ الشره للتدخين. وكان يقول لنا وهو يقدم لنا سجائره اللف:

– اشربوا اشربوا. دى أجمل ألف مرة من السجاير المكنة، وطعمها يا سلام عليه. معتّق آخر مزاج.

★★★

كان صاحب البيت تمورجيًا بمستشفى الأمراض السرية بمدينة الزقازيق. وكان البيت معروفًا فى الحى باسمه هو لا باسم زوجته زينب، رثه عن أبيه الذى كان تمورجيًا من قبله بالمستشفى نفسه. وكانت زوجته

زينب جميلة جمالا تركيًا فائقًا، بيضاوية الوجه بارزة الوجنات، أسيلة الخدين كما يقولون. كنا نراها أحيانًا خطفًا. وحين ترى أحدًا منا، تسارع بالاختباء فى غرفتها المظلمة فى عز النهار، ترى من فى البيت والباب مفتوح ولا يرونها. فلا نافذة بالغرفة، وكان بابها مجاورًا لغرفة مغلقة الباب دائمًا، إلا حين يعقد بها صاحب البيت سهرة لأصحابه لشرب الحشيش، ولم يكن يدع إليها من بين سكان الغرف سوى عبد الرحمن.

كان رفيقى فى الغرفة: عبد الوهاب وعبد العزيز قد سكنا قبلا فى البيت نفسه، فى العام الذى سبق فى شقة من غرفتين وصالة على سطح البيت. ولأن إيجارها كان جنيهًا ونصف الجنيه، ولأن شريكيهما فى الشقة، لم يأتيا للسكنى بها معهما مناصفة فى الإيجار، أثرا اختيار الغرفة التى نسكنها، وضما إليهما شخصى وعبد الحميد. وعاد عبد الرحمن ليسكن فى الغرفة المقابلة، الغرفة نفسها التى كان يسكنها وحده فى العام الذى مضى، بالقرب من زينب ابنة الظلام.

أكد لنا عبد الوهاب وهو يستغفر الله ويطلب مسامحته مما سيقوله:

– الست زينب زوجة صاحب البيت كانت إحدى المترددات على المستشفى السرية، ووصلت بها المتاعب الصحية إلى درجة صارت معها بلا رحم. واختارها زوجها عبده لتكون له زوجة، وسترها فتابت على يديه. واختارت العيش فى غرفة مظلمة، لا ترى فيها أحدًا من السكان، ولا الجيران، ولا تخرج من البيت. تنتظر وحدها فى قلب الظلام عودة زوجها فى قلب الليل.

ولم أفهم سببًا لما قاله عن زوجة صاحب البيت، استدرجت عبد العزيز ذات ايلة، وكنا وحدنا فى الغرفة، وكانت ثمة حلقة ذكر أقامها المجاورون فى الحارة، فروى لى حادثة عجيبة. جرت بينه هو وعبد الوهاب من جهة وعبد الرحمن من جهة أخرى.



فى العام الذى مضى، كان عبد العزيز عائدًا مع عبد الوهاب من المعهد، وقد اقتربت صلاة العصر، وقبل صعودهما سلم البيت، رأيا فى ظلام غرفة الست زينب، والباب مفتوح، عبد الرحمن معها على كنبة، وهما فى فعل فاضح. وهاج عبد الوهاب، وزعق وسب، واتهم الاثنين بالفجور، وسارع بصعود السلم، وعاد بمقشة ليف ذات يد خشبية، ليضرب عبد الرحمن بها.

واستعاذ عبد العزيز بالله وهو يكمل لى ما جرى. قال:

– عبد الرحمن ابن حرام. طوى عبد الوهاب والمقشة معه، تحت باطه، وحين تدخلت لنجدة عبد الوهاب من يده، طوانى تحت باطه الآخر، وضرب رأس أحدنا برأس الآخر. وهددنا بالطرد من البيت، واتهامنا فى البوليس بتهمة القذف دون دليل.

ثم قال عبد العزيز وكأنه سيبكى:

– من يقدر على عبد الرحمن. لا يقدر عليه أحد سوى الموت.

وأضاف:

– كل ليلة كان عبد الرحمن يسهر مع الزوج فى الغرفة المغلقة الباب وتدور الجوزة بينهما معمرة بالحشيش، والست زينب تتولى التعمير وتشارك الاثنين فى شد الأنفاس، واللى مش عاجبه البيت يمشى من البيت.

رحت أتعجب مما يقوله عبد العزيز. وأدرك عبد العزيز ما أفكر فيه، فقال لى:

– جوز الست زينب بطل حشيش. وعبد الرحمن وقف علاقته بزينب، وجوزها انحال ع المعاش وقاعد معاها زى ما انت شايف ليل نهار.

★★★

اكتشف زملائى الثلاثة فى السكن، وكان غرفة واحدة مقبضة، كما البيت والحارة والحى، مهارتى فى لف العمامة، وحبكها، وسبكها، وقلوظتها، وسبسبة شراريبها بمهارة.

أحاط رفاق السكن بى، لألف لهم عمائمهم ضحى كل يوم جمعة، ليذهبوا بها متأنقين لصلاة الجمعة، والمشى بعياقة إلى المعهد، والعودة منه فى أيام الأسبوع الأخرى. كنت أعممها لهم على ركبتى لوجه الله، فهم رفقة السكن، والفول والطعمية والصلصة المبهَّرة المثوَّمة والكشرى والسردين والأنشوجة والبيض والبصل الأخضر، وحلقات الذكر بالحارَة، فى الليالى الحارَّة.

وذاع وشاع خبر معلْمتى فى لف العمائم على اختلافها ضيقًا وسعة، وخامات شيلان طيبة أو رديئة، شالات من الحرير كانت أو من السكروتة أو الدبلان الأبيض أو حتى من الدمور أو الشاش الرخيص. وصاروا يقفون بالحارة على باب البيت فى انتظار دورهم. وهؤلاء كان عليّ أن أرزأهم فى الكثير أسبوعيًا من مالهم. قرش صاغ واحد عن كل عمامة نقدًا أو دينًا، أو أعزم نفسى عندهم على الغداء فجأة مما حضر دون دعوة كما أشعب، سدادًا للدين حين يخلو منى الجيب.

أتاح لى ذلك فرصة التدخين لسجائر السفير والكلوب والفيل. كان السبع سجائر منها بقرش واحد، والجولد فلاك الحادة المذاق الثقيلة النيكوتين التى تشتريها الزوجات لأزواجهن فى ليالى غناء أم كلثوم. وكنت أقول لنفسي: "هم علمونى التدخين، سامحهم الله، وعليهم أن يدفعوا الثمن."

★★★

أحببت رفقة السكن هؤلاء لبضعة شهور. ولم يتوقف حبى لهم إلا حين رأيت كراهيتهم لى، ربما بسبب سريرى وحصيرهم، وربما بسبب صياعتى ومرحى ولهوى وشقاوتى، وفرحى بأننى حى، وربما بسبب قدرتى على الكسب بتعميم العمائم، ونسخ المذكرات للطلاب، وربما بسبب أننى ابن بندر آخر، وأبى سكرتير مدرسة يرسل إليّ كل شهر مائة وخمسين قرشًا بالتمام والكمال.



فى شهور المودة الظاهرة لى، والضيق بى المكتوم فى الصدور، كنا نتحدث معًا، ونأكل معًا، وننام معًا. أنام على سريرى، وينامون على حصيرهم، وفى شهور الحب أمنت لهم حين مرضونى من أنفلونزا حادة، وجاءوا لى بدوائى، وكان الدواء عشوة سردين جيد مملح من سوق الثلاثاء الأسبوعى، وحزمة حراقة من البصل الأخضر، وصنعوا لى شايًا صعيديًا مزرودًا، وغطونى بحرَام ثقيل شبع قبلى من عرق النائمين. وفى الصباح كانت الأنفلونزا قد ولت. وأحببتهم حين شاركتهم بين ليلة وأخرى فى حلقات الذكر الصيفية مع المجاورين بالحى، وحى. الله حى، إلى أن يقترب الفجر، ويذهب بعضنا إلى حصرهم، وبعضنا إلى المسجد لصلاة الفجر، وأحببتهم حين كان عبد الوهاب يصحبنى معه إلى بيت الطحان، وأجلس معه على المصطبة، فى غرفة المصطبة ذات الفرن والبحراية، وأشرب الشاى، وأجذب أنفاس الجوزة الدائرة بين الأيدى، يحلق دخانها فوق مصطبة القاعة، وبحرايتها، وفرنها الخامد، وأروح أراقب النظرات الفقيرة الودودة المختلسة بين عبد الوهاب وليلاه، ومذاق الكراملة فى فمى.

وتوددت إليّ رفقة السكن ذات يوم، فأطبقت سريرى الحديدى، وركنته خارج الغرفة، وصرت أنام معهم على الحصير المبسوط من الجدار إلى الجدار، وألف لهم شيلان عمائمهم مجانًا، وأعير شال عمامتى الحريرى الأبيض لمن يكون عنده مناسبة منهم، لزيارة ليلى من الليلات، أو حضور عرس، أو زيارة شيخ جليل من شيوخ معهدنا.

لكن شهور الود والحب انتهت فجأة، حين وقعت فريسة فى يد طالب مجاور كان معروفًا بإقراضه الطلاب بالربا، أخطأت ورهنت عنده الشالين الوحيدين لعمامتى. وطويت عمامتى حمراء عارية على زرها الأزرق، وأخفيتها تحت المرتبة، وتجنبت الذهاب إلى المعهد.

★★★

عصر يوم شتوى، فاجأنى عبد الوهاب بقوله لى فى براءة وهدوء، كأنه لا يضمر شيئًا آخر:

– هات شال عمتك، ولف لى به عمتى.

طب قلبى وغار فى قدمىّ. أيقنت أنا الصبى أن كارثة سوف تقع فوق رأسى، من رفقة السكن، وأدركت أن عبد الحميد بلدياتى ورفيقى فى السكن، لا يزال فى الصف الابتدائى الأول، ولا يزال هش العود، وأننى وحيد فى مواجهة عبد الوهاب وبلدياته عبد العزيز، وكلاهما بصف أعلى منى، ولهما بحق السن والقوة ورفعة الصف تأديب صغار المجاورين ممن يسكنون معهم. كان ذلك هو العرف فى مساكن المجاورين، وعلى الصغار السمع والطاعة، والخدمة أيضًا.

لزمت الصمت برهة، وقلت لعبد الوهاب:

– لا.

فنظر لى قائلا:

– ليه؟

تهربت قائلا:

– ضيعت الشالين. بعت الشالين. أنا حر.

فزام ساخرًا:

– هم. حر. طيب حاوريك ازاى تبقى حر.

والتفت إلى عبد العزيز، وقال له آمرًا:

– روح ترعة أبو حسين، وهات لى نقْز نقاوة أخضر طويل ومليان من شجرة.

تردد عبد العزيز لحظة، وقال لعبد الوهاب:

– طيب ماشى. بس أفهم الأول السبب. إيه اللى حصل؟



وانتهز عبد الحميد الفرصة للدفاع عن ابن بلده، فقال بضعف شديد:

– واحد وباع شيلانه فيها إيه يعنى.

فنهره عبد الوهاب قائلا:

– انت تسكت خالص. يا تسيب السكن معانا، وتشوف لك سكن تانى.

غمرنى الكسوف، وأدركت أن ما يحدث الآن سيرويه عبد الحميد فى القرية، وسوف يصل إلى الأعمام وأبناء الأعمام. وقال عبد الوهاب لعبد العزيز:

– حضرة الشيخ يا باشا، رهن شالين عمته عند الولد المجاور المرابى اللى مارضيش حد يسكن معاه، ولا يقعد حتى جنبه فى تخته.

وبهت عبد العزيز وزاد الطين بلة، فقال:

– يا نهار اسود. رهنهم بالربا؟

والتفت نحوى قائلا:

– يعنى ذنبك زى ذنبه. فى النار وبئس القرار. فعلا لازم تاخد علقة، ونطردك من السكن معانا.

وغادر الحجرة مسرعًا ليأتى بالنقز. قلت متشجعًا لأهرب من الموقف والعلقة معًا:

– حاسيب السكن وآخد عفشى. أشوف لى سكن الأول مع حد تانى.

فقال لى عبد الوهاب بعزم:

– مش حتخرج من هنا إلا بعد ما تاخد العلقة الأول، واللى ما يعرفش يعرف.

قال عبد الحميد برفق لعبد الوهاب:

– مين اللى قال لك على الحكاية دى؟

فقال له عبد الوهاب مشوحًا بيده بقرف:

- الواد المرابى نفسه. خدنى على جنب، وقال لى. وقال لى كمان.. يجيب الخمسين قرش وفوايدها عن شهرين مش شهر. وياخد الشالين.

فتعجب عبد الحميد، وقال:

- يعنى شهد على نفسه إنه مرابى.

فقال عبد الوهاب:

- أيوه يا عبد الحميد. احنا فى بلدياتك مش فى المرابى.

كلمة بلدياتك فورت دمى، وأخزت عبد الحميد، فأطرق برأسه ناظراً إلى الأرض، ثم رفعها، وقال لى:

- الفايدة كام؟

فأجابه عبد الوهاب:

- عشرين فى المية عن كل شهر ياابن الناس.

نهض عبد الحميد وأخرج من جيب كاكولته محفظته وعد منها سبع برايز، وقدمها لى قائلا:

- خدها وادفعها له دلوقتى وهات شالينك.

اعترض عبد الوهاب، وقال بحزم لعبد الحميد:

- لازم ياخد العلقة الأول واطرده شر طردة من البيت.

جلست بهدوء، وقد عزمت أمراً. وجلس عبد الوهاب، وظل عبد الحميد واقفاً يفكر. ثم قال:

- روقوا بالكم، ووحدوا الله. حاعمل لكم شاى.

انتهزتها فرصة، واتجهت إلى براد الشاى قائلا:

- أنا حاعمل الشاى يا عبد الحميد. اقعد انت.

وجلس عبد الحميد، ورحت أغلى ماء البراد على وابور الجاز، وانتهزت الفرصة، فسحبت سكيناً وأخفيته فى سيالة جيبى.



قبل أن أضع الشاى فى الماء الذى يغلى، دخل عبد العزيز الغرفة حاملا العزّا هذب عقده فى الطريق بأسنانه، فصار مثل الخرزانة الملدنة، وهو يقول لعبد الوهاب:

- سيبهولى أنا ما تتعبش نفسك. أنا حاربيه بايدى. انت بس تأمر. ولما تقول لى بطل حابطل.

ونفخ فى يده كأنه يبصق بها، وكنت واقفاً بانتظاره وظهرى إلى الجدار، وفى يدى سكين. التفت فجأة. قلت لعبد العزيز شاهراً سكينى فى وجهه:

- جرب وانا حاسيح دمك ودمه.

فى تلك اللحظة، كما فى أفلام السينما، دخل الغرفة جارنا عبد الرحمن. كان يسكن وحده فى الغرفة المقابلة لنا، ووجدناه يقف بيننا قائلا وهو يضحك:

- يُه يُه يُه. أكيد اتجننتم والسبب هايف.

وركبت نزعة العنف عبد العزيز لضربى برغم السكين فى يدى، فقبض عبد الرحمن على يده، ونزع بيده الأخرى العصا منه، وقال لى:

- ادينى السكينة دى.

ناولته إياها طائعًا بهدوء. كان وحده قادراً على ضربنا نحن الأربعة. وسأل عبد الرحمن وهو يجلس:

- المية بتغلى فى البراد. مين كان بيعمل الشاى؟

قلت:

- أنا.

ضحك وقال:

- يعنى وانتو بتشربوا الشاى تضربوا بعض. الشاى زى العيش والملح. صلحة يعنى.

وحتى لا أقدم الشاى لعبد الوهاب ولا لعبد العزيز، وضعت الأكواب على صينية الشاى، وحططتها فى وسط المجلس. قال عبد الرحمن ضاحكًا وهو يسحب كوبه:

– ما فيش كلام إلا بعد ما تهدا النفوس، ونشرب الشاى.

حين أعدنا أكوابنا فارغة إلى الصينية أخرج عبد الرحمن علبة سجائره الفضية، وفتحها، وناولنى سيجارة من تحت استكها بيده، ثم قدم العلبة للآخرين، وامتنع عبد الحميد وعبد العزيز عن التدخين.

وقال عبد الرحمن لعبد الوهاب:

– احكى لى بقى. إيه سبب الخناقة؟

حين انتهى عبد الوهاب من الكلام. أطرق عبد الرحمن لحظة. ثم قال لى بهدوء، ربما ليأخذ بثأر سابق من عبد الوهاب:

– تفتكر ليه عبد الوهاب وعبد العزيز زعلانين، وانت حر فى السلف، وفى الشالين؟

زعق عبد العزيز:

– يا خرابى. بالفايظ.

فقال له عبد الرحمن بهدوء:

– لا انت ولا أنا قاضى. ولا احنا القانون ولا الحكومة. والناس كلها بتشتغل بالفايظ على عينك يا تاجر. العيب مش على اللى خد بالفايظ. العيب على اللى بيسلف بالفايظ، اللى بيستلف مضطر. والضرورة لها أحكام، تسمح حتى باكل الميتة عند الجوع.

ولم ينتظر ردًا من أحد فقد التفت إلىّ قائلا:

– ما قلتليش. ليه الشيخ عبد الوهاب زعلان؟

نظرت لعبد الوهاب قائلا:



– أقول يا كبيرنا. والا اخلى الطابق مستور؟

فقال عبد الوهاب متحديًا لى:

– حتقول ايه يعنى. كفاية كسفتك.

استفزنى. فقلت لعبد الرحمن موريًا:

– السبب يا سيدى ليلى.

فضحك عبد الرحمن، وقال:

– ليلى؟ وما دخل ليلى بالشيخ عبد الوهاب؟ مين ليلى؟

فقلت:

– ليلى بنت الطحان. ليلاه يعنى. ما اعرفش اسمها.

فقال عبد الرحمن ضاحكًا، وقد فهم الموقف:

– فهمت. كان عايز منك الشال الحرير، وتعمم له عمته. قلت له إنك رهنت الشال.

قلت له:

– لو كان عندى الشال وكان عايزه خالص منى، كنت اديته له هدية.

نظر عبد الرحمن قائلا بلوم لعبد الوهاب:

– شايف الحب والمجدعة.

فقال عبد الوهاب مصممًا:

– لازم ينقل من هنا والليلة.

فنهض عبد الرحمن واقفًا، وقال مغاضبًا:

– ماشى يا ابن الأكرمين ماشى.

مد يده إلىّ فنهضت معه. وقال عبد الرحمن لى:

– انت ضيفى الليلة لحد ما نشوف لك سكن بنفسى.

وقبل أن يعبر الباب، قال ضاحكًا لمن أتركهم ورائى تلك الليلة:

– بذمتكم مش انفع عمدة. أنا أصلى بادرّب نفسى معاكم ازاى أبقى عمدة بعد أبويا طال عمره. أنفع؟

ولم ينتظر رداً وذهبت معه إلى غرفته. وجاءنى عبد الحميد بأشيائى الصغيرة العاجلة. وارتديت عند عبد الرحمن ثياب الخروج، صحبنى عبد الرحمن إلى صاحبة بيت وحيدة بكفر الحريرى، واتفق معها على السكن عندها من غدى. ودخلت السينما على حسابه حفلة عشرة، وبعد السينما مال بى عبد الرحمن إلى مقهى البوسفور بميدان المحطة. ورحنا نلعب الشطرنج. وقال لى عبد الرحمن بعتاب:

– لما عايز سلف يا سليمان ما سألتنيش ليه؟

قلت له السبب، وكيف أنه كان عاجلا بالنسبة لى ولا وقت معى للتفكير، وهو فى كل لحظة يقول لى بدهشة وأنا أحكى: لأ.. لأ..لأ..لأ.. وحين انتهيت فكر لحظة، ثم قال معزياً نفسه معلقاً على ما قلت:

– بتحصل. بتحصل. وياما بيحصل. كل الروس واحدة. لبست طربوش. لبست لاسة. لبست عمة. مشيت عريانة. ونفس وما سواها.

كان ما حكيته لعبد الرحمن عن مجاور قصير جداً، نحيل جداً، قبيح جداً، يجلس على الدرج المجاور لدرجى بالفصل. جاءنى يوماً بالمقهى، وجلس صامتاً، ثم باح لى بأن رفيقه المجاور فى السكن، راوده عن نفسه، وهاجمه، فهجر السكنى معه. صدمه أنه مجاور يدرس الدين، وأن زميله فى السكن على وشك دخول الكلية فى العام التالى. ومن أجله عجلت بالسلف حتى من مجاور مراب. وفى اليوم نفسه أسكنته وحده، فى غرفة خالية على سطح بيت بحى الحسينية.

قال لى عبد الرحمن وهو يضع جنبه على سريره:

– لو قلت لعبد الوهاب ما كانش حيصدقك. فيه ناس قلوبها حجر.



وفوجئت بعبد الرحمن يبكى وينتفض. وكأنه كان يبكيه قبل هجره للدنيا، فبعد أسبوع واحد، بعد محادثتى مع عبد الرحمن، جاءنى خبر وفاة المجاور الذى راوده مجاور شقى عن نفسه.

★★★

لم أكن أعرف من الرياضيات منذ دخلت المعهد الدينى سوى علم الحساب. ولذلك فوجئت بين الكتب التى سلمت لى بكتاب فى علم جديد علىّ هو علم الجبر، قلبت الكتاب. حاولت أن أفهمه وحدى فلم أفهم فيه شيئاً. ولذلك حرصت على حضور درسه، وتوقعت أن يكون مدرسه لنا أفندياً مطربشاً، فأنى لشيخ معمم أن يدرس مثل هذا العلم، أو يفك طلاسم هذه الرموز.

فى حصة الجبر دخل علينا الفصل شيخ، بدا لى نصف شيخ ونصف ابن بلد. كان يرتدى عمامة نعم، لكنه كان يرتدى تحتها جلباباً من الكشمير فوق صدار. وعلى الجانبين كانت فتحتان بالجلباب ليس لهما جيب. وعجبنا له. ورحنا نتهامس لأن شيخاً معمماً، أو حتى نصف شيخ، يعرف علم الجبر، ويدرسه. وجعلنى زيه أعتقد أنه مجلوب لتدريس هذه المادة التى تعتمد على رموز، وتحل بها أى عمليات حسابية أو هندسية، وأنه ليس شيخاً حقيقياً. وأسميته بينى وبين نفسى الشيخ: عُقد.

كان يظهر مع حصص الحساب والجبر والهندسة، ويختفى إثرها من المعهد كله، فلم نكن نراه بعدها فى غرفة المدرسين، ولا طرقات المعهد، ولا حديقة من حديقتيه، ولا ساحة من ساحاته. وكانت له كلمات ملازمة، وعادات ملازمة إثر دخوله الفصل. كان يقول لنا ساخراً مزدرياً ومحطماً:

– انتم طلبة علم انتم. انتم ما تنفعوش إلا تسرحوا بعربية جاز، أو تشتغلوا شيالين فى السكة الحديد، أو.. أو..

ويظل يقرِّع ويزدرى حتى يهمد. وقبل أن يبدأ درسه بالطباشيرة على السبورة العالية الواسعة بعرض الحائط يدس يسراه فى جيبه، ثم يخرجها ويشمها، ويبدو على وجهه الاشمئزاز. ويبدأ درسه عن السينات أس واحد والسينات أس اثنين والصادات والعينات، ونحن نحاول أن نفهم عمليات الجمع والطرح والضرب والقسمة الجبرية برموزها، ولم ندرس معها معادلة واحدة قط، حتى معادلات الدرجة الأولى.

وفى نهاية الدرس يغادر الفصل ويختفى، كأنه فص ملح وذاب.

★★★

بت ضيق الصدر بعمامتى وبعمائم الآخرين. واكتشفت طريقًا سهلا لأثبت نفسى حاضراً فى كل الدروس فى كل الأيام على مدار الشهور. كنت أتنازل للملاحظ، حامل كشوف الحضور والغياب عن جرايتى، وكانت خمسة وعشرين قرشًا كل شهر، كى لا يؤشر بعلامة إكس أمام اسمى فى كشف أسماء الحضور اليومى. وبذلك تحررت من عمامتى، ورحت أقضى ساعات الصبح والعصر عارى الرأس بمكتبة البلدية على بحر مويس، أو الجلوس على مقهى البوسفور، بميدان المحطة، ومشاهدة السابلة، والسيارات وعربات الكارو، وسماع غناء الباعة المتجولين. ولا أضع العمامة على رأسى إلا حين اضطرارى للذهاب إلى المعهد أو القيام بنزهة خاصة.

لم أكن فى هذه الحال وحدى، فقد كانت هناك قلة متمردة من طلاب المعهد، ولغير سبب، إلا لما هو فى طبائعهم التى خلقهم الله عليها. كانوا متمردين مثلى على العمامة، وكتب الأزهر التراثية الصفراء الأوراق، الملتفة الصياغات التفافات مشوشة.

بدأ تمردى حقًا على ما أذكر حين تدحرج منى شلن، وجرى أمامى على الأرض المسفلتة بشارع عباس، ودار وانعطف، واهتز أعلى وأسفل حتى



استقر ساكنًا. وحين هممت بالتقاطه، رأيت أمامى ثلاث فتيات متفرنجات سافرات. بدا لى أنهن طالبات، فى زيهن الأزرق المتشابه. توقفت عن الانحناء للحظة خجلا منهن، فعلى رأسى عمامة. ولم تطل اللحظة، فقد واصلت سيرى، مستغنيًا عن الشلن، والتفت نحو الشلن بعد عدة خطوات، لأطمئن على مكانه كى أعود إليه بعد أن يبتعدن. رأيت إحداهن تنهض واقفة من انحنائها على الأرض، وفى يدها الشلن، ورحن يضحكن، وهن ينظرن إلىّ، ربما ليعطينه لى. لكننى أسرعت الخطا هاربًا إلى المقهى.

فى ذلك اليوم استقر عزمى على خلع الكاكولة والعمامة، ولبس البدلة مثل طلاب المدارس، ووجدت نفسى مشاركًا مع الطلاب الآبقين مثلى، الثائرين على العمامة. كان لبعضنا من أبناء العمد والأعيان والقرى والبنادر بدل. بل وساعات فضية يديرونها بأصابعهم، وحاولوا دخول المعهد ببدلهم، ونجح بعضهم فى الوصول إلى الفصول، لكنهم سرعان ما طردوا، بل وعوقبوا بالحرمان من الدراسة أسبوعًا، فأسبوعين، حين تكررت المحاولة، فشهرين. وليس بعدهما إلا الحرمان من الامتحان نفسه عامًا كاملا.

لم يكن هناك لذلك قانون مكتوب، ولا بند فى لائحة لدى شيخ المعهد. كان شيخ المعهد نفسه هو الذى يقرر العقاب الذى يراه. وكان شيوخ الضبط والربط والسكن فى القسمين الابتدائى والثانوى يطاردون من يرونه مرتديًا البدلة عارى الرأس، فى أوقات الدراسة، فى ساحة المعهد الكبرى، وساحاته أو مجازاته الثلاث الصغرى، بين أجنحة المعهد، حتى فى مسجد المعهد نفسه، وساحته الممتدة الأخرى أمام الحمامات والمطعم بعرض المعهد، ويطردونهم طرداً من المعهد كله، أو من السكن الداخلى إذا كانوا من طلابه. ولعلى كنت أقلهم أذى، فلا بدلة لدى ولا طربوش. وكل محاولاتى لإقناع أبى فى رسائلى إليه بالحصول على بدلة، حتى بدون طربوش ذهبت سدى.

★★★

على غير توقع، حدث ما جعلنى أذهب إلى المعهد بين يوم وآخر، لحضر دروس بعينها فى النحو، لشيخ لنا جديد، قال زملائى لى إنه رجل متنو وابن العصر حقًا، ويرى أن العمامة ليست من لوازم الدروس الدينية، و، الكواكيل، مع أنهم لا يرونه بالمعهد إلا فى كاكولته المحبوكة الأنيقة، وعمامته المصفوفة الشراريب.

رأيته أول حصة لى بدرسه، وعلى رأسه عمامته. وحين نظر إلى رءوس مَن فى الفصل فى أول الدرس، توقفت عيناه عندى. وقال لى:

– قف.

وقفت. قال لى:

– لم أرك فى هذا الفصل فى حصص سابقة.

لزمت الصمت. فسألنى سؤالا عاديًا فى النحو لا لغز فى جملته، ولا فزورة إعرابية. عجزت عن الجواب. كانت إحدى آفاتى أننى أنسى فجأة، وأتذكر فجأة، فلا ضابط لى ولا رابط. فقال لى بهدوء:

– اجلس.

وبدأ درسه البديع فى النحو، عن ركنى الجملة العربية بمصطلحات جديدة علىّ، كمسند ومسند إليه، أو محكوم به ومحكوم عليه، أو موضوع ومحمول، هما، كما قال أساس النحو كله. وحين انتهى الدرس، أشار إلى فتبعته. خارج الفصل قال لى:

– لى مجلس يومى فى حديقة المعهد. مع عدد من طلابى يعدون على أصابع اليد. تعال معهم بعد انتهاء الدراسة.

وتركنى ومضى. ولم أعرف أن تعرفى به سيفتح لى صفحة جديدة فى حياتى كلها، مع العمامة على الأقل.

سبقت الكل فى الوصول إلى حديقتىْ المعهد الدينى. كانت الحديقتان لصيقتين بالسور الحديدى المعشّب بالشجيرات، والبوابات الحديدية الثلاث.



لم أر بهما أحدًا من قبل، حتى ولا الجناينى. سألت عم مرسى البواب، عن أى الحديقتين يجلس فيها الشيخ أحمد الشرباصى مع الطلاب. أشار لى بيده إلى الحديقة المقابلة.

اجتزت بابها القصير الدوار، المفرّج العوارض، ورأيت بها أريكتين متقابلتين خضراوين، تعلوه خميلة من الشجيرات المزهرة بشتى الألوان. سرت نحوها وجلست وحيدًا أفكر فى هذا الشيخ الشاب. أقبل الشيخ العايق فوقفت له. فأشار إلىّ ضاحكًا، وهو يقول لى:

– لا تقوموا لرؤسائكم كما تقوم الأعاجم.

راقتنى فكاهته الجادة، وفوجئت به يفرش منديلا كبيرًا على الأرض، ويجلس فوقه قائلا:

– البساط أحمدى.

نزلت عن الأريكة وجلست بمقابله على الحشيش. فتح الشيخ حقيبته، وأخرج منها صحيفة: الإصلاح. كانت إحدى الصحف الإقليمية الحرة التى كانت تصدر بمديريات مصر. قلب الشيخ الصفحات وتوقف بها عند عمود به رسالة حب لى يحمل آخره اسمى الأول ولقبى. قال لى:

– أنت كاتب هذا العمود؟

ترددت للحظة، واعترفت بأنى كاتبه. كان العنوان: رسالة حب إلى...

قال لى الشيخ:

– أهذا هو اسمها أم هو اسم مستعار؟

قلت بخجل:

– هو اسمها.

قال لى:

– جارتك هى وحبك الأول؟.

أومأت برأسى. فقال لى ضاحكًا:

– لا تشهِّر باسم حبيبتك مثلما فعل قيس بليلاه، وكانت النتيجة هى زواجها بورد، فتركته يقول فيها شعراً، ولو تزوجته لتوقف شعره فيها ونُسى اسمها واسمه وقصة حبهما.

وضحك أكثر. وقبل أن أفكر فيما يقوله. قال:

– أنت غير مؤهل للزواج، وإعالة زوجة إلا بعد عشرين سنة. حبها على راحتك. وتعفف عن ذكر اسمها. حسبك منها معنى الحب.

فكرت أنه مثل جراح القلوب فى ردوده على رسائل المحبين فى المجلات المصورة، مثل مجلتى الاثنين ومسامرات الجيب. عاجلنى بقوله، وكأنه يحدث نفسه:

– هكذا الأدباء لا يحسنون النحو فى البداية. تشغلهم الكلمات والتراكيب والصور والمعانى عن ضبط أواخر الكلمات. ولو أنصف النحاة مع أنفسهم، لسكنوا أواخرها، ووحدوا حروفها الإعرابية كما يتحدثون، وكتبوا الهمزة كما ينطقونها. ونطقوا القافات مهموزة كما كان ينطقها بنو تميم، ومعظمهم سكن أرض مصر فى عهد عمر بن الخطاب. لكن المشكلة ستكون فى أنه ستصبح لدينا لغتان: لغة تراثية معربة، ولغة عربية مستحدثة مسكنة.

وتنهد ثم التفت لى قائلا:

– ما علينا. الزمن سيحسم ما لا يحسمه الناس. ماذا تنوى أن تكتب فى المستقبل؟ مقالا؟ أم قصصاً أم...؟

قلت له:

– حتى الآن لا أعرف. لا أعرف حقًا إذا كنت سأصير كاتبًا أم مدرسًا أم واعظًا. أنا أقرأ فقط. وأكتب أحيانًا تنفيسًا عن عواطفى لا غير.

مد يده فى حقيبته المفتوحة، وأخرج منها صحيفة أخبار دمياط، وأرانى ما كتبه بها. كان عنوان مقاله سياسيًا. وقال لى:



– أتعرف أن صحف الأقاليم أفضل حظًا من صحف العاصمتين: القاهرة والإسكندرية. أتعرف لِمَ؟

لم ينتظر منى جوابًا أنا عاجز عنه، فلا أعرف أنا الجهول عما يتحدث بالتحديد. قال لى:

– هناك رقابات وأحزاب وملك وإنجليز وصراعات وقضايا. شكل ديمقراطى مليء بالعيوب والثغرات، وإقطاعيون يمولون الصحف لرعاية مصالحهم. هنا، فى الأقاليم لا شيء سوى الضبط والربط للأمن. وقراء صحف الأقاليم أكثرهم مشتركون، وكتابها كتاب بلا أجر، يكتبون خواطرهم، ويحلمون بأن يكونوا كتابًا فى مصر المحروسة، وينشرون فى صحف وكتب القاهرة ومجلاتها، وهنا رؤساء تحرير يخيفون المديرية بالحديث عن مصالح الناس المؤجلة.

وسكت لحظة ثم قال لى:

– ما قراءاتك المفضلة؟

قلت:

– فى السنبلاوين أقرأ كل يوم ثلاث أو أربع روايات جيب. هنا أقرأ مجلدات طانيوس عبده بمكتبة بحر مويس. وكلها مغامرات بوليسية طويلة، وأحيانا تقع فى يدى مجلة مصورة.

ترددت لحظة، ثم اعترفت له بأننى لا أحضر كثيراً من دروس المعهد، لأنها لا تعجبنى، فهى كتب أثرية من عصور مضت. ويكفينى للامتحان فيها شهر واحد قبل يوم الامتحان، وأحصل فى شهادتى على درجات عالية، ثم أنسى كل ما درسته مع بداية الصيف. راح الشيخ العايق يتأملنى طويلا. ثم قال لى:

– ستكون إذن قاصًا، إذا قرأت أدبًا حقيقيًا.

ودلنى على مجلات الرسالة وملحقها الروائى، والثقافة، ومسامرات الجيب، والهلال والاثنين والمصور وسواها، وأنا أكتب وراءه أسماءها – مع أننى أعرف بعضها – لأشتريها كلما دبرت أثمانها.

توافدت صحبة الشيخ العايق من طلاب المعهد، وأحاطوا به معى، كانوا يسبقوننى فى عامى الدراسى، بعام أو عامين، واكتشفت أنهم من هواة الأدب. فبينهم من كان هاويًا للخطابة فى عصر كان للخطابة فيه شأن، ومن كان هاويًا لكتابة أدب خواطر فى العشق والحب مثل المنفلوطى، ومن كان هاويًا للأدب المسجوع مثل بديع الزمان والقاضى الفاضل، وبينهم من كان شاعر المظاهرات الأول فى يوم معركة نلتحم فيها مع البوليس، وأذكر من شعر شاعر منهم بيتًا يقول فيه:

اليوم لا سمع ولا إذعان
حتى يحكم بيننا القرآن

ولم تكن لقصيدته أى صلة يومها بهدف المظاهرة السياسى، ولا بسببها الحقيقى، وهو أن نأخذ يومًا إجازة، وأن نسلى أنفسنا، ونريح ضمائرنا، ونذهب فى الختام إلى السينما. وقدر لى أن أصبح يومًا صديقًا لاثنين منهم، لبضع سنين تالية، كان أحدهما عاشقًا أبديًا عشقًا غير عذرى، متغنيًا أبدًا والدموع تسح من عينيه، بقصيدة ابن زيدون التى يسترضى فيها حبيبته الأميرة ولادة، ومناكفته له بقبولها لتودد الوزير ابن عبدوس إليه، وكان الآخر مثل سيرانو دى برجراك شهوانيًا مثل بيرون، لا يفتأ يطوف بالحارات بحثًا عن أرمل تقف على باب فى ظلام الليل.

وفى الصيف عبرت عن إعجابى المراهق بالشيخ العايق، بكتابة مقال قصصى عنه، فى صحيفة الإصلاح، كان يصدرها عبد الفتاح قنصوه، ويديرها، ويجمع اشتراكاتها من التجار والعمد والأعيان وكبار الموظفين مدير التحرير فرهود وهو نفسه المحرر الوحيد الجوال جالب الأخبار. وكان له الفضل فى جعل أبى يشترى لى قلمًا من الأبنوس الملون، حبره به، وبه



كتبت مقالى عن الشيخ العايق، وكان بعنوان: لو لم يكن لكان. وهاتك يا خيال.

يبدو لى اليوم هذا المقال مقالا ساذجًا ومراهقًا، لكننى أحسب أنه كان أول إشارة إلى مزاجى القصصى: الكتابة بعد بضعة عقود عن الشخصيات المعروفة والمغمورة، فى كتابى: النميمة. ولم أعرف قط إذا ما كان هذا الشيخ قد قرأ ما كتبته عنه أم لم يقرأه، فحين عدت مع بداية عام دراسى جديد، كان قد نقل إلى معهد القاهرة، ولم أجد له بعد رحيله مثيلا يذكر فى حياتى بين الشيوخ.

كان شيخى العايق الرايق أول دفعته فى كلية اللغة العربية، وكان يحمل دائمًا شهادة تقدير منحها له الملك فى عيد العلم كتبت بماء الذهب، وصورة له مع الملك فاروق وهو يصافحه. هكذا كان يقول لى شيخى العايق ابن شرباص، فلم يكن فى نظرى هو الذى تشرف بمصافحة الملك الصالح فاروق.

★★★

سألته يومًا فى مجلس الحديقة الأسبوعى، عن حيرتى مع العمامة فى الحياة العامة، وفى المعهد، ففى مجرد تحررى منها شعور بالحرية. فضحك وفتح كاكولته، فرأيت تحتها بدلة، ولها كرافتة ملونة ومورّقة. وقال لى ولمن معى ضاحكًا:

– حين أبتعد عن المعهد أخلع عمامتى، وأجعلها مثل "شاطر لكنه غير مشطور"، مثل السندوتش الخالى من الفول، وأدسها فى جيب المعطف الداخلى، وأخلع كاكولتى، وأقلبها ظهرًا لبطن، وأجعلها معطفًا أحمله على ساعدى، كأنى فى طريقى إلى حفلة.

وأغرقنا فى الضحك.

ولأنه لم تكن لى بدلة إلا بعد سنين عديدة، حين استوطنت مدينة القاهرة، فقد اكتفيت بالجلباب عن البدلة، ومثلى فعل كل الآبقين من طلبة المعهد. وتزايد العدد يومًا بعد يوم، وعصى الشيوخ تطاردنا، وكلمات التوبيخ تقرعنا.

***

بدت نذر الحرب العالمية الثانية فى طريقها إلى النهاية. راحت الجيوش الألمانية تأخذ طريق التراجع بعد تدمير الطائرات البريطانية لسدود نهر الراين. وبدأ جيش الاحتلال يتخفف من أعباء العمالة المصرية فى صحراء مصر الشرقية، فانساح العمال المسرحون فى الأحياء الشعبية بمدينة الزقازيق. وشاعت أخبار سرقاتهم الصغيرة فى الأحياء، وقطعهم للطريق فى ظلام الليل بالحارات والأزقة. وأصابنا كغيرنا الشعور بخيبة الأمل فى فوز الألمان على جيوش الحلفاء فى معركة العلمين، واليأس من تحريرنا من جيوش الاحتلال البريطانية. وكان شيخ لمعهدنا الدينى قد ذهب، وجاءنا بدلا منه شيخ آخر.

كان الظلام سائدًا فوق كوبرى أبو الريش. ولم تكن ثمة إضاءة فوقه، وبات صعود درجه والهبوط منها عسيرًا على المصابين بعشى الرؤية فى الليل، فلم يكن ثمة من طريق قصير آخر لعودة الخارجين من الطلاب من الحفلة الأخيرة بسينما "أبو لون"، إلى عنابر سكناهم. كانت ساحة المعهد ساكنة، وأعمدة النور فى ساحة المعهد والطرقات بين مبانيه خافتة الضوء. وعم مرسى بواب المعهد لا يزال يقظًا، ينتظر عودة الطلاب برءوسهم العارية من العمائم إلى عنابر المعهد. وقد نام شيخ المعهد، وشيخ السكن، وطلاب العنابر.

كانت الساعة الواحدة ليلا، حين راح جرس المعهد النحاسى الضخم يدوى فى ظلامات الليل. استيقظ فزعًا شيخ المعهد وشيخ السكن وطلاب



العنابر. هرعوا إلى الجرس بساحة المعهد، ورأوا زميلا لهم ينزف دمًا من كتفه وساعده وخده. وأقبل شيخ المعهد. وتكشف الأمر.

كان الجريح عائدًا من السينما مع زميله. وفوق الكوبرى، فى ظلام الليل، احاطت بهما الخناجر، وطلبت منهما أصوات لا يعرفان لمن هى أن يخرجا ما فى جيوبهما. وحين رفضا وقاوما طعنا بالخناجر. ونجح الجريح فى الهرب. وترك زميله مثخنًا بالجروح على حد قوله فوق الكوبرى يلقى حتفه.

هاج طلاب العنابر، واندفعوا فى صمت مطبق خارجين من بوابة المعهد إلى الكوبرى، يتقدمهم شيخ المعهد بنفسه. وأحاط به بعض الطلاب لحراسته.

فوق الكوبرى كان المجهولون فى انتظارهم فلم يفروا. ونشبت المعركة. وراح الطلاب العزل يواجهون الخناجر. وهم لا يكادون يرون من أمامهم. واندفع مجهول وجذب شيخ المعهد من حزام قفطانه، ورفع خنجره. فجأة اندفع العتل فتوة المعهد، وحمل من يهاجم شيخه بيديه عاليًا فوق رأسه، وقذف به مع خنجره من فوق سور الكوبرى. سقط المسكين فوق قضبان القطار، وصرخته الممتدة تدوى فى ظلام الليل. فى تلك اللحظة فقط بدأ فرار المجهولين إلى حى "أبو الريش". وسُمعت أجراس عربات الإسعاف لإسعاف الجرحى، وأبواق سيارات الشرطة للقبض على الجناة.

فى الصباح، فى الثامنة صباحًا، لم يكن أحد من طلاب العنابر قد غفت له عين. اجتمعوا تحت شرفة مبنى الإدارة. وتوالى خطباؤهم يتنادون بالويل والثبور. يدعون إلى الانتقام، فقد مات طالبان وجرح خمسة، ولم يصب أى من المعتدين بجرح واحد. فقط مات أحدهم على قضبان قطار. واتخذ الطلاب قرارًا لا رجعة فيه، أن يحرقوا حى أبو الريش بأسره، فمنه جاء المجهولون قطاع الطريق، وجزاؤهم هو الموت هم ومن يسكنون فى بيوتهم.

عبثًا راح شيخ المعهد يحاول أن يصدهم حتى يكتشف البوليس من يكونون، ويقدمهم للعقاب. وعبثًا حاول أن يوقف حرق بيوت حي بأسره بمن فيه من أطفال ونساء وشيوخ. ونزع السلامونى عمامته عن رأسه، وراح يجمع فيها قروش التبرعات لشراء صفائح البنزين. وراح شيخ المعهد يضرب كفًا على كف يائسًا. كيف يوقف محرقة توشك أن تحدث وسط غضب شبابى أعمى.

لم ينقذ الموقف ذلك الصباح سوى مجيء حكمدار المديرية بين عساكره. صعد الدرج إلى الشرفة. وقف بجانب شيخ المعهد، وحين ساد الصمت قال السيد الحكمدار إنه قد ألقى القبض، فى حى أبو الريش، على كل العمال المُسرحين من عسكر التل الكبير، وأنه لولا الخوف على حياتهم وبينهم المذنب والبريء، لجاء بهم إليهم ليرونهم بأعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى أن العدل يأخذ مجراه.

وسارع شيخ المعهد يناشد الطلاب لمواصلة جمعهم للتبرعات ليسلمها كجزء من التعويض لعائلات الطالبين الشهيدين، ومواساة جرحاهم فى مستشفى المدينة. كان شيخ المعهد على ما أذكر هو الشيخ الدكتور: محمد عبد اللطيف دراز.

★★★

طال شعر رأسى، وآن له أن يجزّ. ذهبت إلى حلاقى بكفر النحال. أدركت للتو أننى سأنتظر دورى، فالجالسون عديدون، ولم يكن بدكانته حلاق سواه. تأملت الوجوه والشعور فى المرآة المقابلة. توقفت عينى عند وجه متطرف منها. كان ذا وجه أوربى حديث. لون السحنة والدم، وتكوين الوجه، ولون العينين الأزرق جعلنى أحدس أنه واحد من اثنين: إنجليزى أو ألمانى. كل رءوس الجالسين عارية أو مطمورة بطاقية، عدا رأسه هو. رأسه ملفوفة



بشال لفته ضخمة لفت كيفما اتفق، كما رأس صعيدى أو معلّم. تلويح الشمس لوجهه لا يبدو لى متسقًا مع لون بشرته. تلويح ليس له تاريخ قديم. خلا مكان عن يمينه. سارعت بالنهوض من مكانى، والجلوس بجواره. رأيت الحلاق ينظر إليه وإلى قلقًا فى المرآة. عين عليه وعليّ. وعين على رأس المحلوق بين يديه. نظر إليّ فى المرآة بمجرد تغييرى لمجلسى. وقعت عيناى فى عينيه فى المرآة. هز إليّ الحلاق رأسه هزة كهزة النفى فيها تحذير وقلق وإشفاق. وصلت رسالته إليّ. بدا لى الحلاق خائفًا عليه. توقف الحلاق عن الحلاقة والتفت نحونا. قرر مواجهة الموقف كله. أدار ظهره إلى الباب، وقال لنا:

– حد فيكم يعرف إنجليزى.

أشار طالب جالس بكفه إليه، فالتفت الحلاق نحوى، وقال لى:

– من فضلك بدل المكان معاه.

ولم ترف للغريب عين، ولم يسارع بالهرب من المحل. تحدث بديلى فى المكان مع الغريب، حديثًا خافتًا. والتفت بديلى إلينا وقال لنا:

– حضرته ضيف علينا. حضرته مش إنجليزى. الإنجليز فى معسكراتهم عندهم حلاقينهم.

سرت بيننا همهمة، وجرى تقارب رءوس وهمسات، وقال الحلاق لنا بفطنة:

– يعنى أسير ألمانى هربان. والألمان حبايبنا. يا ريتهم كانوا كسبوا الحرب فى العلمين. يعنى باختصار. حسب ما فهمت، ويمكن فهمنا كلنا، أسير ألمانى هارب. نحميه والا نرميه؟

نهض طالب من معهدنا واقفًا. أعرف وجهه قال لنا بهدوء:

– دا ضيفنا وحبيبنا، وانا حاحميه.

واتجه من فوره إلى الغريب، وأعاد له لفة الشال على رأسه، وترك طرفًا منه مدلى على عينيه، وجعل من طرف آخر لثامًا له على وجهه. اختفت الغربة من وجه الغريب، عدا لون عينيه. بدا لى فى لثامه كأنه يونانى من الإسكندرية عروس البحر. والتفت بديلى إلى الحلاق، وأعطاه ربع جنيه قائلا له:

– يعمر بيتك. دى حلاقته وحلاقتى وزيادة كأننا حلقنا. ادعى لنا بالستر. انت راجل جدع، وكل القاعدين جدعان.

وسارع بالخروج من دكان الحلاق على عجل، ومعه الغريب الذى لم نعرف له اسمًا ولا قصة هروب فى دكان الحلاق.

لكننا لم نلبث أن رحنا نضرب أخماسًا فى أسداس، فالولد الذى أخذ الغريب يرتدى بنطلونًا وقميصًا، وقد يكون مرشدًا ويسلمه للبوليس الموالى للإنجليز، والحكومة التى تراعى دائمًا خاطر الإنجليز. وقلق الحلاق برهة، لكنه راح يطمئننا، فهو يعرف الولد المبنطل، ويعرف أنه طالب بالمدرسة الثانوية، وأن هذا الولد زبونه من سنين. وصمت الحلاق لحظة، ثم قال بقلق:

– لكن. تصوروا. لحد دلوقتى ما عرفتش له اسم ولا بلد.

لم أعد لذلك الحلاق مرة أخرى إلا قبيل الامتحانات بعد عامين. اعتدت الحلاقة فى السنبلاوين كلما سافرت إلى أهلى مرة كل شهر. وكانت الحرب العالمية الثانية قد انتهت، وألمانيا التى احتلت أوربا بأسرها قد احتلته أوربا، واحتله معهم الروس أيضًا. وحين رآنى الحلاق عرفنى للفور. وأجلسنى أمامه، وفرد على صدرى فوطته، وقال لى بدون مناسبة:

– اسمه ياسيدى فرانز.

قلت له بدهشة فقد نسيت أمر الغريب كله:



– فرانز مين؟

فابتسم وقال لى:

– الأسير الألمانى الهربان. فاكره؟

تذكرت. قلت للحلاق بلهفة، وهو يطقطق بمقصه فى شعرى:

– جرى له إيه؟ رجع بلده. واللا لا سمح الله..

ضحك الحلاق. وراح يروى لى أخبار من قال إن اسمه فرانز.

– رحب عين أعيان القرية بفرانز، وأشاع بين أهل القرية، وفى النواحى من حوله أنه خبير إنجليزى استأجره من بلاده، لإصلاح المواتير. راديو. ماكنة رى. موتور ميه. أى مكنة والسلام، وأنه مهندس بتاع ميكانيكا، ومتخرج من الجامعة فى بلاده، ويريد العيش تحت شمس مصر، بعيدًا عن الثلج والضباب فى بلاده. ونجح فرانز حين وصل إلى قرية عين الأعيان فى إصلاح ماكينة الرى الإنجليزية العطلانة. فك صواميل البودى بتاع المكنة. وصلح الموتور. ورمى ببودى الماكنة كله فهو زيادة لا لزوم لها، لرفع سعر البيع لا غير. واشتغلت الماكنة فل الفل، وراحت تملأ حوض المياه العالى من مياه النيل حينًا، ومن مياه بئر جوفى حين تقل مياه النيل فى النيل، أو يحجبها الباشوات لأراضيهم، ويحرمون منها سائر أراضى الفلاحى.

وأغرق الحلاق فى الضحك، وقال لى:

– تصور. إن فرانز عمل للراجل اللى مضايفه عملة فى زراعته ما تعملتش قبل كده فى بر مصر كله.

وراح الحلاق يروى لى أن فرانز زرع للرجل إياه البطاطس فى قلب الأرض، وعمل فوقه أقفاصًا من جريد النخل مرفوعة على مراين من الخشب، وملاها بالطمى، وزرع فيها البطاطس، وظل يرويها رشًا بيده بخرطوم جناين، قفصًا بعد قفص. والفدان ضرب معه محصول خمس

فدادين فى المرة الواحدة. كل قفص اتملا بالبطاطس، شبع سماداً وشمساً وهواء من كل ناحية.

ظننت أن الحلاق ينخع، وأن الفكرة من بنات أفكاره، ونسبها إلى فرانز. لم أقل له ذلك. وقلت له:

– وفرانز عامل إيه دى دلوقتى. رجع بلده والا مش ناوى يرجع.

فقال لى الحلاق:

– مستنى لما تهدا الأحوال فى أوربا ويرجع. محوش فلوس ياما للرجوع. وأفتكر إن سفير بلده حيساعده ويدبر له باسبور، وتذكرة طيارة. مين عارف.

ورفض الحلاق أن يبوح لى باسم عين الأعيان، أو باسم بلده، أو حتى باسم الولد الذى حماه، وقال لى:

– يا باشا أنا زى الدكتور والمحامى. أنا حلاق. سر الناس عندى فى بير.

★★★

بدأت تجربتى هذا العام مع الغش فى الامتحانات لأول مرة، بطريقة مبتكرة مستبعداً منها طرائق الأستك والكتابة المدققة بسن قلم كالدبوس على ورق البافرة، واستعراض الإجابات بيننا برفع أوراق الإجابة لبعضنا البعض يمنة ويسرة وخلفاً، والهمس الخافت بالسؤال لأقرب جار دون أن نلتفت، والإنصات المرهف لإجابة جار آخر، وقد تكون خاطئة أو متعمدة التغليط، وأنا فى ذلك كله لبخة والحمد لله، سمعاً ورؤية واستعداداً نفسياً. كان غشى فى علم مقرر علينا لأول مرة، هو علم الصرف، وكان الكتاب هو كتاب: شذا العرف فى فن الصرف للحملاوى.

ولخوفى من هذا العلم سعيت لأحصل على نماذج الأسئلة السابقة، فهالتنى طريقة وضع الأسئلة، وأرعبتنى. كانت أسئلة حفظ كلها للقواعد



الصرفية بأمثلتها، مثل: أذكر المواضع التى تقلب فيها الهمزة واوا. أجب مع التفصيل والتعليل عن تصريف جمع كلمتى: قضية وخطيئة إلى قضايا وخطايا. صحت: ويل لى، رسبت والحمد لله. احفظ. احفظ. احفظ القرآن الكريم وحفظناه دون فهم، ونسينا معظمه والأمر لله، فلم يستطع عمر بن الخطاب نفسه أن يحفظ منه فيما حدثنا به الشيخ الشرباصى سوى سورة البقرة. احفظ قواعد النحو. اذكر القواعد فى تقديم الحال وتأخيره مع التمثيل. احفظ. احفظ . احفظ . وفى الامتحان: اذكر. اذكر. اذكر. قررت الغش فى امتحان الصرف، وتعليق أمر النجاة من تهمة الغش والطرد على القدر وحده.

مزقت كتاب الصرف إلى فصول. ووضعت الفصول فى جيبين دا خلين وجيبين خارجيين بكاكولتى، وأحسنت ترتيبها بالجيوب فصلا بعد فصل، ورتبت الأوراق بكل فصل حسب الموضوعات. كانت أوراق الإجابة مدبسة ومسطرة، خفيفة السمك تشف عما تحتها. وجاءت ورقة الامتحان المرعبة. أول سؤال بها كان: اذكر مواضع قلب الواو ياء. وكذلك كانت بقية الأسئلة. كنت أرجو ألا أكون بحاجة إلى الغش. لكن الآن وقد وقعت الفأس فى الرأس، فلابد مما ليس منه بد.

كان المراقب أفنديًا مجلوبًا من خارج المعهد، يروح ويجيء فى طرقات الفصل، وكلما أدار ظهره ناحيتى، أخرجت بمهارة ورقة بعينها من فصل بجيب بعينه، ودسستها تحت صفحة الإجابة، ورحت أنقل بهمة وسرعة، ما يبين من تحت ورقة الإجابة، وحين يدير المراقب وجهه نحوى، أتوقف عن الكتابة، وأضع طرف القلم على شفتى، وكأننى أفكر وأفكر وقد احتار دليلى. وهكذا دامت اللعبة بينى وبين المراقب إلى أن انتهيت من الإجابة، وقد عادت الأوراق كلها إلى جيوبها. ولكى أغطى نفسى من الطلاب المجاورين لى على

القاعد المتباعدة من الجهات الأربع كنت أهمس لأحدهم بالإجابة النصية، وبوزى فى ورقة الإجابة. وحين فرغت طويت الورقة وقدمتها للمراقب المجلوب قائلا له بهمٍّ تمثيلى خادع: ادع لى. وغادرت الفصل مع دقة الجرس معلنًا انتهاء امتحان المادة.

كان الطلاب يملؤون طرقة الردهة الطويلة العريضة الممتدة، وهم فى زياط ومياط وعياط وضجة وصخب وجلبة. ولشدة فرحتى بنجاتى من امتحانات العام الدراسى التحريرية، وكان امتحان الصرف آخرها، رحت أخرج دون تفكير، بتهور وحمق، أوراق كتاب شذا العرف فى فن الصرف، وأرمى بها من حولى ترحمًا على روح مؤلفه الشيخ الحملاوى الذى لم أره قط، وربما أيضًا معاقبة له، ولواضعى الامتحان، ولعقليات الحفظ والتلقين درسًا بعد درس.

ومن العجيب أن رفاقى المكفوفين كانوا أكثر استجابة ومهارة ودربة مع عقليات الحفظ. كانوا الصدى، والرجع لها. فى الفصل وخارج الفصل، وكأن رءوسهم قد صارت مخازن مؤرشفة للكتب التى تتلى عليهم، وأصوات المكفوفين تملى على المكلفين الغرباء بكتابة إجاباتهم للأسئلة التحريرية فى لجان الامتحانات الخاصة. وبين هؤلاء المكفوفين من كانوا يدرسون فيما بعد ما حفظوه، وكأنهم توقفوا عنده ولم ينسوه قط.

كان المراقب العام لامتحانات المعهد فى هذا العام موفدًا من قبل إدارة الامتحانات بالجامع الأزهر. كان يحمل اسم أو لقب الشيخ الجبالى. أذكره كما أذكر نفسى الآن، ولا أزال أراه أمامى طويلا عريضًا قمحى اللون معقوف الأنف. وجاءت لحظة العقاب للغش الذى حدث خلسة فى اليوم نفسه. دخلت لجنة الامتحان الشفهى، وكان أمرها عندى أهون شأنًا. فلو سئلت فى الصرف لقيل لى: صرف كلمة كذا، فسوف أصرفها على الفور



خطوة خطوة. ولو سئلت: إعرب هذا البيت لأعربته على الفور، مع بعض الخطأ بين كون الكلمة حالا أو مفعولا مطلقًا مثلا. وكثيرًا ما يحدث اللبس فى إعرابهما، أو يجاز الإعرابان أحيانًا من نحويّ آخر، بالتأويل والتقدير لمحذوف.

حين جلست أمام اللجنة جاء فى إثرى الشيخ الجبالى، وسحب كرسيًا، وجلس على رأس اللجنة، وأشار بيده إلى أعضاء اللجنة كى يدعوه يتصرف معى وحده. ثم التفت إليّ قائلا: إعرب: كالزيدان. بهتنى السؤال. فلم يكلف نفسه حتى بوضع الكلمة فى جملة. قلت لفورى أنا الحافظ لعلامات الإعراب بالحروف: خطأ. قال لى: لم؟ قلت: الصواب كالزيدين. فأشار بيده إلى اللجنة. وقال لى: اذهب. لم أفهم إذا كان جوابى من الخطأ أو من الصواب. لم يسألنى أى سؤال آخر. وعند باب الفصل التفت فرأيته قد سحب ورقة التقدير من أعضاء اللجنة، وراح يضع الدرجة بنفسه ويفقطها بالحروف.

حين عدت إلى البيت سارعت إلى كتاب: قطر الندى وبل الصدى. كان هو الكتاب المقرر علينا فى النحو فى هذا العام. قلبت الصفحات. توقفت عند صفحة بعينها. أدركت أننى أخطأت، وأننى رسبت، فهى لهجة قبيلة، ولو أخذ بها وبأمثالها لسقطت أجرومية العربية كلها. لكن كيف أرسب وأنا لم أسأل فى صرف ولا نحو أى سؤال آخر.

اكتشفت وأنا بالسينما أشهد فيلمًا من أفلام العنف، أن الشيخ الجبالى قد رآنى وأنا أطير أوراق كتاب الصرف فوق رءوس الشيوخ والطلاب، وأنه يعاقبنى بالرسوب لأننى غششت أولا، وجاهرت بغشى على الملأ ثانيًا.

***

من أبشع الحكايات التى عشتها بالمعهد الدينى، ذلك العام، حكاية طالب مشيوخ بالمعهد هدد شيخه بالقتل. تودد المجاور المشيوخ إلى أستاذ له حتى

أدخله بيته، وتودد له حتى صار مثل فرد من أهل بيته، وتودد له حتى طلب القرب يومًا من هذا الشيخ، ليكون زوجًا لابنته. وانتهزت أو تعجلت زوجة الشيخ هذه الفرصة، فخير البر عاجله، ولا بأس من أن ينفق الشيخ على الاثنين فى البيت نفسه. عندئذ أحس المجاور المشيوخ بالخطر، فطارت نفسه شعاعًا كما يقول الشاعر، وزاغ عن بيت الشيخ، ومن الشيخ، فلم يعد الشيخ شيخًا من شيوخ فصله فى العام الدراسى التالى.

كان يكفى فى لجنة الامتحانات الشفوية أن يطلب منك أن تقرأ آيات من القرآن الكريم تختارها، أو يطلب منك البدء بها، ثم تسأل أسئلة خفيفة عابرة، يسيرة الإجابة عن إعراب كلمة أو تصريف كلمة، أو تشبيه وارد، أو التحديد لكلمة: هل هى اسم مرة أو اسم نوع وهيئة. وتخرج سالمًا راضيًا من اللجنة، وأنت رهن فى نجاحك بإجاباتك التحريرية من قبل.

لكن أعضاء بعض اللجان، أو واحدًا منهم على الأقل، كان ينتهزها فرصة ليبرهن على مدى علمه وجديته، ويسأل المشيوخ أسئلة صعبة يحار معها الطالب ويتلجلج، وعند وضع درجات الطالب يسجلها هو بنفسه، ولا يراجعه فيها زميل له باللجنة، من أجل طالب لا بأس أن يعيد عامه الدراسى كله برسوبه فى درجة الشفهى، ليزداد علمًا باللغة، حتى لو كان ناجحًا وبدرجات عالية فى امتحاناته التحريرية، أو هكذا كنا نتحدث فيما بيننا نحن المشايخ، عن اللجان والحظوظ.

وحدث مع الطالب المتودد تعمد الشيخ المغدور به الانتقام منه، عامين متتالين فى الامتحانات الشفوية، لطرده من الدراسة بالمعهد، وحرمانه من الالتحاق بأى معهد آخر إلى أبد عمره كله، شأنه شأن من ارتكب جريمة أخلاقية، وصار من أصحاب السوابق. كان الشيخ يراجع أسماء اللجان فى يد المسئول عنها، ويعرف اسم الطالب المخادع، ويرقبه من بعد، حتى يلحق



بلجنته، ويتبعه لفوره، ويدخل فى إثره، ويسحب كرسيًا، ويجلس متمكنًا ومتربصًا، ويروح يسأل غريمه الصغير أسئلة فى فوازير العربية. فعلها معه عامًا فعامًا، والطالب يلزم الصمت فلا يجيب، ليقينه أنه قد تقرر رسوبه، وفى العامين كان يغادر اللجنة، وقد ملأه اليأس.

ونجح هذا الطالب بالمساعى والوساطات فى أن يمد له عام ثالث وأخير، ولم يجد مفرًا للنجاة من شيخه إلا بالتربص له. تفرغ له فى ليلة من أماسى الامتحانات التحريرية، ولحق به فى طريق عودته إلى بيته. كان الطريق إلى الحسينية شبه خال وشبه مظلم، وكان معه شيخ آخر يسير معه ويحادثه. ولم يتردد الطالب المغدور به. أسرع متقدمًا على الشيخين بضع خطوات، ثم التفت معترضًا طريقهما، شاهرًا خنجرًا ذا حدين من جرابه. وقال آمرًا الشيخ المغدور به أيضًا، وصاحبه يسمع:

- غدًا ستأتى معى إلى اللجنة. ستدخل معى. لن يكون معى هذا الخنجر. سأدخره لوقت آخر لأقتلك به أينما كنت، ولن ينقذك منى أحد.

وفاجأ الشيخ بقوله له أمام صاحبه:

- طلبتُ الزواج من ابنتك بعد تخرجى، وليس حالا بالا، فلا أقبل أن يعولنى أحد، ثم يطردنى من بيته أنا وزوجتى وولدى.

أدرك الشيخ مرافق الشيخ الأمر كله. وقال للطالب المشيوخ بهدوء:

- أعد خنجرك إلى جرابك يا بنى. وغدًا تعال إلىّ لأصحبك إلى لجنتك. سأضع لك درجاتك بيدى.

والتفت إلى صاحبه قائلا له:

- العفو عند المقدرة يا مولانا.

عندئذ انفجر الطالب المشيوخ يبكى، وهو يبتعد فى ظلام الليل.

فى ذلك السنة نجح الطالب. وطلب الشيخ المغدور به نقله من هذا المعهد

إلى معهد آخر، فى أى مدينة أخرى، فى زمن كانت فيه شقق الإيجار فى مصر كلها لا تزيد عن جنيه واحد أو جنيهين.

★★★

ذهل أبى وهو يقرأ درجات شهادتى. كانت درجات امتحاناتى التحريرية كلها عالية. وكانت درجة امتحانى الشفوية أو الشفهية أو الشفاهية صفراً مكتوباً بحروف داخل دائرة بالقلم الأحمر، وفى خانة الدرجات كُتب صفر واحد. نظر إليّ أبى مستفهماً عن التناقض الذى يراه. رويت له ما حدث من الشيخ الجبالى، ولم أحدثه عن غشى للصرف، وتطييرى الأحمق المجنون للأوراق علانية فى ردهة المعهد. وحتى ذلك العام لم يكن هناك دور ثان فى امتحاناتنا الأزهرية. وقلت لأبى:

– سامحنى فى هذه السنة. سأتصرف اليوم مع النحو حتى لا تتكرر هذه المأساة مرة أخرى.

وحين عرف جدى بحكاية رسوبى ضرب كفًا على كف، وقال ساخراً:

– يعنى يا أبو داود حتمتحن تانى فى كل العلوم اللى نجحت فيها؟

★★★

فى الحارة، فى السنبلاوين، كان يمر شاب وسيم عصر كل يوم، ويتوقف قليلا أمام بيت إبراهيم ابن عبد الجليل. كانت للبيت شكمة لها سور واطئ، وفى الشكمة كانت زلابية تظهر بفستان مفتوح الصدر، عارى الساعدين، وتتحدث معه بعبارات خاطفة ضاحكة السن. كانت فائقة الفتنة والجاذبية. كنت أراهما من وراء شباك غرفة الصالون الموارب ببيت الأهل، لكننى لم أسمع منهما حرفًا، وكان رائحة العطر الفواحة المتضاربة منهما تهب فى أنفى من فراغ الحارة والشكمة والنافذة.

كان الشاب فتيًا، فارع الطول، عريض الكتفين، أبيض الوجه محمره، فى عز شبابه، وفى غاية من العياقة. يرتدى جلباباً كشميرياً بيجى اللون



مخططاً بخطوط لا تكاد ترى، ولم أستطع أن أحدد لها لونًا. على رأسه طربوش فاقع الحمرة بزر فاقع الزرقة، وفى يده عصا من العاج، ووجدتنى أسميه المعجبانى.

أحست زوجة إبراهيم بما يجرى حولها. كانت لها الغرفتان المواجهتان بنافذتيهما للحارة على جانبى الشكمة وصالة البيت. واربت بنورها نافذة مثلى ورأته، وسمعت منه ومنها عبر الشكمة ما لم أسمعه، وحكت فى لحظة أنس لزوجها إبراهيم ما يجرى فى بيته. وترصد إبراهيم للفتى المعجبانى، وهو متوار فوق سطح البيت، ونزل مسرعًا إلى أخته، وجرها من شعرها، وسارع المعجبانى بالابتعاد من الحارة.

وسمعت الحارة الصريخ والعويل، يتردد فى جوانبها إلى ما بعد صلاة العشاء، مرة بعد مرة، وكلما همدا تجدد صريخها وزعيقه مرة أخرى. وكان إبراهيم قد أغلق باب بيته على نفسه، ومن معه من الداخل، فلم يستطع أحد من أهل الحارة الدخول لنجدة زلابية من بين يديه، وصرنا نحن أهل الحارة نخشى على زلابية من القتل. الزوجة نفسها فيما أحسب باتت تخشى من قتل زلابية، وتخاف معارضته، وتخاف أن يصبح إبراهيم قاتلا. ووجدت نفسى أكره إبراهيم، وأتعاطف مع زلابية.

فى ظلام الليل، نجحت زلابية فى الهرب من البيت عبر باب الشادر، فلم يعمل له إبراهيم حسابًا، وكان روشة نائمًا. وفى ظلام الليل فى منتصف الليل سمعنا فى بيتنا، ونحن نيام طرقًا على الباب. كنت نائمًا فى سابع نومة حين انتبهت على صوت بكاء قريب منى، وحين استدرت وفتحت عينى، رأيت زلابية باكية مع زوجة جدى، تظاهرت بأننى لا أزال نائمًا، وأحسست بزوجة جدى تنيم زلابية بجانبى دون غيرى من إخوتى فى البيت، فلا مكان لها لتنام فيه إلا معى، ولم يفكر أحد من أهلى فى أننى قد بلغت سراً، واحتلمت سراً، دون أن يشعر أحد.

ردت زوجة جدى الباب علينا. ورحت أستمع إلى نشيج زلابية المكتوم المستمر بجانبى، وقد أدارت ظهرها إلى ظهرى، وصرت أحس بالسرير الحديدى ذى الأعمدة ينتفض مرتعداً بدوره مع انتفاض جسدها. وعشت ساعة أو تزيد أنتفض فى داخلى بدورى، أقاوم رغبتى فى الاستدارة نحوها والحنو عليها، بساعدى وكفى وتمتماتى لها لتهدأ، وأقاوم مع رغبتى خوفى من عواقب لا قبل لى ولا لها بها. ساعة أو تزيد من الجحيم بنفسى والجحيم معها، والشعور بهناء عميق بحر لا يطاق، وفرهدة نفس وجسد، إلى أن سكنت وسكنت. وقدرت أنها قد نامت، فاستدرت بوجهى نحوها على حذر، ورحت أشم عطر جسدها وعرقها، وأحاول فى الظلمة أن أرى انحناءات جسدها واستداراته، حتى جرنى النوم إليه، وأطبق لى جفنىْ عينى، ورحت فى مشهد ملون حالم بها ومعها أحتلم، حتى انطفأ منى وهج الجسد.

حين صحوت من النوم، أنا الغر الثقيل النوم، لم تكن زلابية بجانبى. ظننت أنها كانت حلمًا مجرد حلم، مع أن رائحة عطرها وجسدها وشعرها كانت معى فى سريرى، وحول سريرى. وكان باب الغرفة مفتوحًا. غادرت السرير والغرفة إلى الصالة رأيت أهلى جالسين حول الطبلية يتناولون فطوراً، ومعهم كانت زلابية جالسة، لا خجلة ولا وجلة، تضحك وتتحدث، وآثار الضرب لا تزال على ذراعيها وساعديها ووجهها. قبل أن أجلس أخذتنى زوجة جدى جانبًا، وسألتنى هامسة:

– ابو داود. بلغت والا لسه.

أدركت ما ترمى إليه.

قلت لها كاذبًا:

– لا.

قالت:



– الحمد لله. بت طول الليل صاحية خايفة منك ومنها. والشيطان شاطر.

حين بحثت عن مكان لأجلس فيه إلى الطبلية، سحبتنى زلابية من يدى، وقالت لى أمام الكل:

– تعال اقعد جنبى.

قاومت، نظرت إلى أبى، والكل بين صامت وضاحك ومندهش.

فقالت لهم زلابية بهدوء:

– فيها إيه. ما انا نايمه جنبه معاه طول الليل فى سرير واحد.

عبس أبى لها. وفقع جدى عبوسه بضحكه قائلا:

– أما مصراوية صحيح بحق وحقيق.

جلست بجانبها برغم نظرات أبى إلىّ. وسأل جدى زلابية قائلا لها على رأى ومسمع منى:

– قولى بقى إيه اللى حصل بينك وبين الواد بتاعك.

فقالت له لفورها:

– يوه يابا الحاج. أكتر حاجة حصلت، وكمان خطف. حتة بوسة.

ساد الصمت، وتوقفت الأيدى بين الأطباق والأفواه، وضحك جدى، وقال لها مستفهمًا ومجيبًا فى الوقت نفسه:

– وبعد البوسة إيه يا بنت؟ مش حوسة؟

زغر أبى إلى جدى، ففى المجلس صغار من البنين والبنات، ووصلت الزغرة إلى جدى فنزل عليه الصمت والحرج، ونظر أبى إلى زلابية فأطرقت خجلا. ونهضت قائلة: الحمد لله يدوم العز. ورحت أتأمل سيرها وقوامها وهى فى طريقها إلى الكنبة.

***

فى ظلام الليل، كما روت لى جدتى، ذهب أبى إلى بيت إبراهيم، وطرق الباب مراراً حتى أضاء إبراهيم الصالة وفتح لأبى الباب، وحين رآه انحنى بسرعة ليقبل يد أبى، فسحبها منه بسرعة، وقال له أبى باختصار:

– أنا جيت أطمنك. أختك هربت من الشادر وبايته عندنا. ماتقلقش والصباح رباح يا ابنى.

التفت إبراهيم خلفه، ثم عاد ينظر إليه فأوقف أبى غضبه قائلا له:

– الصباح رباح يا ابنى. نام واطمن. ما فيش مشكلة ما لهاش حل.

ولم يزد أبى. عاد إلى بيتنا، وأغلق إبرهيم على نفسه باب بيته.

★★★

وجلس جدى وحده بغرفة الصالون مع زلابية، ودار بينه وبينها حديث لم يعرفه أحد قط، وبعد خروجه من الصالون رأيته يضع قدميه فى مداسه، ويغادر بيتنا وحده إلى البيت المقابل، وعاد بعد ساعة إلى أبى قائلا له بلهجة أمرة هذه المرة:

– البس وتعال معاى يا عبد المعطى.

وغادرا البيت معًا.

مع العصر جاء أبى وجدى وجاء بعدهما إبراهيم، ومعه مأذون، وفوجئت، وأنا أرقب ما يجرى، بباب بيتنا المفتوح، يدخل منه الفتى المعجبانى ومعه أبوه وأمه وحدهما، وغمز جدى إلى إبراهيم قائلا:

– صافيه لبن. قوم بوس نسيبك.

نفذ إبراهيم ما طلب منه جدى طائعًا، وانشغلت أمى وزوجة جدى بتنويب أقماع السكر، وعمل الشربات، وغسل الأكواب، ودوت زغاريد زوجة جدى فى فضاء الباب المفتوح، وزادت فأطلقتها مدوية فى فضاء الحارة.



ودخلت العروس تصحبها أختها صفية وزوجة أخيها وزوجة جدى، وحين سألها المأنون العروس من وكيلك، نظرت إلى أخيها ثم إلى جدى فأبى مرتبكة، فأشار لها جدى من تحت لتحت إلى أخيها، فقالت للمأنون:

– أخى إبراهيم.

منذ ذلك اليوم صار طريقى إلى شادر الأحدب روشة يمر بصالة بيت صاحبى إبراهيم عبر الصالة المبلطة فالصالة المتربة والباب الداخلى للشادر. ومن الغريب أننى لم أر زوجة إبراهيم ذات مرة ضحى يوم أو عصره.

★★★

كل ضحى كانت صفية تحول الماء فى جردل، وتغرف منه مراراً بكوز كبير من الصاج المبطن بطلاء أبيض، وتملأ به الزير فى ركن الصالة. إلى أن يصير حد الماء عند منتصف الجردل، عندئذ تحمل صفية الجردل من حواف طرفيه بيدين قمحيتين عفيتين، وتدلق كل ما بقى به من ماء فى الزير، وتغطيه بغطاء خشبى، وتضع تحت الزير إبريقًا كبيراً، ليمتلئ بنقط الماء التى يرشحها الزير لشرب أهل البيت، وشرب الأحدب روشة مع أهل البيت.

ذات يوم، وكان الوقت ضحى رأيت صفية واقفة تملأ الزير. بدا لى جمالها فى سمرتها القمحية مسمسم القسمات، مشربًا بمسحة من العرق. كانت عيناها واسعتين صريحتين كعينى زلابية وإبراهيم، ووجدت نفسى دون تفكير، وبحركة صبيانية متوددة، كما طفل، أقرص بخفة ورقة ساعدها العارى، عند منتصف الكم، قرصة خفيفة. كانت مجرد لمسة. فى اللحظة التى التفت إليّ فيها مندهشة، ثم مبتسمة، سمعت صوت زلابية ضاحكًا يقول لى:

– يخيبك يا سليمان. انت بتحبها.

التفت إلى مصدر الصوت وأنا أهم بالجرى نحو الشادر، لكنها قالت لى:

- تعال يا سليمان عايزاك.

أطعتها، وذهبت إليها خجلا مما فعلت. كانت جالسة على كنبة فى غرفتها المشتركة مع أختها، وكانت الغرفة على يمين الداخل بلا نافذة. لا ينيرها فى عز النهار سوى ضوء الباب الداخل من الصالة المكشوفة للسماء. ربتت زلابية بيدها على مكان بجانبها على الكنبة، فجلست مطيعًا. فقالت لى:

- عايز تتجوزها؟

أطرقت برأسى صامتًا، وتمتمت بحرج، ولم أرد بحرف. غيرت الموقف كله. سألتها عن زوجة أخيها، فلم أرها قط فى البيت، فانزعجت للحظة، وقالت:

- تصور. اللئيمة. بدل ما تقول لى وتقول لاخويا مبروك قالت لاخويا: "فاضل واحدة حنجوزها هيه كمان."

ولم تنتظر زلابية منى كلامًا، فقد قالت:

- أخويا جد. وما يتوصاش. شال إيده وهفها حتة كف. سمعنا طرقعته على خدها فى البيت. ولمت هدومها ومشيت.

وعلقت زلابية وكأنها تحدث نفسها:

- احنا ناقصين. الأول مرات ابويا خدت ابويا ومشيت. ودى كمان جاية تنام على أخويا، واحنا نروح فين؟ نبقى ملطشة يا سليمان.

ولم تكن، ولم أكن بحاجة إلى تعليق. ولم يمض سوى شهر واحد حتى رحلت زلابية من بيت أخيها! إلى بيت عريسها الذى أعده لهما وحدهما. ولم أرها بعد ذلك قط. فقد انقطعت رجلى عن بيت إبراهيم، حين صارت صفية وحدها فى البيت، وصرت أصل إلى شادر الأحدب مرة أخرى عن طريق



الخرابة، لأستعير رواية، أو أرد رواية، وأتحدث مع روشة فقد صار لى صديقًا.

***

وشكا لى روشة يومًا من سوء نومته فى خنه الخشبى بالشادر. فتذكرت الطريقة التى كان ينام بها طرزان فى أفلامه على سرير معلق بين الأشجار، من الأغصان المتشابكة المشدودة بين شجرتين.

ولم يكذب روشة خبرًا. سرعان ما صنع وحده لنفسه سريرًا معلقًا بين خابورين دقهما فى أرض الخن، وشد إليهما شبكة مجدولة من الحبال مثل شباك الصيد قريبة من الأرض بوسعه الجلوس إليها، والنزول منها، والتمدد عليها. ولا أعرف كيف صنع ذلك وحده، بقلمته القصيرة، فى ليالى الوحدة، فى شهر صيف؟

وحين حان موعد عودتى إلى مدينة الزقازيق صحبته إلى دار السينما الوحيدة التى أنشئت لأول مرة بالسنبلاوين، وأهاجت بوجودها وأفلامها الأجنبية والعربية أهل المدينة بأسرهم من العيال والنساء والأطفال والبنات، وبتذكرة حدها الأدنى والميسور قرشان لا غير. وكنت قد صرت مدمنًا لقراءة روايات الجيب بسبب صديقى روشة. أقرأ فى اليوم الواحد جالسًا وواقفًا ومنكفئًا على سريرى، وجالسًا على حجرة فى حديقة المدينة على شاطئ ترعة البوهية، رواية أو روايتين أو ثلاث أو أربع روايات، وحفظت اسم ناشرها عمر عبد العزيز أمين، وأسماء معربيها من مترجمى الظل الذين أنسانى بعد العهد بهم أسماءهم.

(٤)

على غير سعى منى، كان العام الثامن عشر من عمرى عام تجربتى الأولى للحشيش فى مدينة الزقازيق، مع صحبة صائعة ضائعة. كنت جاهزاً للعيش مع هذه الصحبة منساقًا وراءها، فالفرجة على العالم، والرغبة فى تجربة كل شيء جزء من دمى. كنا أربعة. أحدنا كانت جذوره من الصعيد، وكان عاشقًا بطبعه لنجوم الأرض لا لنجوم السماء. والثانى كان وسيمًا وكان بطبعه زير نساء، خلقه الله وسيمًا أكثر وسامة من أى فتاة. لم يكن بحاجة إلى أن يسعى لفسق، فالفسق هو الذى يسعى إليه حاملا معه نهديه، أينما ذهب وسار، أو سكن فى دار. وحسبه أن يلفت النظر إلى نفسه، بنظرة، أو بتمليسة على شعر رأسه، أو بغمزة عين. وثالث الصحبة معى كان الجاحظ العينين، لم أعرف له قط بلداً، ولم أر له صاحبًا سوانا نحن الساكنين معه. كنا نراه فقط فى الليل، حين يعود لينام قرب منتصف الليل. قال لنا إنه يعمل، ولم يخبرنا بعمله، وكان معه ما ينفقه دائماً، وما يفيض عنه يرسله إلى أبيه، ونادراً ما كان يذهب معنا إلى معهدنا الدينى، ونادراً ما كنا نراه بين طلاب المعهد، لكنه كان حريصًا على حضور الامتحان، واجتياز العام الدراسى، عامًا بعد عام، عدا عامنا الذى عشناه معًا، فقد هاج عليه عقله لسبب لا يعلمه إلا الله.

كان الجاحظ العينين حريصاً على أن يظل معنا يوم الجمعة بطوله، يفطر معنا، ويتغدى معنا، ويتعشى، ينام على أريكة تركتها لنا صاحبة البيت، ويتوسد عند نومه صرة بها غيار آخر لا غير من ثيابه، وعلى الجدار بجانبه كانت تتدلى كاكولته وعمامته، وبينها وبين الجدار صحيفة ملصقة الزوايا



بالمدار، وتحت الكنبة كانت كتبه مطبقة لا تفتح قط إلى أن يأتى شهر المذاكرة، فيحملها ويذهب بها إلى عنابر السكن الداخلى الشاغرة، وينقطع للمذاكرة، كما فعل فى عامنا.

***

عصر يوم شتوى كنت جالسًا على سريرى بمقابل سرير الوسيم، نتحدث فيما لا أذكره. كنا ندخن، ولم تكن لدينا فى الشقة مطفأة، وكنا نحاول أن نتذكر، ونذكر أنفسنا، كيلا يلقى مدخن منا عقب سيجارته، ولا حتى رمادها، بأرض الغرفة طلبًا لنظافتها. ولإراحة أنفسنا من الكنس، رحنا نلقى برماد السجائر وأعقابها أولا بأول من النافذة على أرض الطريق. كنا نفعل ذلك دائمًا دون أن ننظر إلى الطريق، ونحن نلقى بأعقاب السجائر من النافذة، عقبًا بعد عقب، ولا تزال بها وقدة من نار.

ذات مرة سقط عقب سيجارة رفيق حجرتى الوسيم على شعر رأس عارية لبنت سمراء حلوة من بنات الحى، تسير مختالة فى الطريق بين وصيفتيها وصديقتيها المقربتين، وهما كالعادة أقل حلاوة وحسنًا ومظهراً. وصرخت البنت حين أحست بشيء يسقط مستقراً على رأسها، بعد أن تحسست رأسها، فلسع العقب المستقر أصابعها. نفضت رأسها ورأت العقب بناره تحت قدميها على الأرض، فصرخت وصوتت وولولت، وتجمع الناس، وأطللنا من النافذة لنرى ماذا جرى، فرأينا جمعًا مقبلا من أهل الحى دفاعًا عن شرف ابنة الحى، بأيديهم وعصيهم.

كانت ابنة صاحب مستوقد للفول بطرف الحى، وكانت فى نزهتها العصرية يوم جمعة. سارعنا بإغلاق النافذة والباب، وكتم الأنفاس، كأن أحداً ليس بالشقة، وكأن لا صلة لنا بعقب السيجارة. سمعنا تصايحهم فى الشارع. وسمعنا تصايحهم وهم يقتحمون البيت. وفوجئنا بهم يضربون

الباب بأيديهم وعصيهم، وكنا قد تترسنا وراءه بأيدينا وأجسادنا. هم يدفعونه ونحن ندفعه وندافعهم. وفجأة رأيناهم يتوقفون. ويتشاكون إلى حضرة ما من الحضرات التى لا نعرفها. ساد الصمت لحظة. وسمعنا صوت الحضرة يقول لهم:

– دعوا الأمر لى.

وسمعنا طرقًا خفيفًا هادئًا آمرًا يقول لنا:

– افتحوا الباب. أنا ضابط شرطة جاركم.

امتثلنا. وفتحنا الباب. ودخل هو وحده. وحجزهم عند الباب بإشارة من يده قائلا:

– لو دخل حد حيبقى تعدى، ومتهم، وحاخده تحرى.

والتفت نحونا، وسألنا عما حدث، فاعترف له الوسيم بأنه لم يقصد أحدًا، وبأنه لم ينظر إلى الطريق، حين ألقى عقب سيجارته من النافذة المفتوحة. وضحك الضابط وقال للناس:

– غلطة ما تستاهلش الهيصة دى كلها.

والتفت إلى الوسيم، وقال له ضاحكًا:

– حابعت لك طفاية علشان ما ترميش عقب السيجارة تانى فى الشارع.

والتفت إلى الناس، وقال لهم:

– خلاص روحوا بيوتكم: صافية لبن وكلنا جيران.

فقالت البنت السمراء محتجة، وهى تنظر إلى وسامة الوسيم:

– ما ينفعش يا حضرة. لازم يعتذر لى. قصدى يعتذر لينا كلنا.

فتقدم الوسيم نحوها ضاحكًا قائلا:

– بس كده.

ومد يده إلى رأسها قائلا:



– وادى راسك أبوسها كمان.

فصاح به من ظنناه أبوها قائلا:

– نزل إيدك أحسن أقطعها لك. واحترم نفسك.

ثم قال للضابط:

– علشان خاطرك بس يا سعادة البيه.

وانصرفوا تباعًا. وكانت الست زينب صاحبة البيت على بسطة السلم تراقب الموقف كله. وحين هم حضرة الضابط بالانصراف، لم ننتبه إلى ما يجب علينا فعله لحضرته. فقالت الست زينب محتجة للضابط:

– ودى تيجى يا حضرة الضابط. دا احنا زارنا النبى. حاعمل لكم شاى بإيدى.

ودعوناه للدخول، ولم يكن لدى أى منا كرسى واحد بالشقة. فجلس معى على سريرى. واجتمعنا حوله. وبدأنا التعارف. وكانت أذن الست زينب تتنصت، وهى تصنع الشاى لما نقوله باهتمام. ووعت من بين عناويننا فى ذاكرتها اسم السنبلاوين، وعمل والد الوسيم فى السنبلاوين، وكان أشهر من نار على علم بها.

★★★

ظهر يوم جمعة عدت من نزهة خلوية فى مدينة الزقازيق. كانت النزهة على طريق المعاهدة، فوجئت حين بلغت باب شقتنا بالست أم زميلى الوسيم جالسة مع الست زينب فى الشموسة أمام باب شقتنا المفتوح، بجوار حوض غسيل الحلل والأيدى والوجوه. رأيتها وأنا على الدرجة الأخيرة لسلم البيت، أدركت أنها هى. عرفتها على الفور من وجهها البشوش كوجه ابنها، ودمها الحاضر فى بشرة وجهها، وسمرتها القمحية، مثل ابنها، ولم أكن قد رأيتها من قبل. ألقيت بالسلام. فردت السلام بلهجة عاتبة لأمر أجهله، ودهشت

لحضورها إلى مدينة الزقازيق، ومعرفتها لعنوان البيت. قالت لى:

– اقعد يا شيخنا معانا. أنا مش غريبة، ولا انت غريب.

جلست معهما على طرف الحصير متحفظًا، وقدماى مثنيتان تحتى خارج الحصير. قلت لها:

– حمد الله على السلامة.

فقالت لى بذات اللهجة العاتبة:

– الله يسلمك. لسه فيك خير. كويس إنك عرفتنى.

كانت تعرف مثلى أننى لم أرها من قبل، مع أننى كنت أزور ابنها فى بيتها. وفكرت أنها تشبه ابنتها العالية الجاذبية، ولعلها أن تكون هى ابنتها لو صغرت فى السن، أو تكون ابنتها هى نفسها لو كبرت فى السن. دخلت الست أم زميلى الوسيم فى الموضوع رأسًا، وقالت لى:

– بقى احنا أمنا على ابننا معاك، وقلنا ابن ناس طيبين، تقوم تعلمه شرب السجاير، وتعمل له مشكلة مع أهل الحى.

قلت لها باستنكار شديد:

– أنا؟

ولم أضف شيئًا. لم أقل لها أننى حين عرفته كان يشرب السجائر فعلا مثلى ومثل الكثيرين من زملائنا المجاورين، وحين لا يجدون السجائر يشترون الأعقاب من صبية الشوارع، ويفرطونها، ويعيدون لفها فى أوراق البافرة.

وعادت تقول لى:

– ونآمنك يا شيخنا على ابننا تعلمه الخبص واللبص. وفين؟ هنا فى البيت عينى عينك، ومع واحدة من سكان البيت.

لم تكذب فى هذه أيضًا إلا فى نسبتها إلىّ التحريض على الخبص واللبص. لم تكذب فقد رأيت ابنها قبل أسبوع بعينى، وهو ممدد فوقها على



سريره السفرى بالعرض علانية، وفى عز الظهر، وباب الشقة مفتوح، ونافذة الغرفة مفتوحة. رأيتهما بعينى وأنا عائد أحمل إلى صالة الشقة الحلل والأطباق التى غسلتها بيدى. وتعجبت كيف دخلت هذه التى تسكن تحتنا الشقة، وأنا أغسل المواعين بالصابونة والليفة على الحوض دون أن أراها. ولقد عرفتها من وجهها على الفور وهى تحته. كانت زوجة لرجل نجار مقعد، وتسكن معه الغرفة المجاورة لغرفة الست زينب، أراها فى دخولى بيت الست زينب وفى خروجى منه، جالسة أمام باب غرفتها المعتمة، وحدها غالبًا، وأحيانًا مع زوجها المقعد. وخطر ببالى فى لحظة خاطفة أن زميلى الخباص اللباص الوسيم لو أشار إلى الست زينب نفسها لصعدت إليه. وأدركت على الفور ما فعلته الست زينب. وحين طال صمتى قالت لى أم صاحبى:

– سكت ليه. شاركته؟ كنت عارف طبعًا ومشارك، ويمكن انت كمان اللى دبرت طلوعها، وهيه غلبانة، ومكسورة الجناح، والفقر هاريها يا عينى، وواخد من جسمها راق.

ولم أبرئ نفسى، ولم أقل لها ما جرى ولا ما رأيت، فلن أكون فتانًا على صاحبى، مع أننى قرفت منه، ومن مشهده معها، ومجاهرته بالفسق فى عز الظهر، والباب مفتوح، والنافذة مفتوحة، وأنا فى قلب البيت. وعن لى أن أصدمها بقولى إن ابنها بتاع نسوان، قرارى إن كان هنا والا فى السنبلاوين، وإنه فى رأيى لن يتم تعليمه قط بسبب تدليلها له هى وأبوه فى سالف السنين، ولا نجاة له من مصيره.

وانتهزت أول فرصة جاءت إلىّ، حين أقبل ابنها العزيز المظلوم وأنا ظالمه. فنهضت قائلا دون أن أشهد ما سوف يجرى بين الابن وأمه. وقلت:

– حاشترى حاجة من بره وجاى، واسيبكوا تقعدوا سوا شوية.

فقالت لى الست زينب:

– معاك حق. استنه خدني معاك.

فقلت لها بغيظ:

– البيت بيتك يا ست زينب، وكتر خيرك.

وغادرت البيت مسرعًا، ولم أعد إلا في منتصف الليل. وحين عدت وجدت رفيقي في الغرفة ينظر إليّ ضاحكًا، كأن لم يحدث شيء بينه وبين أمه التي سافرت من يومها عائدة إلى السنبلاوين. وقال لي رفيقي:

– حوشنا لك نصيبك من الكباب، تلاقيه في اللفة الورق، وما تنساش تسيب وابور الجاز والع لحد ما انام، وتفضل صاحي لحد ما تطفيه.

كان من عادته ألا ينام إلا على صوت الوابور.

في تلك الليلة بلغ غيظي منه مداه. وقررت الانتقام منه. وضعت سرسوبًا من معجون مزيل للشعر على شنبه الشبيه بشنب جاري كوبر، وأطفأت الوابور، ورحت في عز النوم، وبودي وأنا أدخل في سرداب النوم، أن أكون صاحيًا، وأن أشهده وهو يغسل وجهه في الصباح، ويرى شنبه في كفيه.

★★★

ذات يوم جمعة. صحونا. انتظر الجاحظ العينين أن يفطر معنا فلم يجد فطورًا. سأل فأخبرناه أن الفقر قد زار جيوبنا في الليل، وحين لم يجد شيئًا بها رحل عنا هاربًا. نهض الجاحظ العينين، وصحبنا معه إلى مطعم شعبي بشارع كفر النظام، فأكلت مع الصحبة فولا وطعمية وخبزًا مثل كل المجاورين في معظم وجباتهم. ودفع ثمن إفطارنا من برايز وشلنات بجيبه. ثم صحبنا إلى مقهى بشارع عباس عند ناصية الشارع نفسه، لنشرب معه شايًا بالحليب. فوجئت بعمار المقهى بمن فيه، وظلمته في عز النهار، إلا من ضوء شاحب لمصباح كهربي مدلى من سقف لبد فيه دخان الجوزة والسجائر.



فوجئت بمن في المقهى يتصايحون حين رأوه، وهم يتوعدونه واحدًا بعد الآخر بهزائم منكرة. كانوا في ملابس زرية. فهمت الأمر. واكتشفت مع مرور الوقت بالمقهى أن هذا المقهى هو مقهى النحاسين، وأن كل الجالسين يتجمعون حول مناضد اللاعبين، ويطلبون المشاريب مجانًا على حساب من سيفوز من اللاعبين. فمن يفوز في اللعب يبيع نصف ما يكسبه للمقهى، لحساب من يختارهم من زبائن المقهى، وأشفقت على رفيقنا المجاور الجاحظ العينين من الخسارة في اللعب، فالبرايز في جيبه قليلة، وجيوبنا أفرغ من فؤاد أي عانس. عندها سوف تحدث كارثة له ولنا.

ودار اللعب حاميًا والصيحات بالخسارة والفوز تتعالى حول المناضد، حتى خشيت من تشاجر من بالمقهى. في كل دور كوتشينة على مائدتنا كان الفوز من نصيب الجاحظ العينين. كانت الأدوار كلها ثنائية بين اثنين. وكلما نهض خاسر متوعدًا الجاحظ العينين في المرة القادمة جلس آخر متحديًا له. ولم يخسر الجاحظ العينين دورًا قط، ولم يثبت عليه أنه برغم الاتهامات قد غش مرة. وظننت أن الحظ يلازمه ولا يفارقه. وحين غادرنا المقهى قرب الغروب وزع علينا نصف ما كسبه، واستبقى النصف الآخر لنفسه، وكان نصيبي من نهار يوم قمار واحد جنيهين.

وصار ذهابنا نحن الأربعة كل نهار جمعة واجبًا مرتقبًا ومشروعًا نسعى إليه. ومع الغروب ندخل مطعمًا أرقى لنأكل خضارًا ولحمًا مشويًا وأرزًا وسلطة، ونعود معًا إلى مسكننا لنتحدث ونسمر ونحتفي بالجاحظ العينين. ولم نسأله قط كيف يكسب في اللعب حتى أخبرنا هو بأنه لا يكسب بالحظ ولا بالغش، وأنه يكسب فقط بذهنه الصاحي لما نزل من الورق، وتقديره النبيه لما في يد من يلاعبه من أوراق، ولما لم يسحبه من الورق على الأرض.

ولم أفهم شيئًا من كل ما يقوله، ومن العجيب أن عمرى كله مضى دون أن أعشق المقامرة، على شدة حبى للطعام الشهى.

★★★

صديقنا المجاور عاشق النجوم أو النجمات بمعنى أدق لم يعشق منهن على شاشة السينما سوى الفنانة صباح، كان صوت حديثها أو غنائها يسبيه فى السينما، وكانت فتنته بجسدها وصوتها ترافقه فى أحلام النوم، ولحظات الصمت فى اليقظة، وكان طيفها يطارده أينما ذهب، حتى فى ساعة المذاكرة أو الامتحان. وصار يكتب لها خطابات معجب ولهان، فترسل له صورها صورة إثر صورة، وفى ظهرها توقيعها، إلى أن جرؤ مرة وكتب لها رسالة غرام ساخنة، وفوجئ بها ترسل له صورة أخرى فاتنة لها، ولكامل جسدها، وتطلب منه صورته، فقد تحبه كما يحبها، ويلتقيان.

عندئذ نزل عليه سهم الله، وظل صامتًا وأعطانا الصورة لنراها، ونقرأ ما كتبته بخطها على ظهرها. ونهض إلى مرآة الحلاقة ليرى بها كيف تكون صورته. وعاد ليقول لنا: هى ال.. ال.. ال.. ولم يقل شيئًا بعد إلآته التى لم يبح بها صوته، سوى: تحبنى أنا؟ أنا الصعيدى اليتيم، اللى اللى اللى، ولم يذكر لنا واحدة من إلآته عن نفسه، فرحنا نضحك ونعبث، فهو خفيف الدم والظل، وضاحك العينين والملامح، تقطر ابتسامته عذوبة. لكنه شوح لنا بيده. وانطرح على سريره، وأغرق فى بكاء مكتوم، وجسده ينتفض.

وفى الصيف، رأى عمه شاويش الشرطة صور صباح بين أشيائه، مهداة إليه باسمه، وكان قد رسب فى عامه الدراسى، فضربه علقة ساخنة، ولعن "صباح" و"زمن صباح"، وأقسم له أنه سيجعله عسكريًا فى البوليس. لكن عاشق النجوم سارع بالهرب إلى القاهرة، والوقوف على استديوهات الأفلام



حتى راحوا يأخذونه ككومبارس معهم بين الحين والحين، لكنه لم يلبث أن اختفى عائدًا إلى الصعيد، فلم يقترب قط فيما يقال من معبودته صباح.

★★★

فوجئنا بالضابط جارنا بالبيت المقابل، ظهيرة يوم يقف وراء نافذة مفتوحة مقابلة لنافذتنا، وكنا ننظر إليه ممتنين، وفوجئنا به يرفع لنا جوزة، ويعزم علينا بها، فسارع عاشق النجوم بالإشارة إليه ليأتى، وهز بلدياتى الوسيم له رأسه. وجاء وحده أولا، وجاءت الجوزة والمنقد بعده ثانيًا يحملها شاب بجلباب بدا لى من حذائه أنه مخبر.

أخرج الضابط علبة صفراء مستطيلة مبططة بها نقش بيضاوى أزرق فى قلبه كتابة بيضاء بلغة بدت لى لغة إنجليزية. وفتحها. كانت بها عجينة بنية يابسة مستوية تمام مع العلبة كأنها جفت بها. وأخرج من جيب قميصه مطواة قرن غزال وقطع بها قطعة لتعمير الجوزة، وناولها للمخبر. جهز المخبر الجوزة وعمرها بقطعة الحشيش. وأشار الضابط إلى المخبر فانصرف من البيت. وتولى الضابط بنفسه بقية الجلسة. قال الوسيم القسيم للضابط بعد أن شد نفسًا عميقًا:

- صنف معتبر.

فقال له الضابط بزهو:

- هندى معتبر وحياتك.

سأله عاشق النجوم دون تردد:

- بيكلفك كتير كل شهر؟

فقال له الضابط بتأفف:

- يكلفنى؟ ولا مليم. دى مقطوعية ع القهاوى والتجار. ويا الدفع يالحبس. احنا بنلعب. احنا الحكومة.

ودارت الجوزة بين الأيدى كل نهار من العصارى إلى المغارب. وبدأت رحلة الفساد مع الحشيش يومًا بعد يوم، ولم تقدر صاحبة البيت أن تقول شيئًا لنا خوفًا من حضرة الضابط. فقط سارغت صاحبة البيت بكتابة رسالة أخرى دون توقيع إلى والدة بلدياتى الوسيم، فسارعت بدورها بالحضور إلينا مرة أخرى، وصبت كل غضبها نحوى، فأنا بلدياته العاقل والشيخ ابن الشيخ. وكنا نستعد لشهر المذاكرة. فتركنا متاعنا أمانة عند صاحبة البيت، وعدنا معها.

رفيقى الوسيم فى السكن. فشل فى إكمال دراسته بعد الابتدائية لكنه صار بها وقورًا معممًا، وحل محل أبيه بعد أن ودع أبوه الدنيا. لم أتعلق بالحشيش لحسن حظى. ولا أعرف حتى اليوم كيف نجوت منه، لأكمل تعليمى بالأزهر حتى النهاية، مع قلة تظن نفسها ناجية.

***

لم ألبث وقد عشت صيف العام الماضى محرومًا مع إخوتى من زيارة قريتنا أن وجدت نفسى أعيش محنة أشد، وأنا بمدينة الزقازيق فى شقة الست زينب. فقد جاء إلىّ خطاب من أبى أعطته لى الست زينب، وحين قرأته أرعبنى ما ورد به، فسارعت بإخفائه مرارًا، مرة فى كتاب، ومرة فى طية لباسى، ومرة تحت المرتبة، حتى لا يقرأه أحد من رفاق الشقة المجاورين. وفى كل مرة أتذكر أصوات صبية يتغنون: عواد باع أرضه يا اولاد. شوفوا طوله وعرضه يا اولاد. وفى كل مرة أعود إلى خطاب أبى لأقرأه من جديد، حتى أصدق ما ورد فيه. وخشيت أن أنسى ذات مرة أين خبأت خطاب أبى، ويقع فى يد أحد من رفاقى فى السكن.

شعرت بالفجيعة الكبرى التى ستصيب كل أقاربى فى القرية حين يرأوا أبى يبيع بيت جدى، وأى بيت؟ بيت الأسرة الكبير، جداً بعد جد، والذى



ميزه جد أبى بأن يكون البيت من نصيبه وحده، ليس فقط لأنه أكبر إخوته سنًا، ولكن لأن جدى هو أيضًا أعقل إخوته الذكور الخمسة، وأكثرهم أناة وحصافة ووقارًا وحكمة.

وزاد شعورى بالفجيعة حين فكرت فى فجيعة جدى الهرم الذى صار يقترب من التسعين من عمره، أو لعله جاوزها. ها هو بيته يباع. وغدا ستباع أرضه قطعة بعد قطعة، ويخيب أمل أبيه الراحل وإخوته الأحياء فيه. أعرف جدى. أعرف كيف سيفكر. فقد طالما فاجأ أحدنا الآخر بأن الآخر يفكر فيما يفكر هو فيه. أقول له: باقول إيه يا جدى، ويقول لى: باقول لك إيه يا ابو داود. وأصيح به: انت بتقرا اللى فى راسى. ويضحك جدى ويقول لى: عرفت ازاى اللى انا بافكر فيه.

وأحسست فى هذه اللحظة أن جدى سيودع الدنيا فى صيف هذا العام.

لم أرد على رسالة أبى غضبًا منه، ولم أسافر إلى السنبلاوين لزيارة الأهل كعادتى كل شهر. وكان أبى يرسل إلىّ مصاريف الشهر مع المسافرين العائدين من المجاورين، وترسل أمى معها زوادتها المعتادة التى صارت فى فمى بلا طعم. فقد ضاع بيت طفولتى ومرتع صباى، ولم يعد لنا من مكان فى القرية سوى مكان الغريب والضيف. ورحت أحاول تلمس المعاذير لأبى فى بيع البيت الكبير، ولا أظن أنه جرؤ على بيعه إلا بموافقة جدى وإقناع ابنه الوحيد له.

صحوت من نومى مكتئبًا. كنت لا أزال أعيش تحت وطأة شعورى ببيع البيت. هممت بالبحث عن رسالة أبى إلىّ. تذكرت أننى قد أتلفتها. حدثت نفسى أننى صاح لتوى من نوم، وأن حكاية البيت كانت حلمًا بل كابوسًا، وأن لا شيء من ذلك قد حدث. فحسب جدى ما يعانيه من شعور بالوحدة

والضياع حتى وهو معنا. صار بيتنا مجرد رجل عجوز، ينتظر النهاية. نزع من أرضه، ومن شعوره بوجوده القوى بين بيوت ألفها، وناس يعرفهم ويعرفونه، ويعرف الكل فيه تاريخ الكل، وبالقرب من أرضه التى يملكه وحده ولا يملكها أحد أخر. وحمله أبى على الرحيل عن القرية بحجة الحج إلى بيت الله الحرام، وغايته هى رعايته وسط أحفاده، ومن يومها اغترب جدى عن سماء اعتاد على تقلباتها، وأرض يعرف حشراتها وتعرفه، وناس يحتاجون إلى مشورته. الآن من يطلب مشورة جدى؟!

وأنا أغادر باب بيت الست زينب، وكان الوقت ضحى فى طريقى إلى مقهى البوسفور، نادت الست زينب عليّ من خلفى. ارتددت إليها خطوة، فناولتنى رسالة لى من أبى، ذكرت لى أنها وصلت اليوم فقط من ساعى البوستة. هممت بالتوقف. سيطر عليّ للحظة أن ما رأيته فى نومى أو كابوسى يتحقق. حدث ذلك معى من قبل مرات قليلة. لكنه حدث، وكان يحدث ويتكرر كل حين ومين. هممت بفتح خطاب أبى. أعرف خطه الحاد، الخط المتثبّت المحاذر المرتعش على مظروفه، كأنه سيقع فى حفرة، أو يغرق فى بحر. سمعت الست زينب تقول لى وأنا ما زلت أتوجس خيفة من فتح الخطاب، وأنظر إلى خط أبى لأتيقن أنه منه، مع أنه يقول على الظرف ولدنا العزيز الشيخ... بارك الله فيه. تقول لى:

– خير إن شاء الله. افتحه وطمنى.

ركبنى الخوف بشدة فى تلك اللحظة من فتح المظروف. وقلت لها:

– كل خير إن شاء الله.

وابتعدت مسرعًا، وجواب أبى فى يدى. لكننى لشدة قلقى وخوفى من تحقق حلمى. توقفت فى عز الضحى، ووقدة الضوء النهارى، مسندًا ظهرى إلى عمود نور على رأس الحارة التالية. وفتحت رسالة أبى. لم يقل لى سوى



أنه باع بيتنا الكبير بالقرية بموافقة جدى، وبشرطه فى أن يظل البيت تحت يد أبى، ولا يسلم إلى من اشتراه إلا بعد عمر طويل له، فهو يريد أن يحمل من البيت الكبير إلى حيث يرقد كل الراحلين من عائلتنا.

أراحنى ذلك للحظة خاطفة، واطمأنت على جدى لأمر لا أعرفه، لكننى أدرك وجوده. وقال لى أبى فى نهاية خطابه، إنه قد قبض الثمن تسعمائة جنيه، واشترى به بيتا يكون ملكًا لنا فى السنبلاوين، ونسكن فيه دون أن ندفع أجرًا يأكل ثلاثة أرباع راتبه الشهرىّ، ثلاثة جنيهات كاملة.

***

حين جلست على مقهى البوسفور رثيت لحال أبى معنا نحن بنوه وبناته. شعرت بالذنب لأننى آخذ منه لتعليمى فى هذه المدينة البعيدة الربع الباقى من راتبه كل شهر. كدت أبكى. أدركت أيضًا أنه يواجه متاعب مع أعمامه الذين يستأجرون أرض جدى، منذ أن رحل جدى عن القرية، وربما يتلكأون ويسوفون فى دفع إيجارات لا تزيد عن أربعة عشر جنيهًا للفدان الواحد. وعرفت فى تلك اللحظة السبب فى كثرة تردد أبى على القرية بين شهر وآخر. وأيقنت أن سبب هذه السفرات، هو بحث أبى الدائم عن المال لإعالتنا وتعليمنا، ولدًا مع ولد وبنتًا مع بنت.

وانتبهت فجأة إلى أن أبى هو أول رجل فى القرية يعلم بناته بعد التعليم الأولىّ، وقدرت له فى تلك اللحظة على قسوة ما يعانيه يومًا بعد يوم، وشهرًا بعد شهر، أنه يصر، وسوف يصر، على مواصلة تعليمه لإخوتى البنات، مثل الصبيان سواء بسواء إلى النهاية، وسوف يرفض زواج أى منهن قبل تخرجهن واحدة بعد واحدة. كيف؟ والأعمار بيد الله؟ والمصائر، مصائرنا، نحن أبناؤه وبناته، بيده أيضًا فى علم الغيب؟ وزاد من حزنى أننى وعيت فى لحظة خاطفة، أن جدى حين يودع الدنيا، وقد بات ذلك قريبًا ومنتظرًا

ومخيفًا، سوف تسارع بناته الثلاث، أخوات أبى المتزوجات، إلى طلب ميراثهن عن أبيهن من أبى، ثلاثة أخماس أرض جدى.

وتوقفت مع نفسى حائرًا بالمقهى، أفكر فى أن راتب أبى، هو حامل ثانوية الأزهر، لم يزد عن أربعة جنيهات وستة عشر قرشًا، وأن أبى يثق فى قرارة نفسه بعون الله، وليس عليه سوى أن يصبر. وتذكرت أن أبى متصوف من مريدى الطريقة التيجانية المغربية، وحدثت نفسى أن المتصوفين هم أكثر الناس حبًا للبنات، ورعاية للنساء زوجات كن أو بنات أو أخوات أو جاريات. وتذكرت حديثًا للرسول لا أذكر أين قرأته عن الوعود بالثواب العظيم لمن يرفق بالقوارير، ويعلم القوارير، ويرعى القوارير، وهن هشات سريعات الكسر.

وعزيت نفسى فى جلستى بأنه سيعين أبى على العيش بعد رحيل جدى، أجره كناظر وقف على أربعة أفدنة أوقفها عم لجدى، أحب أبى، ووثق بأبى، لأنه طالب علم بالجامع الأحمدى، وكان بلا ولد. ويقولون إنه مات وله من العمر مائة وست عشرة سنة، وقد عين أبى ناظرًا لوقفه. وخصص إيراد وقفه لرعاية قبره بين القبور، وعمل عتاقة سنوية لقاء تلاوة القرآن على روحه، طلبًا لرحمة الله، من أربعة مقرئين يقرؤونه طوال أربعة أيام، ويختمونها فى كل يوم مرة.

وتذكرت فى دهشة ما لم أتوقف عنده قط من قبل. المقرئون الأربعة كانوا يأكلون اللحمة مع الفتة هبرًا هبرًا فى الغداء والعشاء والفطير المشلتت والعسل الأبيض والجبن الحادق واللبن الفائر بزبده، المحلوب لتوه فى الصباح والعشاء. ولم أعرف مصير هذه العتاقة السنوية التى شرطها عم جدى، بعد رحيلنا عن القرية، فأعمام أبى لن يفوا بها على الوجه المطلوب، خصمًا من إيجارهم للأفدنة الأربعة. وكان أبى منذ رحيلنا عن القرية يواصل



كتابة جداوله لإيرادات أرض الوقف، ونفقاتها، وأوجه صرف ريعها، وحقه فى نظارته لها، ويرسلها كل عام إلى إدارة الوقف الأهلى بوزارة الأوقاف.

وعدت إلى رسالة أبى لأعرف من ختامها عنوان بيتنا الملك الجديد بشارع عبد المنعم بالسنبلاوين. وخوفًا من وقوع الخطاب فى يد أحد من رفاق السكن، أخرجت سيجارة وأشعلتها بعود ثقاب، وأشعلت النار فى الرسالة بما بقى من نار عود الثقاب. وتغنيت بصوت مكتوم من أنفى بقول الشاعر: دع المقادير تجرى فى أعنتها. لكننى رحت أتصور البيت الكبير داخل خيالى ركنًا ركنًا وجدارًا جدارًا. وأستعيد ما عشته بينها من ذكريات صباى وصحتى ومرضى ويقظتى ونومى دون أن تدمع عيناى تحت وطأة حزن، سيقيم فى نفسى عقودًا من الزمان.

عز عليّ كل ما حدث ويحدث، وما سوف يحدث لنا، فدفنت نفسى فى القراءات الحرة، وحضور دروسى والمذاكرة، ومع ذلك لم أحرم نفسى من متع الخطابة فى الخلاء ودور السينما فى الليل، ونفذت ما عشته فى حلمى الطائش، ألا أسافر إلى أهلى إلا مع شهر المذاكرة. وكنت أعيد صفى الابتدائى الثالث بالمعهد الدينى.

★★★

حدث ذلك فى العام الشهير بعام صدقى بيفن. انتشرت الكوليرا فى أرجاء مصر، إثر عودة الحجيج إلى مصر قادمين من مكة عبر البحر فى العبارات، وقوافل الصحراء التى اجتازت بالحجاج المصريين والمغاربة والسودانيين طريق الساحل الشرقى للبحر الأحمر، والعقبة، وسيناء. وربما مع راكبى الطائرات من محدثى النعمة فى سنوات الحرب. وصدرت أوامر الحكومة ووزارة الصحة بإغلاق كل محافظة على أهلها، وتوقف المواصلات بينها إلا لعربات الحكومة.

وجدت نفسى وقد صرت وحيداً فى مدينة الزقازيق. مئات المجاورين من رفاقى، وربما كلهم، عداى، وجدوا وسيلة أو أخرى للعودة إلى مدنهم وقراهم فى مديريات الشرقية والدقهلية ودمياط. توقفت قطارات السكك الحديثة السريعة، وقطارات الدلتا، وحتى السيارات الخاصة والأجرة، والحمير، والجمال، والبغال، وعربات الكارو. وصار البلح الأحمر والرطب فى موسم البلح لا يجد من يشتريه. وعز على الكل العثور على حبات الليمون لتطهير الخضروات والبلح للصمود فى وجه الوباء القادم من الأراضى المقدسة، والزاحف مع الموت على الناس بانتظام فى البيوت والمستشفيات، لا يجدى معه شىء لإيقافه سوى الأمصال على قلة الأمصال، ولا توقفه حبوب السلفا، ولا المياه المغلية، ولا تكفى لصده صلوات المصلين فى المساجد، ولا جلسات الدعاء بكلمة: يا لطيف بين صلوات الغروب والعشاء كل مساء. صارت مصر كلها أرضاً موبوءة، تتحدث عنها الإذاعات وصحف العالم وصحف القاهرة والجيزة والصحف الإقليمية فى المدائن الصغيرة.

وجدت نفسى وقد صرت وحيداً فى مدينة الزقازيق، ورفاقى المجاورين قد سارعوا بالفرار من مدينة الزقازيق، كل على طريقته، والكل يقول: ياللا نفسى يا روح ما بعدك روح، وأنا ومن بعدى الطوفان. أنكر الكل وجود الكل، وصار الكل ينظر بخوف إلى الكل، فالكل حامل فى نظر الكل للوباء، وللموت السريع الذى لا فرار منه لو ذهب من الغير إلى الغير، مع الهواء، والخضروات والفواكه، والأوانى والفناجين والأكواب، وحتى عطاس العاطسين.

وعجبت لأن الحركة بمدينة الزقازيق لا تزال مستمرة، من حولى. المحلات مفتوحة تبيع وتشترى، والناس يروحون ويجيئون، والسيارت تجرى فى كل اتجاه، والناس الناجون جلوس على المقاهى، كأن الموت الأصفر لا يزور لهم



بيتًا، ومع ذلك كان ثمة خلاء يحس ويرى، ويلمس ويشم، ويسمع صوته فى كل طريق. فالجنازات تمر بين حين وآخر على ألواح الخشب، مربوط عليها الموتى بالحبال كى لا تنزلق فى الطريق، ووراءها تسير قلة محدودة العدد من الأهل، وأمامها الناعون يرددون صوت الأبدية: هوه الواحد هوه الباقى هوه الدايم ، ولا أحد ينهض من مقهى للمشاركة فى جنازة طلبًا لكسب الثواب، وصارت المقابر كلها مقابر للصدقات، لا مقبرة منها بعينها لأحد دون أحد.

ولم أجد بجيبى بعد يومين سوى قرشين ونصف قرش، كانت هى أجرة العودة بقطار الدلتا لو كان هناك قطار. لا شىء لى فى مدينة الزقزقة من طعام أو شراب. لم يكن أمامى سوى الرحيل، اليوم قبل الغد، والساعة قبل الساعة التالية.

لعبطى أثقلت على نفسى. جمعت كل ثيابى وكاكولتى وعمامتى فى حقيبتى الجلدية، وصنعت لها حبلين على الجانبين أوثقتها بهما. وأدخلت ذراعىّ فى الحبلين، وحملتها على ظهرى، وسرت بها مثقلا مجتازًا طول المدينة كلها، حتى وصلت نهاية كفر يوسف، وعنده كانت تنتهى حدود المدينة. أنزلت الحقيبة عن ظهرى، وجلست فوقها لأستريح فانبطّت تحتى. وفكرت فى تركها، ولكن من أين لى بثياب غيرها لو فقدتها، رحت أحاول ترميم فتوقها، وعدت أحملها على ظهرى، وأزعجنى الحذاء فى قدمى، وخشيت بلاه، فخلعته من قدمى، وعلقته بحبل على ظهرى.

حين وصلت حدود مديرية الشرقية الشمالية كنت فى غاية التعب. وانفرش تحتى قدماى، وبات كل شىء فىّ يوجعنى من القدمين إلى الكتفين. توقفت عند قناة يجرى بها ماء فى أرض تسقى، ورحت أغسل من جسدى كل ما أتيح لى منه، لأزيل العرق والأتربة، وأبرد سخونة الجسد، وتركت

قدمى منقوعتين فى الماء زمنًا. تجولت بعينى فيما حولى، ورحت أتعجب لما أراه من صراع الحياة مع الموت. كان الفلاحون فى الأراضى يعزقون، ويروون، وينزعون الأعشاب الضارة، ويشربون من مياه القلل، وكانت الطيور تحط وتطير وكأن لا موت فى الدنيا. وعلى البعد رأيت كمين رجال الشرطة متناثرًا على الطريق، وشريط القطارات التى لا وجود لها لمنع الانتقال بين مديريتين.

جبت بعينى المكان للهرب من الكمين وأنظار مَن فيه. وكى أخفف عن نفسى حمل الحقيبة، أخرجت أهم ما بها عند أبى: الكاكولة والعمامة والكتب، وأضفت لهما الحذاء ولففتهما فى جلباب، وربطته بحبل علقته فى رقبتى وذراعى على ظهرى، وسرت خفيفًا على جسر بين الغيطان الممتدة، وكأننى من أهل الناحية، ثم انعطفت إلى أرض المديرية الأخرى، مديريتى، حتى ابتعدت كثيرًا، وعندئذ انعطفت ناحية قضبان القطار من جديد، أملا أن أجد قطارًا آخر يتحرك بين قرى المديرية ومدنها فى اتجاه السنبلاوين. وعجبت لحدود موهومة بين مديريتين، فالأرض الزراعية كلها واحدة ومتصلة، وحتى المياه التى تجرى فيها متصلة، والأشجار بها صفوف متصلة، والطيور فوقها تروح وتغدو.

سرت طويلا بحذاء رصيف القطار على طريق مترب دمكته الأقدام والحوافر والعجلات. مررت بالقرى قرية قرية. كانت محطات القرى كلها مغلقة، ولا قطار واحد واقف بها، ولا قطار واحد سيأتى ليحمل راكبًا. مل بصرى من وهج الضوء. وزعق وجع قدمى فى رأسى، وأنا أسير سير زاحف القدمين. الخطا متباطئة وقصيرة. أخطو وكأننى أزحف. أتكفأ مترنحًا فى خطوى ولكننى لا أتوقف، والشمس تنحدر صوب الغرب فوق رأسى، والطاقية فوقها يجف عرقها أول بأول. حتى الناس اختفوا من



الغيطان، ولجأوا إلى ظل الحظائر والأشجار، ولا طير واحدًا يُرى فى الفضاء الطباشيرى من فوقى. لا شيء من حولى سوى وهج ضوء يرتعش على الأرض، وفى رأسى يدوى طنين أذنى، منذرًا لا محالة بصداع قاتل، لا قبل لى به من ضربات الشمس.

بلغت مشارف مدينة ديرب نجم فى منتصف الطريق. رأيت فى المدى القريب ميدان محطتها والقطارات واقفة مخزنة بها. اقتربت منها. كانت كلها مغلقة النوافذ والأبواب عبر القضبان الأربعة الوحيدة بها. بحثت فى ميدان المحطة عن محل للبقالة. توقفت أمام محل. اشتريت بتعريفة زجاجة كوكاكولا. نصحنى البقال حين عرف خبر صداعى بلحس ملح حتى لا تقتلنى ضربة الشمس. اشتريت من البقال بمليم واحد حفنة ملح أبيض ناعم فى قرطاس من الورق. سففت منه على ملوحته الزاعقة سفّتين، وأتبعتهما بجرعة كوكاكولا كبيرة. وحل بى التعب والرغبة فى النوم، انهرت جالسًا فى ظل تندة محل البقال، وفى حجرى كانت صرتى، ودخلت لفورى فى إغماء كالنوم. لم أشعر بشيء مما حولى. ولم أذكر حين صحوت أى كابوس أو حلم. كنت ميتًا حقًا موتًا لا أدرى معه أكنت أتنفس حقًا، أو يجرى فى عروقى دم، أو ينبض بى قلب.

عدت إلى الحياة حين هزنى البقال هزات متلاحقة لأبحث عن مكان آخر أنام فيه. حذرنى من شرطة ديرب نجم فقد يظنونى من ضحايا الكوليرا، ويحملوننى إلى مستشفى، أو مقبرة، وقد يشتبهون بى ويلقون بى فى تخشيبة القسم. وراح يسألنى وهو جالس بجانبى: من أين أنا ومن أين أتيت وإلى أين أذهب. ظننت أنه سيصحبنى لأبيت عنده إلى أن يطلع نهار يوم جديد، لكنه أشار بيده إلى القطر الواقفة، ونصحنى أن أذهب بسرعة إلى عربة قطار وأنام بها، قبل أن يأتى منتصف الليل، وتحملنى عربة شرطة، أو تجرنى يد شرطى إلى القسم.

أنزل البقال باب الصاج على محله، ومضى مبتعداً عنى فى حارات ديرب نجم. نهضت واقفًا بصعوبة، وظهرى ينقح بطوله عليّ. اتجهت متحاملا على نفسى إلى قطار يختفى وراء قطار حتى لا يرانى أحد وأنا أختفى بداخله. كنت خبيراً بالقطارات أنا الذى طالما سطحت على القطارات الذاهبة إلى الإسماعيلية، أو الذاهبة إلى السنبلاوين، أو العائدة منهما، مع أننى فى كل مرة أحمل تذكرة سفر، أسطح لمجرد التسطيح لا غير، ورؤية الصحراء والأشجار والترع والقنوات.

باب العربة التى اخترتها لنومى بوسط القطار مغلق، ونوافذ العربة مغلقة. ولخبرتى بركوب القطارات، وطريقة فتح نوافذه من الخراج باليدين من الجانبين، ضغطت بأصابعى أسفل نافذة من ناحيتيها معًا، ورفعتها بكل عزمى إلى أعلى، وتشبثت بكفى بحافة النافذة، ورفعت جسمى، ودلقت نفسى داخل العربة، سقطت بين مقعدين، وارتطمت رأسى بحافة مقعد خشبى. جلست لاهثًا على مقعد. بادرت بإغلاق النافذة كما كانت. انتظرت محدقًا فى الظلمة.

اعتادت عينى ظلمة العربة، ساعدتنى ضياء الأعمدة الشاحبة بالمحطة المتسلل عبر شيش النوافذ على رؤية الرفوف العليا للعربة التى يضع عليها المسافرون مقاطفهم وقففهم. تعلقت ومعى صرتى برف منها حتى إذا دخل أحد العربة لم يشعر بوجودى بها، وضعت صرتى تحت رأسى، ونمت على جنبى، وثنيت ساعدى، ورحت فى النوم، راجيًا ألا أشخر فى نومى فيسمعنى أحد، ويظننى لصًا من لصوص القطارات، أو مصابا هاربًا بالكوليرا.

★★★

حين صحوت، نهار يوم جديد، كان الضوء يرى عبر شيش النوافذ



ساطعًا، وشعرت بالجوع لأول مرة. سارعت بمغادرة العربة من النافذة مرة أخرى، سرت بين العربات والقضبان أتلفت حولى. توقفت لحظة. جلت بعينى فى واجهة البيوت والمحلات بديرب نجم، باحثًا عن مطعم حتى رأيته أمامى متألقًا، يشع بالشبع والرى. كان معى قرش صاغ وأربعة مليمات. اشتريت نصفى رغيف أحدهما عامر بالفول والزيت والدقة، والآخر عامر بالطعمية. وطلبت من الفوال لفهما فى ورقتين. وطلبت منه ماء شربته إلى آخره، وزجاجة ماء ملأها الفوال لى بالماء لأستعين به على السفر. أخذت درسًا من عطش البارحة. عدت أطلب من الفوال حفنة شطة. ، ظننت للحظة أنا الذى أكره الشطة، بل أفزع منها، أن الشطة تقتل أى مكروب بالجسد. دهش الفوال لطلبى، فالفول عليه دقة بالشطة، لكنه أعطانى ما طلبت فى ورقة مطوية. سكبت الشطة على الملح فى قرطاسه، ودسسته فى الصرة. جلست على الرصيف المترب بادئًا بأكل سندويتش الفول قبل أن يسيل زيته. أتيت عليه سريعًا. هفّتنى نفسى لأكل ساندويتش الطعمية، لكننى أثرت الاحتفاظ به لجوع أخر، بطريق لا أعرف متى ينتهى.

واصلت السير مرة أخرى بحذاء شريط القطار، تحت شمس ساطعة، غارقًا فى عرق لا يتوقف، ولم أعد أبالى بتجفيفه، ولا بما يلتصق به من غبار الطريق وأتربته. بين لحظة وأخرى أجرع جرعة ماء، وألحس لحسة ملح بالشطة، وأعيد القرطاس مع الزجاجة إلى جانب الصرة فى يدى. ومرة أخرى رأيت كمينًا درت حوله فى المزارع، ثم عدت مرة أخرى إلى جادة الطريق، ورحت أواصل السير لأصل إلى نهاية الأرض.

لاحت لى أخيراً نهاية الأرض وبدايتها، فبها بيت الأهل والأب والأم والإخوة والأخوات، والبيوت التى أعرفها، والشوارع والحارات التى آلفها، والصحب الذين أحبهم والذين أتشاجر معهم. لا يعرف أحد من البشر فضل

ذلك وقيمته إلا من جرب الوحدة، وعاش الاغتراب والشعور بالضياع، وبأنه صار كمًّا مهملا، وكائنًا وحيدًا. رأيت مشارف السنبلاوين تتألق وتترجرج فى عينى كسرابات الصحراء.

عبرت محاذرًا جسر القطار، فوق ترعة البوهية إلى الضفة الأخرى. لم يكن يحمل قضيبى القطارات سوى كمرات ممدة من الحديد، تحملها بغال الجسور المعتادة، تمتد فوقها عوارض خشبية متفرقة بين العارضة والعارضة مقدار خطوة. أحاذر الانزلاق، وأحاذر فقد التقدير لنقل خطواتى من عارضة إلى عارضة، أنا الذى كنت أنافس غيرى من صبية السنبلاوين فى القفز فوقها، رواحًا وجيئة، مع أننى جاهل بالعوم، وأكثر جهلا بمهاراته وفنونه. وحين وصلت إلى الضفة الأخرى للترعة، شعرت بأن روحى قد ردت إلىّ، وأنه كتب لى عمر جديد.

سرت مسافة قليلة على جسر الترعة المترب، وعلى يمينى تمتد الغيطان المروية والمزروعة والجافة وصفوف الأشجار. صار سيرى على مهل، ولم أعد خائفًا ولا ضائعًا. اقتربت من تحقيق حلم الوصول والعودة. فجأة توقفت عن السير بجانب ترعة البوهية، نظرت إلى ساعدى المتربين، وقدمى المتورمتين، ولاحت لى مياه الترعة تتألق وتومض تموجاتها الفضية الصغيرة المتلاحقة فى أشعة الشمس. انحدرت من الجسر مقتربًا من مياه الشط. نظرت حوالى ورائى وأمامى وعلى يمينى وعلى يسارى. لم يكن أحد بالغيطان، أى أحد. لا طير أيضًا ولا فأر، ولا حشرة تراها العين.

وضعت صرتى جانبًا، ونزعت جلبابى ولباسى وفانلتى، وانحدرت بجسمى محاذرًا الانزلاق كلية فى مياه الترعة. وقفت على الطين، ثم جلست فوقه فى حذر. رحت أنظف وأدلك جسمى بمياه الترعة الجارية الصافية، وأغسل وجهى ورأسى بحفنات الماء المتلاحقة حفنة بعد حفنة. شعرت فجأة



بمدى جبنى. حدثت نفسى، بل صحت فى نفسى إلى متى ستظل جبانًا. لم أكذب خبرًا تحدثنى به نفسى. ابتعدت بقدمى قليلا قليلا فوق الطين عن شاطئ الترعة، حتى بلغ الماء أسفل رقبتى، غطست بكلى فى مياه الترعة، وشهقت صاعدًا برأسى بسرعة فوق ماء الترعة. يرعبنى دائمًا رهاب المياه. كررت ذلك مرارًا.

وقعت عيناى على الشاطئ. كنت قد ابتعدت عنه أكثر مما قدرت. ركبنى الخوف. بحثت عن الطين تحت قدمى. اختفى الطين فجأة كأنما انزلقت فوقه، أدركت أن الماء الجارى يجرفنى إلى وسط الترعة. فجأة اتخذت قرار الرعب الذى لا مفر منه للنجاة بروحى وجسدى وسط كل هذا الفضاء الرجراج. غصت بكلى، كاتمًا نفسى، إلى قاع الماء. بلغت الطين. سرت زاحفًا تحت الماء على قدمى وكفى باتجاه الشاطئ. وكلما أحسست بالحاجة إلى التنفس، هربت من دوار الغوص ومتاهته وضيق النفس إلى سطح الماء، أضرب طين القاع بقدمى فيطفو جسمى مترنحًا واقفًا، وأنظر إلى صحة توجهى إلى الشاطئ ومدى قربى منه، وآخذ نفسًا عميقًا، وأعود إلى الهبوط فى قاع الترعة، والسير فوق الطين على قدمى وكفى.

بلغت شاطئ الترعة زحفًا فى القاع. سارعت بالصعود. وجلست بجانب ثيابى ألهث وأرتعد. جف ما بى من ماء فى عز الحر. نفضت ثيابى وارتديتها. شعرت بالجوع. فكرت فى ساندويتش الطعمية لكن نفسى قد سدت، وكانت الطعمية قد أنتنت. تمضمضت مرارًا بالماء. ونهضت عائدًا نظيفًا كامل النظافة إلى مدينتى.

★★★

يومان لا غير مرًا على عودتى إلى أهلى. شفيت قدماى المتورمتان من رحلة الهرب، واستطعت لبس حذائى الذى نجا معى من رحلة السفر.

وسارعت بالخروج إلى الشارع من بيتنا بعزبة حبيب. وأمى توصينى بعدم أكل أى شيء فى الشارع من أى أحد، فالكوليرا لا تزال تفتك بأهل السنبلاوين فتكًا. والمصل لا يكفى لنجاة أحد من خطر الكوليرا.

على مقهى العدل التقيت بشباب لا أعرفهم صحبونى معهم لحماية مداخل السنبلاوين من أهل القرى الوافدين عليها. كان رجال الشرطة ورجال الصحة يسارعون بالهجوم على أى بيت بالسنبلاوين، وأخذ من به من المرضى أيًا كان مرضهم، ورميهم بمستشفى المدينة، وكان الناس يسارعون بتهريب مرضاهم فى أكوام القش على السطوح، أو عبر الحارات من بيت إلى بيت، فى ظلام الليل، أو فى ضوء النهار، فالموت عندهم بيد عزرائيل أرحم من الموت بيد حكيم. كان قد شاع بين أهل السنبلاوين أن من يدخل المستشفى لا يخرج منها حيًا، ولا يعرف أحد من أهله عنه خبراً، ولا له مثوى.

عند مدخل القرية المؤدى إلى قرى نوب طريف وطوخ وقفنا، جاءت وقفتنا فى وقدة الشمس لحماية مدينتنا من سكان القرى. رحنا نصد كل قادم على قدميه، أو راكب لحمار، ونرفض كل رشوة. ومن بعيد جاءت تخطر بحصانها الأبيض حسناء مكشوفة الذراعين إلى الكتفين. لم تر عيوننا فتاة فى مثل جمالها. تركناها حتى اقتربت، وأحطنا بها فى لهفة، ولم يجرؤ أحد منا حتى على لمس حصانها بإصبعه. طلبت المرور بحصانها لتدخل السنبلاوين فرفضنا بشدة، ولم نلبث أن اختلفنا حولها فيما بيننا. فمثلها جمالا ونظافة وعافية لا يمكن أن تكون مصابة بالكوليرا. وحين يئست منا أدارت حصانها، وعادت به راكضة عائدة إلى بلدها، ورحنا نلوم أنفسنا حينًا، ونحاول التخمين حينًا، ابنة مَن تكون من أهل القرى والعزب، ولا عهد لأحدنا بمثلها.



فى اليوم الثانى وقع الاختيار علينا من المشرفين على المتطوعين بالسنبلاوين، لنكون فى خدمة المرضى بالمستشفى المركزى وسط المزارع خارج السنبلاوين، فالمستشفى بحاجة إلينا، والمرضات والمرضى والتمورجية بحاجة إلى مساعدتنا.

لم يكن عنبر بالمستشفى ولا سرير به شاغراً من مريض. وكانت العنابر تضج بصيحات المرضى فى الطابقين، وكان التمرجية لا يكفون عن التنظيف لممرات العنابر من القيء والإسهال المراق به، ورفع الملاءات الملوثة وتغييرها بغيرها، وبين حين وآخر نرى ممرضة تمر على العنابر، وتأمر وتنهى. واكتشفنا أن كل المطلوب منا أن نريح الممرضات من هذه المهمة أيضًا، ونأمر التمرجية مثلهن وننهى. ونادراً ما رأينا طبيباً يمر على عنبر، أو يرى أى مريض، فى ورديتى الليل أو النهار.

ومع الصباح نجد معظم الأسرة خالية، ولا مريض بها، ومع الظهيرة تمتلئ الأسرة والعنابر بمرضى آخرين من جديد، فقد ودع المرضى السابقون الدنيا، وحملتهم سيارات النقل فوق بعضهم البعض، رجالا ونساء وأطفالا إلى مقبرة ما جماعية. وقيل لنا إنهم يلقون بها فوق بعضهم البعض، فوق جير حى، ويغطونهم بجير حى، ويسكبون فوقهم الماء فيحترقون دون نار بالجير الحى، ويبقى رفاتهم مكشوفًا ينتظر مَن يأتى بعدهم. الموت إذن فى كل مكان لا يراه كل مَن لم يصبه بعد، أو يدخل له بيتًا. وكانت الحكيمات جالسات أمام عينى، عند مطلع السلم، بممر الصالة يشربن الشاى، ويأكلن، ويشتغلن بنسج التريكو، ويتحدثن عن أى شيء إلا عن المرض، والمرضى، والموت.

فى كل صباح كان يخرج من المستشفى ثلاثمائة أو يزيدون من الموتى، ويدخل إليه ثلاثمائة أو يزيدون من المرضى، وكأن المستشفى مجرد موقف

للحشر، وللسفر إلى عدم بلا عودة. دخلت عنبراً يتصايح به مريض مشاكس، كان خبيراً بهذا المستشفى بالذات، ولا يكف عن الزعيق: عايز الست سعاد. عايز الست سعاد. وسرعان ما يقلده المرضى بالعنبر، ويتبعهم مرضى العنابر الأخرى مرددين: عايزين الست سعاد. عايزين الست سعاد. وسألت عن الست سعاد، فقيل لى إنها حكيمة سافرت إلى بلدها لتتزوج، وهى الآن فى شهر العسل. وكأن المرضى كانوا على موعد مع الست سعاد، فقد طبت على المستشفى فى ذلك النهار قادمة من بلدتها بالفيوم، منهية شهر عسلها. فى الحال، حين رآها المريض المشاكس عرفها، وصاح بها: الحقينا يا ست سعاد. يعمر بيتك يا ست سعاد.

كانت سعاد مجرد حكيمة من الحكيمات. وأدهشنى أن روح الأمل فى النجاة قد دبت بين المرضى، وأن كهرباء العمل الخفية قد سرت فى دماء التمرجية والممرضات والحكيمات، وأن غرفة مدير المستشفى المغلقة قد فتح بابها. وقيل لنا إن الست سعاد مرت بالعنابر كلها على عجل، وأفزعها ما رأت، فلم تزعق، ولم تثر. فقط شدت التليفونات فى مكالمات هنا وهناك، وكان صوتها الهامس يشى بتهديد خفى متوتر، بتبليغ مدير المديرية الذى لا تعرفه بحال المستشفى، وتفشى الموت والإهمال.

وجدنا نحن المتطوعين عملا حقيقيًا لنا بالمستشفى لأول مرة، وقد مر علينا بالمستشفى يومان. لم تكن ثمة حوامل كافية لحمل زجاجات الجوليكوز، فحملناها بأيد مرفوعة بجوار الأسرة، إلى أن تفرغ كل ما فيها فى عروق المريض قطرة قطرة إثر قطرة، ورحنا نتنقل بمثلها من مريض إلى مريض. وانشغلت كل الممرضات والحكيمات بالمستشفى فى تفريغ أمبولات بسرنجات، قيل لنا إنها تحمل رقم ٦٠٦ فى شرايين المرضى مريضًا بعد مريض، وقيل لنا إن الصيدلية كانت مغلقة على صناديق هذه الأمبولات، إلى



أن قامت الست سعاد بكسر الباب بجرأة وإخراجها وإعطائها للمرضى دون أمر من طبيب. وفى الليل هدأت أصوات المرضى وفتر القيء وقل الإسهال، ومع مطلع النهار، كانت نسبة الموت قد خفت بين المرضى من ثلاثمائة مريض فى اليوم إلى تسعة عشر فى اليوم، فى ثلاثة أيام فقط، وكان الناجون يعودون إلى بيوتهم سالمين. ولم أنس هذه التجربة قط، فقد كتبتها يومًا قصة بعنوان الملاك الأبيض ونشرتها بمجلة العربى، وأذعتها ببرنامج الأسرة البيضاء، بصوت سامية صادق الدافئ الحنون. وجاءتنا رسالة عرفان من الست سعاد، وقد صارت أمًا لعدد من البنين والبنات.

★★★

جاءت إعادتى للصف الثالث الثانوى نعمة عليّ من حيث لا أدرى. بلا صديق كنت فى سنوات المعهد الدينى، وأحيا بلا بوصلة لى موجهة فى حياتى. لا شيء مطلقًا فى حياتى سوى أننى موجود، وضائع. أقرأ روايات الجيب فى الصيف، وأصيع وأضيع فى شهور الخريف والربيع والشتاء، بين المعهد والمقاهى ودور السينما والشوارع وزيارات الرفاق فى الغرف المقبضة، وحلقات الذكر الطلابية فى الحارات بالأمسيات الحارة، وفى أسواق الثلاثاء الأسبوعية، ومكتبة بحر مويس مع الروايات البوليسية أيضًا. كان الكل من حولى مجرد رفاق مجاورة كرفاق السفر فى القطارات.

أتاح لى رسوبى لحاق "أبو المعاطى" بى قادمًا من الصف الثانى، وجلوسى بجانبه على درج واحد. كان أنيق الملبس كاكولة وعمامة وحذاء ملمعًا أبدًا، وكان يقرأ كتبًا لم أكن قد عرفت طريقها بعد، بينها كتب نقد، وقصص أجنبية وعربية، وكان يشترى مجلات ثقافية فى اليوم الذى تصدر فيه من ميدان المحطة، بينها مجلتى الرسالة والثقافة. وكان فوق ذلك كله نقيضى المثير. وجذبنى إليه، بعقله الرزين، وتحكيمه للمنطق، وفى الوقت

نفسه برومانسيته الحالمة. وميله للحزب السعدى الذى لم أحبه قط، وبذلت طوال ذلك العام والأعوام الذى تلته جهداً هائلا لأنال صداقته، هو وشاعر صديق حميم له اسمه محمد إسماعيل هانى، وهو برغم جهدى للتقرب منه، عازف ومتخوف من تمردى وجنانى وحدّتى ونزواتى وحماقاتى. كان أبو المعاطى منتظماً فى حياته، ولا يزال، من البيت للمعهد لدار السينما، حين يكون بها فيلم طيب، أو لكافتيريا أنيقة وهادئة. لا يعرف الضياع له طريقاً، وأحسبنى نلت قدراً من بداية رضاه عنى، وقبوله المتحفظ لصحبتى، بسبب موضوع إنشاء كتبته.

***

كان الشيخ القناوى يدرس لنا مادة الفقه، ويدرس لنا فى الوقت نفسه مادة التعبير، وعلى تهربى الدائم من كتابة مواضيع الإنشاء عما نعرف وما لا نعرف، فقد كتبت ذلك العام موضوع الإنشاء الوحيد لى فى ذلك العام. كتب الشيخ عنوان الموضوع على السبورة، وكان عن الحرب والسلام، وكنا فى أعقاب سنوات حرب عالمية لا سلام بها فى أى مكان من العالم، وراح يناقش الطلاب فى عناصره، قبل أن نكتبه فى بيوتنا. وفى اليوم التالى جمع الشيخ كراسات التعبير، وحملها معه إلى بيته.

وفى درس التعبير التالى، وضع صف الكراسات أمامه، وسحب من أعلاه كراسة، ونادى على اسمى، وقال للفصل:

– خير موضوع كتب لى.

ثم قال لى بحنو:

– تعال يا بنى.

كنت قد كتبت فى الموضوع كراسة كاملة، عن الحرب والسلام، ومنافع كل منهما للبشر ومضاره، ودورة الدفع للخير بالشر، وللشر بالخير، وتقدم



العلم وتأخره، وما لا نهاية له من نقاط الموضوع، وكأنى أناظر نفسى، وبحياد بين الأمرين دون أى معتقد، أو حكم مسبق. وحين قال لى: اقرأ درجتك على الموضوع، وتعليقى. كانت الدرجة عشرة على عشرة. وكان تعليقه:

– أرجو أن تتذكرنى بالخير عندما تصبح كاتباً.

وخجلت أن أقرأ ما كتبه. أطبقت كراستى، وعدت إلى درجى، وأخذها أبو المعاطى وقرأ التعليق، وأظنه ضغط على كفى سعيداً بى، وأظننى بذلت جهداً فائقاً فى كتابة الموضوع لأنال فقط صداقته.

***

فى ساحة المعهد تحت شرفة الإدارة صعد طلاب إلى الشرفة. وارتفع من بينها صوت بالغضب، وراح يصيح معلناً أن اليوم إضراب ومظاهرة، فلا يتجه أحد إلى فصل ولا إلى حصة. وتوالى الخطباء والشعراء المرتجلون أيضاً، فالإضراب والتظاهر كانت له طقوس فى معهدنا، وكان سلاحها الكلمات فحسب، والأفواه الجاهزة لشعارات الهتافات، وترديدها الجماعى الهادر.

لم تنس ذاكرتى هذا اليوم بعد ستة عقود. اندفع الطلاب نحو بوابة المعهد. كانت تعليمات إدارة المعهد إلى عم مرسى تقضى بغلق البوابة الخارجية وبابيها الصغيرين المجاورين بالسلاسل والأقفال، لمنع المظاهرة من الخروج. ضغطت جموع طلاب المعهد بأجسادهم على البوابة المسلسلة والبابين الصغيرين، هزوها هزاً، ورجوها رجاً، ودفعوها دفعاً، فتفتقت عرى السلاسل، وتفسخت الأقفال، وانخلعت مصاريع الأبواب من الجدران، وسقطت الأبواب الحديدية الضخمة تحت أقدام الطلاب جارّة أحجاراً معها.

كـانت غـاية المظاهرة وسط المدينة فى شـارع عـبـاس الطويل الفسـيح المتد، وكان يشكل وحده، بعد مسيرة قليلة به بدءًا من ميدان المحطة ميدانًا رحبًـا ممتدًا يتسع لمظاهرة كبيرة عدتها بالآلاف، والهتافات على طول الطريق إليها تدوى دون انقطاع. وراحت الهتافات تتوالى، نثرًا مرسلا، ونثرًا مسجوعًا، وشعرًا مرجوزًا، وكان الطلاب القادة المحمولون على الأكتاف أهل خبرة فى صوغها.

قطعنا مسافة طويلة مع سور القطارات، قبل أن نصل إلى ميدان المحطة، فشارع عباس. كان على المظاهرة قطع المسافة لصق السور، وعبور مزلقان بلا بوابة إلى الناحية الأخرى من السور، حيث المقابر. فحى كفر النحال، وفى النهاية شارع عباس. وحين وصلنا إلى ميدان المحطة كان نصف الطلاب قد تركوا المظاهرة، لأسباب شتى.

كانت الهتافات كلما همدت تعود إلى الارتفاع، وكان الطلاب يجمعون تباعد جماعاتهم ويكثفونها، لتصبح قوة متماسكة وهادرة عند بلوغنا قلب المدينة، قوتها الاقتصادية وثراؤها ومتاجرها وزحامها، وحول المظاهرة كان طلاب أشداء يلمون شملها حتى لا يقذف أحد منها حجرًا على واجهة متجر، أو واجهة نافذة زجاجية مغلقة، أو يسقط لافتة إعلانية، حتى لا نفسد سلمية المظاهرة، ولا نتيح للبوليس فرصة للتدخل، بعصى أو سلاح أو دروع.

أغلقت المتاجر أبوابها، وتسترت فتارينها بشبكات الحديد. وكان البوليس يسارع بدس عملائه من المخبرين بيننا لقذف الواجهات الزجاجية على جانبى الشارع بالأحجار، ليجد البوليس فرصته للتدخل لفض المظاهرة بقوة العصى، والقبض على البعض بتهمة العدوان على الممتلكات، وفى يده سلاح قانون الأحكام العسكرية، مع أن الحرب العالمية الثانية قد انتهت قبل شهور، وقانون منع التظاهر، وقانون منع الطلاب والموظفين من الاشتغال بالسياسة.



بدأ الصدام بالبوليس مع تدفق عساكره نازلين من عرباتهم السوداء، عند دخولنا فوهة شارع عباس الميدانية. وراحت هتافاتنا تعلو ويتردد صداها: تسقط إنجلترا العجوز الشمطاء. يسقط صدقى بيفن.

وفى ذلك اليوم بدأ يوم الأخوين، يوم كيوم قابيل وهابيل.

★★★

هبط العساكر من عرباتهم السوداء، قافزين منها الواحد بعد الآخر، فى قلب شارع عباس بمدينة الزقازيق، شاهرين عصى الخيزران الطويلة الثقيلة فى أيديهم. هرولوا نحونا قادمين من خلفنا صفًا واحدًا بعرض الشارع. استدار المتظاهرون نحو العساكر، وقد زادت هتافاتهم واحتدت متحدية، فهم يدافعون عن الوطن، والشرطة تدافع فى نظرنا عن السيدين صدقى وبيفن لا غير.

ورأيت طالبًا لم أره من قبل، يحمله متظاهرون، وهو يهتف من قلبه مستنهضًا الهمم: اليوم يوم الملحمة. كان طالبًا وسيمًا للغاية، أنيق العمامة، تبدو عليه نعمة أبناء أغنياء من الريف. والتحم الطلاب بالجند.

كان الطلاب على فقرهم أقوى عافية، وأصح بدنًا، يعرفون ما يدافعون عنه. وكانوا عزّلا إلا من عمائمهم. نزعوها عن رءوسهم، وجعلوا من شيلانها مقاليع كمقاليع داود، وراحوا يطوحون بها أحجار الطريق على العساكر، فيتّقونها غالبًا بالتروس، وواصلوا هجومهم.

سرعان ما انتقلت العصى من أيدى العساكر إلى أيدى الطلاب الفتوات المراهقين. وراحوا يضربون بها العساكر، ويطاردونهم فيفرون عائدين، وهم يحمون رءوسهم بتروسهم.

لم يجد ضابطهم مفرًا من سحب عساكره إلى سياراتهم، ليجلبوا منها بنادق الميزر الإيطالية والأنفيلد الإنجليزية، وشهروها نحو الطلاب، وهجموا

بها صفًا واحداً بلا تروس، وراحوا يطلقون الرصاص فوق الرءوس وفى المليان. بدوا مدربين على فن القتل الرحيم المحدود.

تفرق الطلاب مسرعين كما الدجاج الفزع فى أرجاء الشارع على طوله. اختفوا مسرعين فى الحارات والطرقات يمنة إلى قلب حى كفر النظام، ويسرة إلى حارات كورنيش بحر مويس. لم تسعف السرعة البعض فألقى القبض عليهم، ولم ينج البعض، فسقطوا مضرجين فى دمائهم بين قتيل وجريح.

انسحبت لداخلى فى ساعة الهول الأعظم. فاجأنى الجند مقبلين جهتى، وأسلحتهم مشرعة تبحث عن فرائس. أدركت فى لحظة أنهم سيطلقون النار على أى شخص يجرى، أو حتى لا يزال واقفًا. لم يكن أحدهم ينظر حواليه إلى الأرض والأرصفة. بادرت بالجلوس على الرصيف. كأن الأمر لا يعنينى، وكأننى لم أر شيئًا. تناولت ورقة ملقاة، ورحت أمزقها على مهل. ومر الجند بجانبى. لا أظن أن نظر أحدهم قد وقع علىّ، وكأننى جزء من رصيف الطريق.

حين ابتعدوا عنى نهضت، وانعطفت فى شارع سينما أبو لون. هالنى ما أراه. كان شرطى على ساعده أربعة شرائط قد لحق بالطالب الوسيم، صاحب العمامة الأنيقة ويوم الملحمة. حاصره وحيداً فى مدخل السينما المغلق الأبواب، كأنه مكلف به وحده. وكان الوسيم رافعًا يديه مستسلمًا، لكن الشرطى راح يطلق عليه النار طلقة إثر طلقة. رأيت إحداها تفجر الدم من جبهته. سقط الوسيم يتخبط فى دمه.

فى الليل، ذهبت إلى مقهى البوسفور. كانت المقاهى، ولا تزال، نبض الشارع لمن لا يزال فى جيبه مال. على المقهى عرفت أن الضحايا زادوا على



عشرة من القتلى، والجرحى لا يعلم أحد عددهم بعد، ولا يجرؤ أحد على زيارتهم فى المستشفيات. دخل المقهى طالب بجلباب. فاجأنا بقوله:

- أحمد عمر قتل. قتل فى سينما أبو لون، بخمس رصاصات.

هو إذن الطالب الوسيم، صاحب اليوم: يوم الملحمة. فاجأنا الوافد بقوله:

- أتعرفون من كان الضابط الذى يقود العسكر، والذى أمر بضرب النار فى الهواء وفى المليان.

ران الصمت علينا، والتفت إلينا من حولنا. قال الوافد:

- كان هو أخوه الشقيق.

ران الصمت وساد. تمتمتم أحدنا:

هابيل وقابيل.

★★★

فى الصباح، تسللت حافيًا إلى طريق المعهد بحى الحسينية. حجزنى صف من الجند عند بائع الفول، قبل دكان البقال الشاعر "أبو عفارة"، ذو العينين الزجاجيتين. ارتددت إلى الخلف، ورحت أرقب المشهد. كانت الشرطة فى كل مكان من حول المعهد، ومن حول ما حوله، إلى ترعة "أبو حسين"، كأن القيامة، وقد هدأت العاصفة، على وشك أن تقوم. قيل لنا ممن حولنا: إن شقيق أحمد عمر قد جن. فقد عقله وحمل إلى مستشفى الخانكة بالقاهرة. وقيل لنا ممن حولنا، إن طلابًا هاجموا فى ظلام فى الليل عدداً من الضباط كانوا جالسين أمام مطعم الفول يأكلون الساندويتشات. كان الطلاب المهاجمون يحملون هراوات الطعمية. فاجئوهم وسط عساكرهم القليلى العدد، وشدخوا رءوسًا، وحطموا أكتافًا، وفروا هاربين، وكان بينهم ضابط كبير المقام فلقت رأسه نصفين، قيل لنا إنه كان حكمدار المديرية.

فى الصباح التالى، حملت حقيبتى، وعدت بقطار الدلتا إلى أهلى بالسنبلاوين، فالدراسة قد تأجلت بالمعهد إلى أجل غير مسمى.

***

بعد شهرين عدنا إلى الدراسة. تمت مصالحة لا مفر منها. لم تكن المصالحة بين شيوخ المعهد الكبار ورجال المديرية الكبار فى مدينة الزقازيق. كانت المصالحة بين طلاب المعهد ورجال المديرية الكبار. ونسى الكل دمه أو تناساه، فالأحياء دائمًا أبقى من الموتى. ورُوى لى أن من بادر بهذه المصالحة كانوا جماعة من طلاب المعهد المتبرعين بزعامته. بإيعاز من شيوخ المعهد الكبار. فالحكومة جريحة، والحكومة فى النهاية والبداية هى الأقوى. لا بد من تراجع ما بالاعتذار مثلا من طلاب المعهد، وحين ذهب وفد من طلاب السنوات المتقدمة لمقابلة مدير المديرية وحكمدارها، رفض المدير والحكمدار مقابلة أعضاء الوفد، فرفاق لهما من الضباط والعساكر قد ماتوا. والطلاب زادوا فأخلوا بالأمن، وراحوا يغتالون رجال الدرك فى ظلام الليل. ولم يجد طلاب الوفد وسيلة إلا بمظاهرة أخرى صامتة، تمارس ضغطًا خفيًا تتحدث به الصحف، تطالب بفتح المعهد لأبوابه، كى تعود الدراسة إلى المعهد، ولا تضيع سنة على طلاب المعهد.

ورُوِى لى أن طلاب المعهد تنادوا مصبحين وممسين، وتجمعوا فى ساحة المديرية. لم يقفوا فى هذه المرة أو يهتفوا. تجمعوا متفرقين فى الساحة قادمين من طرق شتى. وجلسوا فى الساحة. كما لو كانوا فى حلقة من حلقات الاستعداد للذكر. وسارع الجنود بالإحاطة بالطلاب فى الساحة، وبدأ تصفيق جماعى مهيب، متوسل ومهدد فى آن واحد. تصفيق موحد ثلاثى الضربات، ومتتابع. أطل له مدير المديرية والحكمدار والضباط من النوافذ



برهة. لم يكن ثمة هتاف. كان التصفيق يعبر بلغة الإيقاع عن الاعتذار والمناشدة والتحذير من الانفجار.

وراق المشهد والإيقاع لرجال المديرية الكبار، فتركوا الطلاب ساعة أو نحوها. ثم أطل مدير المديرية من الشرفة، وأشار بيده بحركة مسرحية مائلة توقف إثرها الإيقاع. وقال مدير المديرية للطلاب:

- عفا الله عما سلف. الأحياء أبقى من الراحلين. من غد عودوا إلى الدراسة بالمعهد.

***

فى منتصف شهور الربيع من كل عام، كنا نحن المجاورين نعيش أيام الامتحانات الرهيبة. يركبنا الهم والقلق، ويملؤنا الخوف من نسيان ما ذاكرناه فى اللحظة الحاسمة، لحظة الإجابة، والخوف من الفشل والرسوب، وملامات الأهل، ونظرات الصحب الشامتة أو الراثية أو الساخرة. نكون عائدين من قرانا ومدننا الصغيرة إلى المعهد لأداء الامتحان بعد شهر من المذاكرة، يبدأ مع أواخر شهر مارس من كل عام، وقد يمتد إلى شهر ونصف، ونكون قد تركنا المساكن التى كنا بها فى الزقازيق، وفارقنا الرفقة الذين كنا نشاركهم السكن، توفيراً لأجور السكنى عن أهلنا المساكين من الفقراء، ومن شرائح البرجوازيات الصغيرة. ويروح كل منا يبحث عن مثوى مؤقت لنفسه، أو مع غيره، لمدة أسبوع أو أسبوعين، فى حى ما من أحياء الزقازيق القريبة من المعهد الدينى بكفر "أبو حسين"، أو "الحسينية"، أو "أبو الريش"، أو "النحال". وكان أكثرنا يلجئه ضيق ذات اليد، وتجنب إرهاق الأهل، إلى الانضمام إلى طلاب عنابر السكن الداخلية بالمعهد، توفيراً للمال، وحفاظًا على الوقت الذى نحتاج كل دقيقة منه، لخطف ساعة نوم، أو تدبير ساعة مذاكرة، دون حاجة إلى المشْوَرة، سعيًا إلى المعهد وعودة منه،

وطلبًا للخبز والغموس من عند الباعة، وسط الزحام والذباب، والزعيق والصراخ.

فى سكنى أيام الامتحانات بعنبر بالمعهد تحت جناح الإدارة، كانت ثمة حُصر مبسوطة بلا وسائد ولا مراتب على بلاط العنابر من الجدار إلى الجدار، وكان الفالح منا مَن يجد لنفسه مكانًا محفوظًا، يراعيه الكل تجنبًا للمشاكل، تحت نافذة بالقرب من ضوء النهار، وهواء الليل الرطيب. وفى سكناى المعهد شعرت بالراحة. كانت الحمامات قريبة، وكان المطعم مفتوحًا لَمن يطلب طعامًا أو شايًا أو سجائر تباع خفية للمحاسيب لندرة الصنف، أو قلة الموجود، فى أى وقت من الليل أو النهار.

وفى المعهد كانت الفرص متاحة لسؤال الأكبر سنًا، والأرقى فى سنوات الدراسة عن مواضع الأسئلة المرتقبة أو المتوقعة، وعن مَن وضعها هذا العام، ومدى رحمته أو قسوته فى أسئلته، أو لسؤال أحد من اللاحقين لأحد من السابقين عما لا يفهمه فى أى علم من العلوم. وفى المعهد كانت أربع باحات ممتدة لمشى المذاكرين رواحاً وجيئة فى ساعات العصارى، تحريكًا للأرجل، وطلبًا للراحة من كثرة الجلوس على الحصر الجافة وسط العنابر.

وحين يأتى الغروب ترتفع حمى المذاكرة بين الطلاب الجالسين تحت أضواء المصابيح القوية المدلاة بالعنابر، ووسط زحام رهيب من قاطنى العنابر، زحام لا تكون معه فرصة لأحد إلا لكى يجلس متربعًا، أو واضعًا ساقًا على فخذ، كما فى تمارين اليوجا، والكتاب مفتوح فى يده، والصوت عالٍ أو هامس فى فمه، وهو يقرأ أو يكرر ويردد لنفسه ما قرأه: الخنازير تربى فى الجنوب. الخنازير تربى فى الجنوب. الخنازير تربى فى الجنوب، وهو يهتز أمامًا وخلفًا ويمنة ويسرة، كأنه بذلك يثبت كل حرف وكل كلمة فى كل خلية من خلايا جسده، وأحيانًا تأخذه الجلالة، تنبيهًا لنفسه، فيروح



يضرب بكفه بطن قدم الساق العارية المرتفقة لفخذه، برتابة وانتظام وحماس وهمة: أيوه يا سيدى. بيقول لك إيه يا سيدى. الكل بلا استثناء يفعل ذلك صوتًا وأوضاعًا وحركة، والكل يقرأ فى غير ما يقرؤه الآخر، ويزعق بغير ما يزعق به الآخر. خلية نحل لا تكف عن الزن، بل ورشة تتابع فيها ضربات مطارق الأكف على بطون الأقدام، وتتلاحق بأصواتها فى نشازات لا حصر لها. والقادم على العنبر يشعر لأول وهلة كأنه قادم إلى يوم من أيام الحشر، ويحس بل يشم للأصوات رائحة كرائحة هبو النار ولفحها. وحين يتعب أحد المجتهدين المذاكرين، يتوسل إلى جار له ليمسك بكتابه، كى يسمِّع له ما حفظه من درس ما، وقد يتعبه الأمر كله، فيتوسل إلى من حوله ليوقظوه بعد ساعة أو ساعتين، وليفسحوا له مكانًا يمدد فيه بدنه، متوسدًا ساعده وعضده، أو واضعًا رأسه على صف متراصٍ من كتبه، وينام سريعًا فى وهج الضوء، وضجة الأصوات. كف فجأة عن السمع والرؤية والكلام أيضًا، كما الرفات فى القبور.

★★★

فى هذا الجو الخرافى عشت أسبوع امتحانات لا ينسى. حسبى فيه ومنه ذكرى نهار لا يُنسى، وليلة لا تُمحى. على غير توقع، فى ساعة عصارى هاج عبد المحسن. الشاب القصير القامة، الأعجف العود، الجاف العظام والجلد. الجاحظ العينين أبدًا، كان حين ينام فى العنبر يغمض عينيه، لكنه بعد أن يستغرق فى النوم، تنفتح عينه اليسرى محدقة كأنها ترى، ويظل سوادها وبياضها ثابتًا فى محجر العين، حتى تظن أنه يراك، وتحرك يدك أمام عينه المفتوحة، فلا تتحرك له حدقة، ولا يهتز له رمش، ولا يرتعش بالضوء إنسان العين.

هاج عبد المحسن، ولا ندرى من أين جلب نبوتًا يزيد طوله على طوله هو. وراح يضرب به كل ما تطوله يداه، كتابًا أو جدارًا، أو طالبًا طاله نبوته، وفر الكل من العنبر أمامه، يجرون يمنة ويسرة، وهو لا يطارد أحدًا، فهو يضرب فقط كل ما تطوله يداه وتراه عيناه الجاحظتان. وغادر فى هياجه العنبر، وراح يجرى فى الباحات وساحة المعهد، والكل يبتعد عنه، وينظر إليه فى دهشة محملقًا، ويسمع تضارب شتائمه الغامضة المزدحمة فى فمه، إلى أن تسلل إليه فتوة من فتوات المعهد، وعبطه من الخلف ونزع عصاه، وجرى الفراشون والسعاة، وجاءوا بحبل وشدوا وثاقه، وعندئذ همد وبلَم، كأنه صار جثة وغادر الحياة بأسرها. وجاءت عربة، وأوثق عبد المحسن بكتاف المجانين، وابتعدت العربة خارجة به من المعهد. كان رفيقى فى شقة بحى كفر النحال. كان فائق الذكاء سريع البديهة والفهم، وحتى اليوم لا أفهم سببًا واحدًا دفعه إلى الجنون. كل ما عرفته أن هذا الجنون كانت له مقدمة كانت فى نهايتها جنونه.

صحا عبد المحسن صباح نهار جنونه من نومه بالعنبر هادئًا. وجلس على درج الامتحان هادئًا، وأخذ ورقة الأسئلة هادئًا. وأخرج قلمه هادئًا. وقرأ ورقة الأسئلة، أو هكذا بدا، هادئًا. وفى ظنى أنه فى تلك اللحظة، لم يفهم شيئًا مما يقرؤه، وراح يجيب على الأسئلة كلها، بكلمة واحدة: تعبان. تعبان. تعبان. ويظل يكررها إلى آخر الصفحة، فيقلبها إلى الصفحة التالية. ويكتب: ج٢– ويعود يكتب: تعبان. تعبان. تعبان إلى آخر الصفحة. وحين انتهى من ملء الورقة كلها بهذه الكلمة نهض هادئًا، وسلم الورقة للمراقب هادئًا، وغادر قاعة الامتحان هادئًا، وعبر الردهة هادئًا، ونزل الدرج وسار فى الباحة إلى العنبر هادئًا، وطوى ساعده تحت رأسه، ونام فى موضعه بالركن المظلم من العنبر هادئًا. وعند العصر صحا هائجًا وكان ما كان. واختفى عبد المحسن، وبقيت ذكراه معى زمانًا بعد زمان.



فى الليل، حاول الكل فى عنبرنا أن ينسى، بل أن يتجاهل مأساة عبد المحسن، فغدًا امتحان آخر، ووقت البكاء عليه، والرثاء له، لم يحن بعد. فسوف ننتهى من الامتحانات، ونأكل وننام جيدًا فى بيوت أهالينا فى القرى والمدن على طول الساحل الشرقى لفرع دمياط، وحين نصحو نبحث عن ركن وحيد وخفى لنبكى عبد المحسن، أو لنتذكره بعيون جامدة، ونقرأ على روحه الفاتحة، فمن يذهب إلى مستشفى المجانين لا يعود منها فيما نعتقد ونعرف. مات عبد المحسن فى اللحظة التى طوق جسده وساعداه فيه بكفن الكتاف. ومن العجيب أنه كان مستسلمًا وهادئًا. واتخذت لنفسى قرارًا ألا أسمح لنفسى بالجنون قط، فى عالم مثير للجنون.

★★★

فى تلك الليلة ظللت أذاكر النحو مرة أخرى لسنة تالية فى كتاب "قطر الندى وبل الصدى" حتى الرابعة صباحًا، فى ذات العنبر الذى كان به عبد المحسن، ولشدة حاجتى إلى النوم، ورغبتى فى الهرب من رؤية مكان عبد المحسن فى ركنه الخاص بالعنبر شاغرًا، يأبى أى أحد أن يجلس فيه، أو يرقد به، وكأنه سيعود إليه فى أى لحظة، أو كأنه قد مات وما زال راقدًا فيه يشغله، أو كأن مَن يجلس فيه أو يرقد سيلقى مصيره. كانت كل العنابر ملأى، وكل العنابر مزدحمة. وألححت على مَن حولى ليوقظونى فى السادسة صباحًا قبل موعد امتحان النحو بساعتين. وقاربت الساعتان نهايتهما، وأنا لا أزال غارقًا فى النوم، وعبثًا حاول كل من بالعنبر إيقاظى من نومى بكل الحيل. كنت كما الجثة الهامدة، أو الحى الذى دخل فى سبات لا صحو منه، ولا حياة ولا موت. فى النهاية، أغرقونى بجردل مليء بالماء، وأجلسونى، وغيروا لى ثيابى.

على درج الامتحان كنت لا أزال بين النوم والصحو مترقبًا ورقة الأسئلة.

قرأت الأسئلة، فعرفت معظم إجابتها على الفور، لكن لم تكن بى طاقة ما للكتابة، ولا حتى للإمساك بالقلم. قلت للمراقب:

– سأنام نصف ساعة. صحينى من فضلك لأجيب هذه الأسئلة السهلة بمشيئة الله.

ابتسم المراقب وأكد لى أنه سيوقظنى. وعبثًا حاول، فكلما صحوت عدت للنوم، حتى دق الجرس، وسحب المراقب ورقة الإجابة خالية من تحت يدى النائمة معى، وليس بها سوى اسمى ورقم جلوسى، وسطورها الزرقاء الخالية. وعدت إلى العنبر لأكمل نومى محبطًا إلى ساعة الغروب. ولم أحمل همًا حين صحوت. ففى تلك السنة كان قد تقرر السماح بدور ثان لمن رسب فى مادة أو أكثر بالامتحان الأول. ورحت أستعد هادئًا لأنجو من الرسوب فى الامتحانات التالية.

لم تكن خيبة الأمل فى امتحان النحو خيبة لى وحدى. كانت معها خيبة أخرى بل كارثة كبرى فى حياة مجاور شاب، كان درجه على يمين درجى فى قاعة الامتحان هذا العام. انفرد بى ساعة الغروب، تحت مصباح شديد الضوء بساحة المعهد يوم جنون عبد المحسن، وباح لى بأنه خائف أشد الخوف من امتحان النحو هذا العام، لأنه لم يذاكره فى شهر المذاكرة سوى مرة واحدة، ولأن أباه صاحب الفدادين من الأرض، كان يفرض عليه العمل معه فى رى الأرض، وزرعها، وتخضيرها، وقلع حشائشها، فى نهارات ذلك الشهر، قائلا له: "وكنت بتعمل إيه يا فالح طول السنة فى المعهد، لما جاى تذاكر لى هنا"، وأقسم له بأنه سيطلق أمه، ويطرده من البيت هو وهى لو رسب فى الامتحان هذا العام، وراح المجاور الشاب يرجونى كى أغششه أجوبة الأسئلة الصعبة، فوعدته ليس بتغشيشه فقط، وإنما أيضًا بإجابة ورقة امتحانه بخطى مع ورقتى، عندما أنتهى من إجابة ورقتى، أعطيه



ورقتى وآخذ ورقته. وكان هو الذى أيقظنى من سابع نومة بجردل الماء، وغير لى ثيابى. لكننى غدرت به، وبنفسى، وواصلت النوم طوال ساعتى امتحان النحو.

فى ذلك العام بر أبوه بوعده، وطلق أمه، وطرده هو وهى من البيت، فقد اختفى المجاور الشاب من المعهد فى العام التالى، وأخبرنى بلدياته بأن أخواله فتحوا له دكانة لبيع الكراملة والإبر والخيوط وسواها بحارة من حارات القرية.

★★★

عند وصولى إلى بيتنا الجديد بشارع عبد المنعم تركت حقيبة سفرى لأمى، وبحثت عن جدى فى غرف البيت. كنت حقيقة مشتاقًا إليه، وشديد الخوف عليه، سألت جدى:

– ما رأيك فى هذا البيت؟

فقال لى:

– كويس. شمس وهوا، وكنيف إفرنجى. بدل كنيف الأرض اللى بيوجع الضهر.

قلت له ضاحكًا:

– جيت لك يا جدى. حنخرج سوا، ونروح عند العرضحالجى. والمرة دى حندخل جنينة المركز، ونقعد تحت الشجر اللى طول عمرك بتحبه.

ابتسم جدى بمرارة، وقال:

– فات الوقت يا ابو داود. قول يا صحة. مين يقدر يطلع السلم، وينزل السلم. بيت عزبة حبيب كان درجة واحدة، والا درجتين، على وش الأرض.

قلت له على الفور:

تحت الشقة دى أوضتين. تعيش فيها انت وزكية وانا كمان معاكم.

فقال لى:

- اعمل معروف. ما تعملش مشاكل يا ابو داود وتزعل ابوك. وإن كان فوق والا تحت، المشى بقى صعب عليه يا ابو داود. اعمل معروف.

ولم أفهم إلا فيما بعد كيف أن أبى كان سيزعل لهذا السبب.

★★★

حين جاءت إلى بيت الأهل بالبريد نتيجة امتحانى فى الدور الأول من المعهد، سألتنى أمى مبتهجة ومتفائلة:

- هيه نجحت؟

ضحكت وقلت لها بيقين:

- صاحبى أبو المعاطى نجح.

كنت على يقين من نجاحه، مع أنه لم يخبرنى، فهو فى قريته مع أهله. فقالت لى أمى منزعجة:

- يا خيبتى. صاحبك نجح. طب وانت؟

قلت لها:

-عندى مادة واحدة. سأنجح فيها إن شاء الله فى امتحان الدور الثانى بعد شهرين. السنه دى سمحوا لنا بدور تانى.

فقالت لى:

- يا خيبتك. وفرحان اللى صاحبك نجح. يا فرحتى.

كانت أمام كلمة النحو فى النهر المجاور دائرة حمراء. وفى وسطها صفر بالحبر الأحمر، ولم يتردد محرر الشهادة فى تفقيط الصفر، فقد كتب فى النهر التالى: صفر واحد. وأغرقت فى الضحك عليه وعلى نفسى.

★★★



كان بيتنا الجديد بشارع عبد المنعم بيتًا جديرًا حقًا بشرائه. كان من طابقين، وعلى سطحه غير المسور كانت غرفة للغسيل، وأمامه كانت فسحة للشموسة الشتوية، ولسهر الليل الصيفى لمن يريد مع القمر والنجوم، وكان البيت على ناصية بشارع عبد المنعم عند انعطافة الشارع. وكأن البيت كان معدًا على مقاس أبى المتصوف بلا لحية فى ذقنه، ولا عدبة فى عمامته.

على يسار الداخل من البيت وراء دكان النجار، وتحت حضن السلم، كانت ميضأة بها حوض أسمنتى مستطيل له بلاعته الخاصة، وفوق الحوض على امتداده صف من الحنفيات لوضوء المريدين والضيوف حين يأتون تمامًا كما فى المساجد. وفوق الغرفتين والميضاة، وفوق بيت آخر مسكون وراء بيتنا، وراء الغرفتين والميضأة، كانت شقتنا السكنية، وبها سلم يؤدى إلى السطح.

كانت شقتنا السكنية بالطابق الثانى: غرفتان على اليمين والسلم والحمام وغرفة بعده، وغرفة مشمسة فى مواجهة الداخل إلى البيت. وبين الغرف كانت صالتان مفتوحتين. وكانت شقتنا السكنية هذه بالأعلى أكثر عمقًا، وأرحب مساحة مما تحتها. وفى الغرفة المجاورة للحمام، كان يقيم جدى وزوجة جدى، اختارها جدى لتكون قريبة من الحمام، لكثرة حاجته إليه، مثله مثل كل المسنين، فى الليل والنهار.

فى الطابق الأول بجوار باب البيت كانت دكانة يصعد إليها بدرجة من الحجر أجرها أبى لنجار. وعلى يمين الباب كان باب بالمدخل يؤدى إلى غرفتين، إحداهما داخل الأخرى مفروشتين بالحصر، ولصق باب المدخل وجداره فيهما كانت كنبة. وكان أبى يفتح الغرفتين عصر كل يوم جمعة لأتباع الطريقة التيجانية بالسنبلاوين، والذين يتبعونه بدوره، فهو أعلى منهم فى سلم الترقى بالطريقة. يصلى بهم العصر، ثم يجلسون فى حلقة مستطيلة

على داير الجدران بالغرفتين، يقرؤون معًا، وبصوت واحد، مرتلين ومتغنين، وهم يهتزون كيفما شاء كل منهم أمامًا وخلف ويمنة ويسرة، ورد: "جوهرة اليقين" وهو ورد الطريقة الأسبوعى للمريدين، ويكررونه حتى الغروب.

وحاول أبى أن يشركنى فى حلقة أوراده. ولم لا وأنا طالب بالأزهر؟ وأن يدفعنى إلى حفظ الورد أنا الذى أنسانى الشيطان حفظى للقرآن نفسه، وأجتهد عند كل امتحان شفهى فى أعوامى الدراسية كلها، لإعادة حفظ ما تيسر لى من أوائل السور المائة والأربعة عشر، ومن أوائل أرباعه المائتين والأربعين، فى كل القرآن الكريم.

كانت ألفاظ الورد مغربية متفلسفة الكلمات، تكاد تكون مغلقة المعانى، كما وضعها مؤسس الطريقة المغربى الأول. فشلت فى حفظها كراهية لكلماتها المصدرية الألفاظ، وإضافاتها وصفاتها، فاكتفى منى أبى بأن يعطينى كتاب الأوراد، ويسمح لى بقراءة ورد جوهرة اليقين مع رفاقه التيجانيين من الكتاب، لعل كثرة التكرار أن تأتى بنتيجة وتعلم ابن الدار. وكنت أعجب لأن بين هؤلاء المريدين أميين، ومع ذلك فهم يحفظون الورد كما هو دون خطأ فى الإعراب، ودون فهم لأى معنى أيضًا، تمامًا كما كنا نحن الصبية نحفظ آيات القرآن، وكما يحفظ عميان القرى والمقابر الأميون أى القرآن، ودروس الأزهر، ويعيدونها غيبًا عن ظهر قلب. ومن قبل كان أبى يقرأ هذا الورد وحده عصر كل جمعة منفردًا بصوت هامس حينًا، وفى سره حينًا. وفى غير هذا اليوم كانت الغرفتان تظلان خاليتين إلا إذا جاءهما ضيف تيجانى مغترب وافد، يمر بالسنبلاوين مرورًا عابرًا. عندئذ تصبح الغرفتان مقرًا لضيافته، طوال إقامته، لا يغرم فيها مليمًا واحدًا.

★★★



استجبت لما يريده أبى مرة، وربما أكثر من مرة، ثم صرت أهجّ فى أنحاء السنبلاوين، قبل عصارى أيام الجمع إلى ما بعد عشاءاتها، حتى يئس منى أبى. وحين ذكرنى أبى ذات مرة وأنا جالس وحيدًا بهاتين الغرفتين بورد جوهرة اليقين، وكأننى قد أخذت العهد مثله بالفعل للسير فى هذه الطريقة، لمجرد أننى ابنه. قلت له وبلغة فصحى متعالمة لأبهره، ولأوقفه عند حده:

– صارت الأوراد قرآنات أخرى. لم لا تقرؤون القرآن نفسه؟

وجم أبى. ساده الحزن برهة خاطفة. نظر إلىّ. أدرك أنه سيخسر النقاش لو دخل معى فى جدل. فلا جواب لديه. ولم يكن على استعداد بأن يهتز له إيمان بطريقته وأوراده وشيخه.

تركنى أبى. وصعد السلم إلى أعلى غير راضٍ عنى، وواصلت الاستفادة الشخصية من الغرفتين لنفسى، ولم تكن بأولاهما سوى نافذة واحدة. أجلس فيهما أينما شئت، على الحصير، أو أستلقى على الكنبة. ظهرًا أو بطنًا، أو مسندًا ظهرى إلى جدار أو وسادة. وأقرأ فى مرايا عصرى: روايات الجيب، وأنام على الكنبة فى الليل. وكانت أمى تضحك علىّ لملازمتى الغرفتين، وتقول لى:

– بقيت بواب.

فأقول لها:

– يا ريت. أحسن شغلة فى الدنيا من غير شغل ولا مشغلة. ولا جرى ورا اللقمة والقرش.

وتضحك زوجة جدى، وتقول لأمى مداعبة وضاحكة:

– ما تيجى نجوزه فيها.

فيعبس وجه أمى، وتقول لها مغاضبة:

– تفى من بقك تفى. ما تفتحيش لنا فاتوحة.

★★★

مع انتقال الأسرة لهذا البيت بدأ جدى ينسحب فى نفسه ممن حوله، وبدأ عقله ينسحب من اليقظة إلى النوم، ومن التذكر إلى النسيان، يتذكر كل ما هو قديم فى ذاكرته، طفولته وشبابه والخديوى عباس حلمى والسلطان حسين والخديوى توفيق وآباءه وأجداده، وحكايات شبابه وصباه. يسألك فجأة فيها وعنها كأنك تعرفها معه ومثله. وحين تسأله أو تذكره بشيء قريب العهد، يقول لك بعد لحظة صمت وجهد للتذكر:

– مش فاكر.

وأحيانًا يصحو من النوم، ويرى ابنه مقبلا نحوه، فيرفع رأسه إليه، ويقول له:

– انت مين؟

ويذكره أبى بنفسه، واسمه، فيبذل جهدًا ليتذكر، فيتظاهر بأنه قد تذكر. وفجأة يسأله وكأنه يسألنى أنا:

– انت خدت الابتدائية والا لسه.

تعلم أبى بالجامع الأحمدى بطنطا فى حلقات درس، ولم يكن على عهده مرحلة ابتدائية. كان طلاب الأزهر فى جامعه الأكبر، وجوامعه الفرعية يدرسون فى حلقات تحيط بشيخ عمود لمادة دراسية. ويسأل جدى أبى فجأة، كأنه لا يصدق بعد أنه ابنه:

– أمك اسمها ايه. هيه فين؟ ما باشوفهاش ليه. كده؟ امته حصل ده؟ الله يرحمها.

ويسكت فجأة ويشرد. ثم يقول:

– أنا مش عارف هوه ما بيجيش ليه.



عندئذ يخرج أبى حتى لا يبكى، هو الذى لم أره باكيًا قط. وأسأل جدى:

– هوه مين؟

فيقول لى مؤكدًا:

هوه. هوه طبعًا. فيه غيره.

وأفهم أنه يسأل عن الموت، ويبحث فى نفسه عن اسمه. وأخشى أن أنطق به له. وأشعر أنه يحس به فى داخله، وربما يراه بعينيه رابضًا فى ركن بالغرفة، فألزم الصمت لكى ينساه. يقول لى:

– مددنى. أنا عايز أنام.

ويكون قد صحا من النوم قبل ساعة أو أقل. أمدده. أشعر أنه يدخل فى غيبوبة توشك أن تكون سباتًا، ويظنها هو، ونظنها نحن، نومًا. فجأة يفتح عينيه وأنا أرقبه، ويروح يحدثنى عن أبيه الدرينى الذى كان جنديًا بالجيش فى السودان، ونجح فى الفرار من حرب الحبشة مع ضابطه. كان ضابطه يركب حصانه ويجرى به نحو السودان، وكان هو جد أبى يجرى وراءه ممسكًا بذيل الحصان، فلم يقع أسيرًا فى يد الأحباش، فلو نجا من الموت ووقع أسيرًا فى أيدهم كانوا سيخصونه أولا، ثم يعيدونه إلى مصر. وابتسم جدى، وقال لى:

– ساعتها يا ابو داود لا كنت أنا، ولا ابوك، ولا انت.

ويروح فى سباته الخاص. وقيل لى من زوجة جدى إن جدى على هذه الحال منذ شهور، وقال لى أبى إن خلايا مخه تضمر، وأنسجته الضامة تذوى.

ولا يلبث جدى أن يدخل بالفعل فى حالة سبات متصلة. يعملها على

نفسه. ويذكر الطبيب لنا ما يمكن أن نفهمه: معدته نعمت، وهضمه توقف. وتروح زوجة جدى تغذيه بالملعقة. وتحمل ثيابه كل يوم لتغسلها فى الترعة بعيداً عن البيت. شقيت تحت رجليه كما لم تشق امرأة أيوب الصابر، ولا يشفى أيوب، ولا تعود هى إلى حيويتها ودمها الخفيف.

فجأة تأتى زكية زوجة جدى، وتقول لأبى:

– أبوك صحى وعايزك.

قال له جدى وقد عاد إليه وعيه، فيما ظنناه صحوة الموت:

– روحنى البلد يا ابنى. أنا خلاص. حاقابل وجه كريم.

وكان سعيداً يبتسم. أتى أخيراً ما كان ينتظر أن يأتى. وحين خرج أبى من عنده، دعتنى زوجة جدى لأذهب إلى جدى. قال لى جدى:

– تعرف يا ابو داود أنا كنت فين؟

ولم ينتظر منى كلمة. قال لفوره حالمًا ومبتسماً:

– كنت فى الجنة. باكل عنب من الجنة.

ومد يده فى الهواء، وأمسك بقُطف عنب لا أراه. وجذب منه حبة لا أراها، ووضعها فى فمه. وراح يمضغها متلذذاً. راقبته. فتوقف، وقال لى كأنه قد ابتلع ما أكله:

– ابو داود. خليك مع ابوك. ما تسيبش أبوك أبداً يا ابو داود.

كنت حفيده الأكبر ورب الأسرة من بعد أبى.

★★★

فى اليوم نفسه عصراً، عجل أبى فاستأجر عربة خاصة صحب فيها جدى وأمى وزوجة جدى، وسافروا إلى بيتنا الكبير المهجور والمباع، والذى



ينتظر من اشتراه تسلمه فى أقرب فرصة. وفرض أبى عليَّ البقاء مع إخوتى فى البيت إلى حين عودتهم. فرحنا نتحدث معاً بلا نفس، ولكننا ظللنا نتحدث ونحيا، كأن لا شيء يحدث، ولا موت يقترب.

مات جدى، ودفن جدى، وعاد أبى وأمى وزوجة جدى، وليس معهم مفتاح البيت الكبير. مات البيت الكبير مع موت جدى. ولم تسقط من عينى دمعة، ولا أذكر أن أحداً من حولى قد رأيته يبكى. كنا فقط نتحرك ونسعى ونتكلم واجمين، وكأننا نخاف أن نبكى وننسى، وفى القلوب ظل الحزن قابعًا متجمداً مفتوح العينين.

## (٥)

إلى مقهى البوسفور دخلت منهكًا، متعب القدمين وعضلات الساقين. جلست على مقعد شاغر. لمحنى الجرسون، ووعى حالتى، فجاءنى بزجاجة كوكاكولا. قال لى:

– بل ريقك. أكيد تعبت.

سمع تصفيق زبون، فقال لى على عجل:

– على الله تكون لقيت سكن. السكن كتير زى الهم ع القلب.

وقبل أن يقول شيئا آخر، تركنى وسارع إلى الزبون الذى يعاود تصفيقه. ولم يلبث أن عاد إلىّ حاملا حقيبتى من مقبضها، ووضعها بجانبى. قلت له:

– يا ريت. خليها عندك لسه ما لقيتش سكن.

فقال لى متأففًا:

– لسه؟ خليها جنبك. وانت جاى ماشى أخدها منك.

وهم بالذهاب عنى لعمله فى وقت الزحمة، وكانت الشمس تنحدر غربًا والظلال تتمدد وتتسارع فى التزايد بالميدان، وسمعته يقول لى:

– حتبات فين؟ بيتى تحت أمرك.

وتركنى مسرعًا.

بالقرب منى رأيته يحدق بى. فكرت أننى أعرفه. رأيته فى السنبلاوين مرارًا، يخطر ببدلته البنية القاتمة الجاكت فى مربعات. رأيته مرة أو مرتين فى حوش المعهد. كان يلفت نظرى إليه بوجهه البيضاوى، وكأنه رسم بمسمار وخيط، ثم شكل فيه الوجه اللحيم، وزرعت العينان الملونتان



الضيقتان. هو إذن بلدياتى ومجاور مثلى. يجلس معه من أعرفه أيضًا من ساحة المعهد وشارع القنطرة بالسنبلاوين. شاب لوحى القوام، محدد ملامح الوجه والكفين، لا تفارق الابتسامة وجهه، حتى وهو صامت وشارد، فيما قدرت دائمًا تحذر رائيه وتنذره، فهو شديد الاعتداد فيما أقدر بنفسه.

ابتسم لى من يحدق بى، ونهض نحوى. قال لى بأدب:

– تسمح أقعد معاك؟

أومأت له برأسى فجلس. نظر إلى حقيبتى، وقال لى:

– لقيت سكن؟

هززت له رأسى نفيًا. قلت:

– حفيت من حى لحى. يا قلب لا تحزن. سكن كتير. وكله يطفش أو يخوف. سكن هنا جحر. وسكن هناك صاحبته تقول لك دايما: وادى الحمام والطشت. فى أى وقت أنا تحت أمرك. أسخن لك ميه. وادلك لك ضهرك.

ضحك من قلبه. قال:

– دا انت هايل ولقطه. حد يسيب السكن مع ست بتقول له: أنا تحت أمرك.

غاظنى ضحكه. قال لى:

– بتدور على السكن بنفسك؟

نظرت إليه مستفهمًا عما يقصده. قال لى:

– اسأل مكوجى. بقال. حتى عربجى. قول له على طلبك وأجرتك وشروطك حيفهم فى الحال نوعك، ويجيب لك فى الحال طلبك. حيستفيد منك ع الجانبين. منك حته بعشرة، ومن صاحب السكن أو صاحبته حته بعشرة.

تأملته بدهشة. خطر لى خاطر للتأكد سألته:

– انت من السنبلاوين نفسها؟

فقال:

– أيوه.

وأضاف وقد فهم ما أفكر فيه:

– وانت منين فى الأرياف؟

قلت له:

– من بلد اسمها كده يا فرعونى يا تركى. الله أعلم: برهمتوش.

فقال لى وكأنه يشتغل فى الرى أو المساحة:

– كل البلاد حواليها من بحيرة المنزلة لفرع دمياط اسمها غريب. أكيد فرعونية كلها، وعلى أراضى عاليه زى التلال. مش كده.

تأملته بدهشة فقال لى:

– أبويا مهندس رى، وياما سافرت معاه فى البلاد.

لزمت الصمت لحظة، فقريتى كانت فعلا فوق تل.

قال لى:

– أنا اسمى متولى.

التفت نحو صاحبه الذى يجلس هناك وحيداً يراقبنى ويراقبه بنظرة ذكية، بدا لى أنه يفهم كل كلمة، وهو على مسافة لا يمكن معها أن يسمعنا. ربما من حركات الرأس والأيدى، وربما من حركة الشفاه وإيماءات الرأس.

أشار متولى نحوه قائلا لى:

– صاحبى اسمه حموده.

وضحك. وتغنى: حموده جاى يا بنت الجيران. ثم قال لى:

– اوعى يسمعك بتغنى كده. بيغضب منك ويخاصمك خصومة ما ينساهاش. زى ما تغنى لواحد طويل وتقول له: يا نخلتين فى العلالى. يا بلحهم دوا.



ضحكت من قلبى لظرفه ودعابته. قلت له وقد أحببته:

– اسمى يا سيدى.

فقال لى فى الحال:

– سليمان وابوك الشيخ عبد المعطى. وبالأمارة ساكنين بشارع عبد المنعم.

دهشت. فقال لى ضاحكًا:

– أنا ابن السنبلاوين جدا عن جد. وباحب علم الأنساب.

تمنيت فى تلك اللحظة أن أسكن معه ومع صاحبه، أيا كان الحى الذى يسكنان فيه. أشار متولى إلى حمودة ليأتى ويجلس معنا، فأشار بيده بما معناه: تعالوا انتم. قلت لمتولى وقد أدركت إشارة حمودة:

– دا إنف قوى. تعال يا سيدى نقعد معاه.

قال لى متولى قبل أن ننهض:

– الأول. قل لى إنك موافق تسكن معانا. تلاته يعيشوا مع بعض أحسن من اتنين. زيادة لأ. خناقات ومشاكل. واتنين ممل. والوحدة عذاب.

قلت له فى الحال:

– موافق.

وأضفت:

– إذا وافق صاحبك حمودة. العشرة بالتراضى يا صاحبى.

نظر إلىَّ بدهشة. قال:

– دا انت أروبة. تعجبنى حكمتك.

قلت له:

– زى حكمتك بالضبط. أنا زى الميه. باتشكل بلون الكوباية.

فقال لى وهو ينهض:

– يعنى باختصار: بتاخد الكل على قد عقله، وتريح دماغك، ودماغ اللى تعرفه.

دهشت من نفسى لأننى بحت بما فى نفسى عن نفسى وفهمى لطبعى. وانصرفت دهشتى إلى متولى، وهو ينحنى، ويحمل عنى حقيبتى، ويسير بها إلى حيث يجلس حمودة.

فور جلوسنا مع حمودة، قال حمودة لمتولى بتأفف:

– دا زميلنا الجديد فى السكن.

فلم يرد عليه متولى. فقط التفت إليّ، ربما ليرد على حمودة بمبرر لاختيارى للسكنى معهما. سألنى:

– بتلعب شطرنج؟

قلت:

– ودمنه وطاوله وكوتشينة.

وأضفت:

– بس على قدى. مش حريف يعنى.

فقال لى ضاحكًا:

– كويس جدا. يعنى حاغلبك على طول. حاكم انا بقى باحب أقوم غالب.

والتفت إلى حمودة قائلا:

– شفت بقى. مش زيك ما بتحبش اللعب. يا كله مذاكره. يا كله نوم.

فقال له حموده دون أن ينظر إليّ:

– هنيئًا لك. بس يسكن معاك فى أوضتك. أنا باحب أسكن لوحدى، وانام لوحدى، حتى مع أهلى.

فقال له متولى بغيظ:

– باين عليك مش موافق على سكن حد تانى معانا السنة دى.



فقال له حمودة:

– أنا ما قلتش لك لأ. أنا قلت لك شرطى. يا اسيب السكن واسكن لوحدى.

والتفت إليّ قائلا:

– اللى يحب واحدة يفضحها باسمها، وعلى صفحات الجرايد. طب قول فيها شعر زى على الصياد، زى قيس.

فضحك متولى، وقال لى معلقًا:

– أصله ياسيدى بيقرا الإصلاح كل أسبوع كلمة كلمة. الجريدة الوحيدة اللى بيقراها قبل ما ينام. أبوه بيشتريها ويدفع تمنها.

فى تلك الليلة فاجأنى متولى بشخصيته. تصرف كأخ أكبر وأب ومسئول. استأجر عربة كارو، وسار معى بجانبها إلى المعهد الدينى، وجلب معى سريرى من عند عم مرسى بواب المعهد، وصندوقًا كارتونيًا به رفايع السكن الأخرى: الوابور، والأطباق، والسكين، والبراد، والملعقتان، والحلتان، وإبرة الوابور، وفوطة التنشيف للمواعين. والكتب والمجلات التى أحتفظ ببعضها. وعدنا معًا سائرين بجوار العربة الكارو.

كان البيت فى الطابق الثانى بحى الحسينية، وكانت غرفتى أنا ومتولى الأكثر نورًا وإضاءة، وكأنها معدة لتكون غرفة استقبال، وبدت لى غرفة حمودة معدة لتكون غرفة نوم مثل كهوف البيات الشتوى. وبين الغرفتين كانت طرقة يسميها أهل البيت صالة. وأمام الغرفتين كان سطح قد تلبد فيه الطين بالقش، وفى ركن منه كوم من القش لإشعال فرن البيت به، عند الخبيز على السريع لصنع فطيرة أو طهى شيء بالفرن، وفى الطرف المقابل للغرفتين، كان منور يسقط بعض الضوء على حوش البيت تحته، ويرفع أدخنة البيت والوابور إلى سماء الحى الفسيحة. وعجبت حين عرفت من

متولى أن هذا البيت له صاحب رجل لا صاحبة، يدير أموره كلها. على العكس تمامًا من سواد البيوت التى سكنتها فى مدينة الزقازيق.

وتابعنى حمودة أنا ومتولى ونحن نضع متاعى بالغرفة، وعجب حمودة لشكل سريرى الذى يطبق كأنه حقيبة من شرائط الحديد. وعجب لأن لدىّ بعض الكتب، وقال لى:

– دانا حاقرا على حسك قراية.

وأضاف ضاحكًا:

– أنا باحب القراية بس ببلاش. عندك مانع؟

ولم أقل له سوى:

– نقريك لوجه الله، ونكسب فيك ثواب.

عندئذ عبس حمودة. وانصرف من غرفتنا إلى غرفته. فقال لى متولى:

– خد بالك: حمودة يحب إنه هوه بس اللى يهزر. وما بيحبش حد يه معاه.

فهمت حدود حمودة. والتزمت الحذر معه طوال شهور الدراسة.

***

لصاحب البيت كانت زوجة وابنة صغيرة من زوجة ماتت أمها. ومذ الحمام لافت الابنة الصغيرة وهى ابنة صاحب البيت على متولى، وتعلقت با أسميتها سندريلا. وجدت عند متولى أبًا لم تجده فى أبيها، وحنان أمومة ل تجده عند زوجة أبيها. وأخًا تلعب معه على السطح كرة يد ككرة التنس. ومتولى دائم التحذير لها وهى تجرى على السطح الصغير المساحة، خوفًا عليها من السقوط من المنور. وكانت زوجة الأب لا تكف عن مناداتها، فتثير الرعب والخوف فى قلب اليتيمة الأم، وتسارع بنزول درج السلم، خوفًا من عقاب الشكوى لأبيها. ووعى حمودة وحده ما سوف يحدث. راح ذات ليلة



يحذر متولى من نتائج لعبه مع البنت. سيغضب الأب يومًا. قد تقع البنت من المنور. قد تغرم البنت بمتولى.

***

ذات نهار، قرب الغروب، وقع المحظور. سقطت البنت فى المنور. وشرخ ساعدها على أرض يابسة لا حنان فيها، وكان اسمها هو: حنان. واصفر وجه متولى. وعاد الأب مسرعًا إلى البيت، وحمل ابنته إلى المستشفى، فحبسها له وراحت البنت، ابنة السنوات التسع، تصرخ فى قلب الليلة من الألم، وهى تبكى مرددة: أنا عايزة متولى. هاتوا لى متولى.

وفى ظلام الليل صعد إلينا أبو حنان، وطلب منا الرحيل فى الصباح عن بيته. لم يقل شيئًا آخر، وتركنا ونزل إلى زوجته وابنته. وراح حمودة ينظر إلى متولى متجهمًا. لم يقل أحدنا للآخر شيئًا، أى شىء، عما حدث.

عند الضحى عاد إلينا متولى ومعه كانت عربة كارو، وانتقلنا إلى بيت آخر بطرف حى كفر النحال، تطل واجهته على ساحة مسجد "أبو خليل" المكشوفة، وعلى طريق معبد مفتوح للشمس والهواء والحر والبرد وظلام الليل وضوء النهار. كان الإنجليز قد رحلوا عن هذه الساحة، وتمنيت كلما أطللت من نافذة غرفتى، أن تصبح الساحة حديقة، وأن تتناثر فى الحديقة أشجار وشجيرات وتكسو أرضها حشائش خضراء.

أحيانًا كنا نتسرب من البيت معًا أو فرادى. نذهب إلى المسجد لنصلى كى نؤدى حق المسجد فى دخوله. ثم نبحث عن عمود به، بقرب نافذة مشعة بضوء النهار، أو تتدلى من سقفه مصابيح نجفة. واعتدنا نحن المجاورين أن نتحف مؤذن المسجد وسعاته بالشلنات والقروش، ليتركوا لنا المسجد مفتوحًا ومضاء طوال الليل، وكنا نقول لهم طلب العلم أيضًا عبادة وفريضة. ولم يكن ثمة عمود واحد بمسجد "أبو خليل" لا يجلس تحته مجاور أو أكثر

من مجاور، هربًا من نبالات مصابيحنا الضعيفة الضوء، وغرفنا المقبضة الهواء والجدران.

***

فى بيتنا عند مسجد "أبو خليل". كانت تعيش امرأة وحيدة فى غرفة كما الزنزانة. عرضها متر لا غير وطولها متر ونصف لا غير، ولا نافذة بها لهواء أو ضوء. كانت الغرفة عند بسطة درجة السلم، وبجانبها مرحاض البيت العام لكل أهل البيت، وكنا نحن سكان البيت فى أعلاه وأسفله نرقب باب المرحاض ننتظر خلوه، والإسراع إليه قبل غيرنا. ولم أر ساكنة هذه الغرفة سوى مرة واحدة أو مرتين. وهى عائدة من الخارج تصحب معها طفلا صغيرًا ابن ثلاثة أعوام، وتدخل غرفتها مع ابنها على عجل، وتغلقها بالمفتاح، وتضيء مصباحًا نمرة خمسة فى عز النهار، نرى نوره من خصاص ألواح الباب وفرجه القليلة. ثم لا نراها نحن سكان الغرفتين داخلة أو خارجة.

سأل متولى عنها صاحبة البيت، فأخبرته بحالها. كانت مطلقة، وتعيش على نفقة جنيه واحد مع ابنها منذ عامين. فى المرة أو المرتين اللتين رأيت فيها تلك التى لم أعرف لها اسمًا، بهرنى وجهها وعودها. قوام لا أبدع منه. ووجه لا مثيل لجماله وجاذبيته وخفة ظله ودمه. وبت كل ليلة أسأل نفسى من هو ذلك المجنون الذى يطلق ذلك الوجه، وهذا القوام المغطى حتى الأكمام، المسدل الذيل حتى الحذاء. ساقنى الفضول والاستهبال لسؤال صاحبة البيت عنها. مع أنها وأنها، فقالت لى: اللهم احفظنا. وأخبرتنى أن لها ساقين ضامرتين كسيقان المعيز ولا علاج لهما. تذكرت ما روته قصص الأنبياء عن ساقي بلقيس ملكة سبأ.

***



طارت بيننا نحن طلاب المعهد الأشقياء أخبار أكثرنا شقاوة. كنا نسميه بالعتل، فقد كان ضخم البنية طولا وعرضًا، وعظامًا وعضلات، ولم يفلح وجهه حتى حين يضحك فى إخفاء قسوة ملامحه، حتى ضحكته كانت تخيف سامعها، فقد كان ضحكه يخرج برغمه من بين أسنانه وسقف حلقه وأنفه معًا، ولذلك لم يفلح قط فى كسب صديق، أو السكنى مع مجاور. كان يظهر فقط فى أيام النكبات حين يختلف المجاورون مع المجاورين، أو مع الأهالى، أو مع البوليس. أو حين يكون بحاجة إلى نقود. كان يأتى بحجر من الطوب الأحمر، ويتحدى الطلاب أن يضربوه به فى بطنه، فإذا توجع وقال: آه، خسر الرهان، وإذا لم تُسمع منه كسب من ضاربه قرشًا واحدًا لا غير. كان يقف فى ساحة المعهد متحديًا طلاب السكن الداخلى. فيتناوبون على ضربه بكل العزم فى بطنه العارى، مقبلين نحوه من بعيد بحجر الطوب الأحمر، فلا يزيد عن أن يضحك ساخرًا، وتستقبل يده القروش بعد القروش فيسقطها فى سيالة جيبه، إلى أن تحطم الحجر وتفتت وحده على بطنه العريان دون أن يتوقف عن الضحك أو يقول: آه.

لم يكرر الطلاب معه تلك المغامرة، ولا ذلك الرهان، حتى حين تحداهم ليأكل خمسة كيلو جرامات من العسل الأبيض، دون أن يشرب جرعة ماء أثناء جرعه له، أو حتى حين تحداهم أن يشرب خمسة وعشرين زجاجة كبيرة من الكوكاكولا، زجاجة وراء زجاجة دون أن ينزلها عن فمه حتى تفرغ. كانوا يضحكون منه وعليه، ويدركون أنهم هم الخاسرون لو دخلوا معه فى أى رهان. فراح يجوب مدينة الزقازيق يوم إثر يوم، بحثًا عن مصدر لكسب النقود.

***

توقف العتل ذات نهار من نهارات تجواله، بشارع جانبى تقف به سيارة

وحيدة فاخرة، أمام عمارة مهيبة. رأى شاباً أنيقًا يخرج من باب العمارة، ومعه فتاة بدت له كعروس، وسارع هو العتل نحو الشاب قائلا له:

- ادينى المفتاح أنا حافتح لك العربية يا سعادة البيه.

كان يأمل أن ينال منه نظير فتح الباب خمسة قروش لا غير. فنظر إليه الشاب باستعلاء قائلا:

- امشى من هنا يا جربوع.

فلم يزد العتل على أن يقول له:

- أمرك. أمرك يا سعادة البيه.

وتنحى جانبًا تحت شجرة حمراء الزهور. وفتح الشاب باب السيارة لفتاته، واستدار وفتح الباب الآخر لنفسه، ودخل عربته وجذب بابها، وأدار المفتاح فى ثقبه ليدير موتور العربة، فدار، وهم الشاب بالتحرك بعربته، لكن عجلاتها راحت تدور حول نفسها، وتنحت الأرض فى دورانها، ولم تتحرك خطوة، ورأى الشاب فى المرآة وجه العتل يضحك بسخرية، وهو منحن على مؤخرة عربته. أدرك لفوره أن العتل يجذب العربة من تصادمها الخلفى. نفخ الشاب وزفر وأوقف الموتور، وفتح باب العربة، ونزل، واتجه إلى العتل.

كان العتل واقفًا ينظر إليه بهدوء مبتسمًا. خشيه الشاب حين تأمل طوله وعرضه، وسمع فتاته تزعق فيه قائلة له من داخل العربة:

- اديله اللى هوه عايزه وخلصنا.

قال الشاب للعتل:

- طلباتك؟

فقال له العتل بسخرية:

- الجربوع عايز واحد جينى. جينى واحد بس. كان حيكفينى منك شلن. لكن ما دام بقيت جربوع يبقى الجربوع عايز واحد جينى. جينى واحد بس.



وسارع الشاب إلى الفتاة فناولته الجنيه، فعاد وناوله له قائلا بأدب:

- اتفضل يا.. حضرة.

فصاح العتل بالفتاة:

- يعمر بيتك يا ست.

وابتعد عن العربة فى الطريق المعاكس.

★★★

وقادته تجوالاته فى مدينة الزقازيق، نحو ناس متجمعين فى عز النهار، حول قرداتى وقرد وحاو وصعلوك ضامر البدن، يقيده الناس بسلسلة من الحديد، ومعهم راقصة من بنات البلد، تضرب الدف وترقص فى أن معًا، وتجمع فى النهاية فى دفها ما يدفعه الناس نظير الفرجة. ولم يتوقف نظر العتل إلا عند سلسلة الحديد.

تقدم العتل من الصعلوك الضامر البدن وتحداه أن يقيده بسلسلة الحديد، وسخر منه صاحب السلسلة، وهاب الصعلوك ضخامته، فترك سلسلته هو، وأخرج من خرجه سلسلة أخرى متينة الحلقات، محكمة اللحام، وراح يقيده بها أمام الناس. لفها حول صدره العارى وذراعيه من العضدين، وأغلق الحلقتين بقفل حديدى ضخم، ووعده بجنيه كامل، إذا نجح فى فك السلسلة.

ولم يكذب العتل خبرًا. صاح بالناس:

- سقفه لاجل النبى.

فصفقوا له. وعندئذ نفخ صدره وشد عضلات عضديه، وهو لا يزال يضحك، ودهش القرداتى والحاوى وصاحب السلسلة والراقصة، ومن حولهم من المتفرجين، وهم يرون السلسلة تنفك حلقاتها، والقفل ينفسخ. ويسمعون تصفيق الناس له، وتدفقت هباتهم فى دف الراقصة، ووثب العتل على الدف،

وأفرغ كل ما فيه فى سيالة جلبابه قائلا للراقصة:

- دى كلها ليَّه.

وزاد فاستدار إلى صاحب السلسلة قائلا :

- ادينى بقى الجنيه. انت راهنت. وأنا كسبت الرهان.

ولم ينقذ الصعلوك منه سوى الراقصة. انحنت على أذن العتل، وقالت له كلمات لم يسمعها أحد سواه، وغادرت الحلقة فتبعها لفوره، واختفيا.

منذ ذلك الحين كما يقول الرواة، لم يعد العتل إلى المعهد، ولم يعد إلى القرية التى جاء منها. انقطعت أخباره عنا وعن أهله، وتردد عند بعض العالمين، أنه أقام مع الراقصة، وأنها عينته لها حارسًا، يحميها فى لياليها الملاح.

***

كانت شهور الدراسة فى تلك السنة أجمل شهور عشتها فى أكثر سنواتى الدراسية حرجًا. فهى شهور عام الشهادة الابتدائية التى تأتى أسئلتها من الأزهر نفسه، وتصحح أجوبتها فى الأزهر نفسه، وكانت فى الوقت نفسه هى شهور خير سنة دراسية لى راحة واستقرارًا ، ففيها ذاكرت بانتظام أولا بأول، وقرأت قراءة حرة لا بأس بها، وفيها استمتعت أيضًا فى جلسات المقاهى ودور السينما ببعض اللهو المنظم، دون لوم من رفيقيّ، وهو لهو لم يحب رفيقاى المشاركة فيه بقليل أو كثير. كانت للنقود عندهما قيمة لتدخر، وللمعيشة عندهما نظام ثابت ليتبع. ومن المعهد إلى البيت إلى المسجد فى ظهائر أيام الجمع.

والمرة الأولى، والوحيدة من نوعها، التى فرحت بها، فى سنوات المجاورة، فى كل امتحاناتى بعلوم الأزهر، كانت فى امتحان الشهادة الابتدائية فى مادتى النحو والصرف. كانت طريقة الأسئلة فى العلمين تستهدف اختبار



القدرة على الفهم، ومعرفة مدى التحصيل من خلال الفهم لا الحفظ، واختبار الذكاء فى الوقت نفسه على طريقة الاستبيانات والامتحانات الأمريكية، بين طلب لملء الفراغات، وطلب لتحويل جمل مع تغيير الضمائر للعاقل وغير العاقل وللمذكر وللمؤنث وللتعريف وللتنكير، وللمفرد وللمثنى وللجمع، أو لجمل بها صفة يتغير إعراب كلماتها بتغير منازلها، فتكون أنًا خبر لمبتدأ، وأنًا صفة، وأنًا حالا، وهو أمر يحكمه كون الموصوف نكرة أو معرفة.

كانا امتحانين عجيبين عامَّين فى الشهادة الابتدائية لكل المعاهد، جاءا إلى معهدنا من القاهرة. وفاز فى النجاح فيهما بدرجات متفاوتة من دفعتى الأذكى فالأذكى، ولم يرسب فيهما أحد. وكدت بعد أن غادرت الامتحانين، راضيًا عن نفسى، أن أصرخ فى كل شيخ أقابله من شيوخنا، وورقة الأسئلة فى يدى: تعلموا كيف تسألون ليتعلم الطلاب كيف يفكرون ويفهمون ويجيبون، ويصيرون خبراء فيما يدرسونه من علوم.

(٦)

لأول مرة في حياتي الدراسية كمجاور أشعر بأنني قد صرت حقًا مجاورًا أو أزهريًا، حين تسلمت كتبي التي سأدرسها، وأمتحن فيها بالصف الأول الثانوي. لم أكد أصل إلى بيتي بشقة كفر "أبو حسين"، حتى عكفت على الجديد عليّ من علوم هذه الكتب. كان بينها كتاب الأحاديث النووية. كان به أربعون حديثًا بديعًا، لا أظن حتى اليوم أن هناك أحاديث تضاهي معظمها جمالا، وحكمة، وقصصًا، ومحبة للعلم، وبناء للضمير الخلقي الفردي البشري، بين أحاديث تروى بالألوف وعشرات الألوف ومئات الألوف. وكان بينها كتاب مؤلف حديثًا في علم التوحيد أو علم الكلام يثير الفضول، عن عالم الغيب الميتافيزيقي كما يقولون. وكان بينها كتاب مترجم منذ زمن بعيد في علم المنطق لإيساغوجي سيئ الطبع والترتيب، وكان في منطق الفيلسوف أرسطو وأشكال قضاياه، وبه مصطلحات غريبة عليّ من مثل: الجنس، والنوع، والعرض، والجوهر، والمحمول، والموضوع، وكان بينها كتاب مهول من مجلدين في علم النحو لابن عقيل في شرح ألفية ابن مالك التي فشلت في حفظ أكثر من مائتي وخمسين بيتًا منها لم ألبث أن نسيتها. كان كتابًا حدَّثه وشرحه وذيله وعلق عليه عالم النحو المجاور الفحل محيي الدين عبد الحميد. وكانت معها رسالة صغيرة في كتيب متواضع صغير، في علم الطبيعة، عن الضوء والصوت والمغناطيسية والكهرباء.

أحسست مع هذه الكتب، وجدة العلوم عليّ، أنني قد صرت حقًا طالب معرفة، وأنني أحيا في أزهر حديث بعد خمس سنوات عجاف من المجاورة والدراسة، لم أر فيها جديداً سوى مبادئ في النحو، والفقه، وعلوم الحساب، والهندسة، والجبر الذي لا قبل لي به الآن. الآن صرت على أبواب الفلسفة والمنطق وعلوم العصر التي حدثتني عنها مجلات ذلك الزمن، وكتب المؤلفين من ناشري الثقافة العامة بين المتعلمين في مصرنا المحروسة.

اعتكفت على قراءة هذه الكتب المتتابعة. وأحسبني قد وعيت منها كتاب علم الطبيعة في نهار واحد وليلته. وقلت لنفسي، أو هكذا ظننت، أنه لم يصر بيني وبين طلاب المدارس الثانوية فرق. وقرأت كتاب الأحاديث النبوية النووية، ووعيت من مضامينها وكلماتها البسيطة، ما لم تقله لي الشروح المذيلة تحت الأحاديث للمعاني والمفردات. وأحسب أن هذه المضامين قد زرعت فيّ إلى نهاية عمري، ومن حيث لا أدري، إحساسًا وشعورًا دائمين بطلب المعرفة والصدق معها والقيم الإنسانية.

وتوقفت عند علم التوحيد. لم أتوقف في كتابه بشك وريبة إلا عند مقولات المتكلمين، وفرقهم المذهبية، عن الذات الإلهية وصفاتها، وهل هي قديمة أم حديثة؟ وهل هي عين الذات الإلهية أو مستقلة عنها؟ بدا لي ذلك الأمر خوضًا فيما لا يعلمه أحد من البشر، فلا يعلم الغيب سوى رب الغيب.

كتاب شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك الذي هالني وظننت فيه علمًا بنحو ميسر ومعمق، سرعان ما صدتني صفحاته عنه، لغرقه في الجزئيات والشواهد الشاذة عن القواعد الأساسية في اللغة في نثرها وشعرها ورسائلها وخطبها وحكمها وأمثالها.

وعدت إلى المعهد الديني بعد أسبوعين، وقد صرت أكثر صلابة ونضجًا وقدرة على مواجهة شيوخي. ومن العجيب أنني صرت أكثر مواظبة على حضور دروس المعهد الديني. ورحت أثير إعجاب شيوخي بي حينًا، وثورتهم ضدي حينًا، حين أبوح في قلب الفصل بخواطري وهواجسي. واتهمني شيخ التوحيد بالكفر لمجرد أنني فجرت في الفصل قضية عن عبث الخوض في

الذات الإلهيـة، وجودها وصـفـاتهـا، بما لا علم لنا به من قرآن ولا حـديث صحيح، ولا قدرة لعقل بشرى على إدراكه، بتصورات فلسفية موهومة. طردنى الشيخ من الفصل، ولم يلبث ذلك الشيخ الطيب الودود أن أخذنى جانبًا، واعتذر لى عن اتهامه لى بالكفر، وأعادنى إلى حضور دروسه، طالبًا منى فقط ألا أفجر أمورًا تفسد عليه تدريس المنهج المقرر. وقبلت عرضه، واحتفظت بأفكارى لنفسى، فأنا فى وسط طوفان من الموروثات، والكتب القديمة، والشيوخ الصالحين لكل عصر وبلد، والخائفين فى كل عصر وبلد، لكننى فى الوقت نفسه قررت فى نفسى لنفسى ألا أكون شيخًا من شيوخ الأزهر فوق منبر، أو فى معهد من معاهده.

★★★

من حكايات مساكن المجاورين حكايتى مع السيد بعكوكة. كنت بالصف الأول الثانوى، أسكن مع ثلاثة شبان بمسكن بالطابق الأول بعطفة مسدودة بكفر "أبو حسين"، بينهم كان اثنان من المجاورين، وكانا بصف دراسى يسبقنى بعامين. أحدهما كان من أسميته "ابن زيدون"، والآخر كان من أسميته حينًا "أبو نواس" وحينًا "دون جوان" وحينًا "فالنتين" وحينا "المنفلوطى"، ولهما حكايات معى وعندى سيأتى حينها.

وثالثهم كان عامل بيع بصيدلية على ناصية شارع عباس، وكان صاحبها يهوديًا صار من بين الراحلين من يهود مصر إلى إسرائيل. أسميت ذلك الشاب "السيد بعكوكة" فقد كان يكتب بانتظام شهرى أو أسبوعى أزجالا شعرية حلمنتيشية غير مأجورة كسائر الزجالين والقراء لصحيفة البعكوكة التى كان يحررها قراؤها. كانت صحيفة تصدر فيما يقول صاحبها حسب التساهيل، مع أنها كانت أروج صحيفة فى مصر ما قبل الثورة ضد الثروة. واكتشفت فيما بعد بالقاهرة فى زمن فساد الأمكنة



صديقين كانا يعملان بها، هما الصديق القاص المبهر صبرى موسى منحه الله الصحة ورعاه، والصديق الصحفى الفكه القدير حمدى لطفى رحمه الله، وكانا فيما روياه لى يحملان رزم الصحيفة على أكتافهما إلى مقر البعكوكة، وليتها تعود إلى الصدور مرة أخرى ليحررها القراء لا الكتاب ولا الصحفيين، فهم الأصدق قولا ولسانًا وشهادة. كانت حقًا لسان حال الشعب المصرى وأغانيه وأزجاله ومواويله وقفشاته الضاحكة الاجتماعية والسياسية الساخرة والجارحة، وقد تربى عليها فيما أعتقد عدد من الحرافيش.

كان الشاب البعكوكة متأنقا صيفًا وشتاء يحمل أبدًا على ساعده معطفًا فاخرًا أسود مع منتصف الخريف. كان عريض الصوت أجشه، مثلث الوجه، عريض الجبهة، ضاحك السن مرحًا، يتوقد ذكاء وفطنة. وكان معقوف الأنف، وأحسبه كان يهوديًا متنصرًا من باب التقية كصاحب الصيدلية التى يعمل بها، وكان جيب بنطلونه أو معطفه عامرين أبدًا بالريالات الفضية دون غيرها. وكان الريال الفضى فى تلك الأيام فضيًا حقًا، ويعادل فى زمانه خُمْس جنيه من الذهب.

سألته مرة متعجبًا من كل هذه الريالات التى تربو معه كل يوم على جنيهين، فضحك وقال لى:

- من الصيدلية التى أعمل بها. أنا الذى أبيع، وأنا الذى أحاسب. وجزء منها أجرى، وجزء منها زيادة سعر على الزبون من وراء ظهر صاحب الصيدلية الواسع الغنى والكثير العقارات، وجزء آخر نفحة من عمى صاحب الصيدلية لقيامى عنه بالواجب نحو بيته، ليستريح هو من أداء الواجب الذى لا ينتهى.

ولم يكن السيد بعكوكة يتردد مطلقًا فى منحى أنا أو المنفلوطى أو ابن دون ريالا أو ريالين قرضًا لا يسترده قط، ولا يقبله حين رده، ويعتبر ذلك

إهانة له، حتى بت أتعجب من أنه ليس مرابيًا. وكان له حساب جارٍ فى بنك ما بالمدينة، وآخر مغلق. وصار فيما بعد صاحب الصيدلية، فقد اشتراها فى أواخر سنوات الخمسينيات ممن يسميه عمه، حين هاجر هذا العم من مصر إلى إيطاليا ثم إلى إسرائيل. ويبدو لى الآن أنه لم يلبث أن باعها بيعًا مربحًا، فلم يكن مؤهلا فى صيدلة أو غيرها، ولم أعرف قط مستواه من التعليم.

بعد أعوام عديدة فاجأنى السيد بعكوكة بوجوده بجانبى شاخصًا، وحيًا أمام مصعد من مصاعد التليفزيون، بمبنى التليفزيون الحالى، وصافحنى وذكرنى بنفسه، وبعشرة كفر "أبو حسين" التى لا تهون إلا على أولاد الحرام. وذكر لى على عجل أنه صاحب مشغل كبير للملابس الصوفية الجاهزة، يبيعها لمحلات القاهرة الكبرى، وأنه جاء ليشارك بأزجاله فى برنامج إذاعى، وترحم على أيام البعكوكة. ودعانى لزيارته، وأعطانى تليفونه وعنوانه فى البيت والمصنع، وأضعت العنوان والتليفون، ولم أزره أو أحادثه أو أره بعد ذلك.

وللسيد بعكوكة معى موقف جميل لا أنساه قط.

★★★

معرفتى بالمجاور رفيق وصديق العمر "أبو المعاطى أبو النجا". فتحت لى منافذ جديدة للقراءة، لكتب ثقافية حقيقية، وبين هذه المنافذ كانت مكتبة بيع للكتب وتأجير لها أيضًا هى مكتبة الشيخ جودة. كان الشيخ جودة شابًا أنيقًا على رأسه عمامة أنيقة، وتحيط ببدنه الطويل كاكولة محبوكة، وكانوا يقولون إنه كان مجاورًا بالمعهد، وفشل فى مواصلة الدراسة بالمعهد، ولم يشأ العودة إلى قريته لأمر لا يعلمه أحد، فبقى بالزقازيق، واحترف بيع الكتب والمجلات الثقافية دون غيرها للقارئين من المجاورين وغير المجاورين.



لم تكن مكتبته سوى ڤاترينة قليلة السُّمك، مثل ڤتارين بيع السجائر، لصق جدار بجانب باب عمارة حجرية قديمة، شيدت فى عهد الخديوى إسماعيل. كانت كتب الڤاترينة معروضة بالعرض وراء زجاجها، تواجه الناظر بعناوينها وألوانها وأسماء مؤلفيها. وأسفل الڤاترينة كانت خزانات لنسخ أخرى منها.

انتقيت يومًا كتابًا مترجمًا عنوانه: آلام فرتر، من مكتبة الشيخ جودة، التى دلنى عليها "أبو المعاطى"، ودفعت تأمينًا له عشرة قروش، بالإضافة إلى قرشين نظير استئجاره لقراءته وحددت لنفسى موعدًا لقراءته فى اليوم التالى على انفراد ساعة صلاة الجمعة، فى: "تل بسطة".

★★★

تل بسطة هضبة غريبة ناتئة كانت خارج مدينة الزقازيق. وفوقها كانت آثار حضارة فرعونية من أوائل العصور الحضارية القديمة فى مصر الفرعونية قبل عهد الأسرات، وربما كان فرع من نهر النيل يمر أمام هذا المكان أو قريبًا منه. فى التل المهجور فى سنوات الأربعينيات كانت آثار شتى من الأحجار المتعددة الأنواع والألوان منحوتة لتكون مقاعد ومصاطب وطبالى وأسرَّة وجدرانًا وأعمدة وتماثيل. ولم يكن ما بقى منها سوى بقايا، عدا تمثال واحد من البازلت الأسود فارع القامة، ألواح أعضائه مثل العمالقة الأسطوريين العظام. كان عاريًا من كل ما يشير إلى أنه يلبس ثوبًا ما على بدنه، أو يضع غطاء أو تاجًا على رأسه، أو ما يستر به عورة ذكر. ويبدو أنه كان فى زمانه رمزًا للخصوبة الرجولية، فقد كانت أعضاؤه التناسلية واضحة ومحددة وعارية وفتية. وكانت نسوة كفر "أبو حسين" تتحدثن عنه كقوة سحرية تمنح من تعانقه من النساء العقيمات العواقر، وتحتك به حتى يسيل من مواضع العفة بها، القدرة على الإنجاب، وكأنها قد

حملت منه هو. حدثتنى بذلك عنه أم فلان صاحبة البيت، فقد كان أكثر بيوت هذه الناحية أيضًا من مدينة الزقازيق ينسب إلى أم ما من أمهات الحى، وكلها بيوت يسكن بها كثير من المجاورين والطلاب المغتربين الآخرين بمدارس المدينة.

لم أكذب خبرًا. وسعيت إلى تل بسطة عصرًا، وتجولت به. شاهدت آثاره المحطمة، وآثاره التى أكلتها عوامل التعرية، وبقايا أمتعته الحجرية. ويبدو أن المكان كله كان فى قديم الزمان معبدًا، حدسى بذلك يؤكده وجود هذا التمثال الرجولى فى مطلع التل.

وتسللت مرة ثانية إلى تل بسطة فجرًا، وكمنت بين أحجار التل، وسط الأعشاب النامية، فى موقع مستور، بحيث أرى ولا أرى. وعند شقشقة ضوء الشمس التى لم تشرق بعد، رأيت بضع نسوة يتقدمن من تمثال إله الخصب، تتوسطهن شابة. كن جميعًا ملثمات بطرح سوداء كثيابهن عدا تلك الشابة، فقد كانت تبدو كعروس تساق إلى عريسها. وبدأت أرى وأرقب طقوس الزفاف والعناق أو الدخلة مع ضياء الفجر.

شبت الشابة على حجر. والتفت الملاءات والأيدى بها تخفيها عن عيون الأرض والسماء، وبدا لى أنها تعتنق سيدها الفرعون، ومضت برهة تضاحكت بعدها النسوة. وخيل إلىّ أننى سأسمع منهن الزغاريد، لكن زغرودة واحدة منهن لم تسمع، رأيت إحداهن تتقدم نحو عروس الفرعون، وتعطيها ما تدسه فى جسدها، والأخرى تلفها من الرأس إلى القدم بملاءة سوداء، والثالثة تقدم لها إبريقًا فخاريًا أسود من الفخار. أخذته الشابة وقذفت به أعضاء الفرعون الحجرى، كأنما لتغسلها مما أصابها منها. وانصرفت بها النسوة مبتعدات عن التمثال السحرى، وأخذن فى هبوط التل، والشابة تتساند على أيديهن، متقاصرة الخطو، متعثرة السير، وكأنها قد ختنت لتوها.



حين اختفين عن البصر، خرجت من مكمنى. أسرعت إلى التمثال البازلتى. رأيت آثار ماء الإبريق لا تزال تتحدر قطراته منه مع آثار دم، وكِسَر الإبريق تحته محطمة لا تزال مبتلة، وتحت أقدام إله الخصب كانت بقايا أباريق قديمة مكسرة سوداء، كلها سوداء، متناثرة متقاربة ومتباعدة. ووقعت عينى على آثار بلل على موضع العفة من التمثال. لمستها بإصبعى فتأكدت أنها كانت دمًا من دم الشابة، فقد كانت لزجة شديدة اللزوجة متخثرة.

★★★

إلى هضبة تل بسطة عدت مرة أخرى حاملا بيدى كتاب آلام فرتر. الوقت ظهر يوم جمعة. وآثار التل الحجرية تكاد تكون مطمورة الأصول فى تربة التل، تحتضنها أعشاب برية نامية مخضرة، لا أدرى من أين تُسقى وتستمد نداوتها، وربما كانت تسعى بينها هوام وزواحف وأفاع وحشرات وأنا لا أدرى.

جلست على طبلية حجرية وبدأت فى قراءة قصة السيد فرتر الرومانسية. تتوالى الصفحات، وأنا أسمع وحدى بداخلى كلمات ما أقرؤه بصوتى، وأكاد أؤدى لنفسى بصوت السيد فرتر كلمات رسائله المستجدية والمتوسلة للحبيبة الهاجرة، ودموعى لرهافة قلبى تسح على خدى، وبين لحظة وأخرى، أمسح بكم جلبابى الإفرنجى الأبيض دموعى وزكامى، وعيناى لا تفارقان سطور الكتاب سطرًا بعد سطر، والشمس ساطعة فوق رأسى لا أبالى بحرها ولفحها. وفى لحظة خاطفة سمعت ضحكًا من حولى، ورأيت ظلالا تحيط بى. رفعت رأسى مرعوبًا ومفاجئًا.

كان حولى صبية دون العشرة عددًا، فى جلاليب مثلى، لكنها أكثر قدمًا. وفى أيديهم مطاو مشهرة. مد كبيرهم يده إلى الكتاب. ظن به شيئًا فريدًا.

قلب صفحاته على عجل. رأى أوراق وخربشات حبر أسود. لعله عجب لبكائي من خربشات الكتاب وانشغالي به، فقد نظر إلى الصبية من حوله، وأشار لهم بحركة صامتة من أصابعه تدل على أنني أهبل ومجنون. وطوح بالكتاب بطول يده بعيداً بين الأحجار، والتفت إليّ، وقال لي:

– هات الساعة.

خلعت له ساعة يدي من معصمي. عاد يقول لي:

– اخلع الطاقية.

خلعت الطاقية.

– اقلع الجلابية.

قلعت الجلابية.

– اخلع الفانلة.

خلعت الفانلة.

– اقلع الجزمة.

قلعت الجزمة. سكت لحظة ثم قال:

– اقلع اللباس.

نظرت حولي. حدثتني نفسي أن تلك اللحظة هي لحظة الموت بالمطاوي. جلت بعيني حولي. واتخذت قراري. انحنيت وخلعت اللباس، لكني في اللحظة التالية، رحت أعدو بكل عزمي، بين الأحجار البازلتية، وقافزاً فوقها من حجر إلى حجر. هبطت من التل، ودخلت في حقل الفول بزهوره البيضاء. انحنيت في عدوي به رافعاً رأسي بين لحظة وأخرى، لأرى من فوق الأغصان العطفة التي بها مسكني.

حين رأيتها انعطفت نحوها قفزاً. خرجت من حقل الفول إليها، إلى مدخل بيتي. صعدت السلم وثباً. دفعت باب بيتي. أغلقت الباب ورائي. وأسندت ظهري إليه لاهثاً ومرتعداً.



كان الوقت ظهراً، وكان الناس لا يزالون في صلاة الجمعة، ولعلهم كانوا في طريق العودة منها. لم يرني أحد كما خلقني ربي. تنفست براحة، ارتديت غياراً آخر، فانلة ولباساً وجلباباً. الغيار الوحيد لديّ. صرت الآن بلا ساعة، وبلا حذاء، وبلا غيار آخر. حدثت نفسي أن ما حدث لي كان من بركات السيد فرتر، وعقاباً لي لأني تركت صلاة الجمعة. ونمت نوماً عميقاً، ظننته حين صحوت دهراً. أيقظني رفيقاي: المنفلوطي وابن زيدون كي نأكل ساندويتشات الفول والطعمية. أكلت بشهية. ورفضت مشاركتهما في ثرثرة الغداء، أو إجابتهم حين سألاني عن حالي، وماذا بي.

وحين انتهى الغداء أدرت لهما ظهري على سريري، واستغرقت في النوم مرة أخرى. أفكر في أنني صرت بلا حذاء، وأنني فقدت الساعة التي حفيت حتى اشتراها لي أبي، بعد أن أقنعته أنني أريدها لأعرف بها مواعيد الصلوات، ولكي أصحو مبكراً، وأذهب إلى معهدي.

مع الغروب صحوت. كان ابن زيدون والمنفلوطي قد غادرا البيت، وراحا يعسّان في المدينة. وبقيت وحدي حبيس حجرتي فلا حذاء لديّ.

انتبهت، كأنما أرى ذلك لأول مرة، إلى أن المسكن الذي نسكن به مجرد غرفة واحدة واسعة. كأنه صالة فسيحة، بدت فيها أسرتنا نحن الأربعة تائهة في الأركان، تتوسطها حصيرة، تحيط بها جدران مدهوكة بالطين. فكرت أنها كانت سطحاً للغرف التي تحتها، وأقيمت فوقه جدران أربعة، ووضع لها باب، وجعل لها سقف يمكن لسعته أن يسقط فوقنا في أي لحظة.

عاد صاحبي البعكوكة إلى البيت قبل رفيقيّ كما رجوت. تنفست براحة. وحين مدد جسمه على سريره. التفت إليّ في ضوء المصباح الشاحب، وقال لي:

– مالك؟ وشك أصفر. فيه إيه؟

رويت له بهدوء ما حدث. فلم يضحك. توقعت ضحكه، لكنه لم يضحك كما كان يمكن أن يفعل المنفلوطى وابن زيدون. جلس البعكوكة على سريره. أطرق برأسه. فكر لحظة، ثم قال لى وهو يغادر سريره:

- بس كده. ولا يهمك.

وانحنى تحت سريره، وقدم لى واحداً من أحذيته، وضعه أسفل سريرى، وفتح حقيبته، وأخرج لى واحدة من جلاليبه، طوح بها على سريرى. وقال لى:

- مقاسى زى مقاسك. أنا متأكد.

ثم مد يمناه إلى يسراه، وخلع ساعته من معصمها، وتقدم نحوى، وألبسها لمعصم يسراى، قائلا لى:

- سأشترى لى ساعة أخرى غداً. المليان يصب فى الفاضى. فلا تحمل هماً.

وعاد إلى سريره، واستلقى مديراً ظهره نحوى. وسمعته يقول لى:

- روح احضر حفلة عشرة على حسابى. سينما أبو لون فيها فيلم كويس. وصحينى بدرى.

ولم يلبث أن دخل فى النوم، وأنا فى غاية من العجب من أمره معى. وإذ كنت أغادر البيت، سمعته يقول لنفسه:

- كل ده علشان السيد فرتر.

وضحك ضحكة صغيرة. أردفها بقوله:

- ابقى اشترى لى نسخة من آلام فرتر نقراها سوا.

ولا أعرف لم خطر لى وأنا بالسينما، فى عز الفرجة والإثارة، اسما حاتم الطائى والسموأل. وتذكرت بيت الشعر الحلمنتيشى لصاحبى البعكوكة:



- لا تزعلن فإن الزعل منزعل.. وكل زعل على الأزعال مزعول.

★★★

فى حى الحسينية قبل المزارع، كان بيت ناءٍ عن الحى بجوار أرض الفول، كان بيتًا بارتفاع دورين. كان لونه بين اللونين البنى والأصفر، ولم يكن به ما يشير إلى أنه مبنى للسكنى. ولا ما يشير من النوافذ وتحديدات الجدر الخارجية إلى أنه بيت من طابقين. كان به فقط باب مغلق أبدًا لا يفتح على الحى وإنما على مزارع الفول، تنبسط تحته درجة من الحجر المسفلت المنعم بالتمليس بزلطة كبيرة. كان بابًا مستطيلا قصيرًا، يفرض على عابره أو الخارج منه أن يحنى رأسه قدرًا ما، فلا يزيد ارتفاعه عن متر ونصف المتر، وكان الباب بمصراع واحد من الخشب السميك، وبه حلقة حديدية دلاة، وفى أعلاه كانت نافذة مغلقة الشيش والزجاج لا تنفرج بانفتاحة ما إلا حين يتدلى منها رأس به عينان، ليرى صاحبها مَن الطارق للباب، وسرعان ما تنغلق، انفتح الباب للقادم أو لم ينفتح.

كانت جدران البيت الأربعة تواجه الجهات الأربع الأصلية. وكانت ثمة أربع نوافذ أعلى البيت، فيما نظن نحن المجاورين من سكان الحى، أنه الطابق الثانى للبيت، فالطابق الأول من البيت لا نافذة واحدة به. ويعنى ذلك لنا أن غرفه شديدة العتمة والظلام، إلى أن قدّم أحدنا لنا حلا لهذه المشكلة الغامضة، فأعلى البيت به سور قصير، وإن لم تدركه العين، وفى وسط السطح، لا محالة منور تحته حوش، وربما تحيط بالحوش شرفة دائرية، تنير غرف الطابق الأول. كان والد من قدَّم الحل عامل بناء فى قريته. لكن المشكلة ظلت قائمة، فمساحة البيت المربعة محدودة للغاية، عشرة أمتار لكل جدار. وكنا فى عصارى أيام الفراغ الدراسية ندور حول هذا البيت، علّنا نرى به نافذة مفتوحة، أو وجهًا يطل، إلى أن أقسم أحدنا، أنه رأى كل نوافذ

البيت مفتوحة فى أعلى البيت، بعد منتصف الليل، ولكن لم يكن ثمة ضوء لمصباح وراءها.

وتحت نافذة البيت المواجهة للسكة الحديد كانت ترى كتابة بيضاء معوجة مكتوبة بطلاء أبيض بخط يد رديء، تختلط فيها حروف خط الرقعة بحروف خط النسخ: بنسيون الست قشطة. وكانت كلمة بنسيون فى قاموسنا وفى المدينة بأسرها غريبة، وقدرنا أنه لا معنى لها سوى أنها بيت فى لغة إفرنجية أو أعجمية. وظللنا حيارى حيال هذا البيت، ندور حوله حيارى فى أمره كلما احتجنا إلى لحظات من الإثارة والدهشة والتعجب، إلى أن تربص أحد المجاورين الفضوليين لباب البيت.

★★★

كمن الفضولى المجاور فى الأرض المزروعة أمام الباب، فى موسم ارتفاع شجيرات الفول الحراتي، وإزهارها بزهور بيضاء، ورأى فى الساعة الثالثة ظهراً، أربعة مجاورين متأنقين للغاية، بالعمائم والكواكيل يقفون أمام الباب، ولا يطرقونه بالمطرقة، ولا تفتح فوقه النافذة، فقط انفتح الباب، ولم ير من فتحه، وفقط عبر المجاورون المتأنقون الباب، وفقط انغلق الباب وراءهم، ولم يرَ من أغلقه.

وفضول المجاور الفضولى جره إلى فضولات أخرى فى الصباحات المبكرة، والأمسيات الليلية، والتتبع للمجاورين الداخلين العائدين من المعهد الدينى والخارجين إليه، أو إلى دور السينما مرتدين بدلا عراة الرءوس.

واكتشف الفضولى المجاور، أن الأربعة أبناء عمد لقرى، وأن الأربعة يسكنون مع الست قشطة، وأن لها أربعًا من البنات، وأن الأربعة يعطونها كل مصاريفهم الشخصية، وزواداتهم الشهرية من مطايب الأمهات فى القرى أرزًا وسكرًا وسمنًا وعسلا وخبزًا، وأن الأربعة والعياذ بالله، وص



كان ذلك أو افتراء، يعاشرون البنات طوال شهور العام الدراسى، وأن الأربعة يتغيرون بغيرهم وبواسطتهم ومعرفتهم هم، وضمانهم هم، من أبناء العمد، عندما يغادرون المعهد الدينى إلى القاهرة ليلتحقوا بالكليات الأزهرية، أو بدار العلوم.

ومن مسكن للمجاورين إلى مسكن للمجاورين، راح المجاور الفضولى يتنقل ويحكى، ويؤلف عن تاريخ الست ما شاء كما شاء، فهى حينًا غانية تابت وتركت ملاهى القاهرة، ولجأت ببناتها إلى الزقازيق، وهى حينًا معلمة ابتعدت ببناتها عن حى كفر عبد العزيز، وكان حيًّا للمومسات فى الأربعينيات على الطرف الآخر من المدينة، قبل أن يلغى رئيس الوزراء إبراهيم عبد الهادى البغاء فى مصر، ويلغى معه مستشفياته السرية، إثر مصرع النقراشى فحسن البنا، لكى يظهر للإخوان أنه حريص على الإسلام أكثر منهم.

ووصل الخبر إلى شيخ من شيوخنا سأسميه الشيخ بهلول، وكان شيخًا فكهًا ظريفًا وسمحًا، وميسور الحال فى قريته، وبين الشيوخ. وكان يقرض قاصديه من الشيوخ ما يشاءون، ويترك لهم الفرصة لرد الدين عندما يشاءون ويقدرون، ويتنازل عن حقه أو بعض حقه، عندما تتعسر أحوال الشيخ المدين. وكانت له بقريته زوجة وأولاد من البنين والبنات، ويتردد لزيارتهم بين الحين والحين، ولا تفوته مواساة فى عزاء، ولا مشاركة فى فرح. عندئذ نهض الشيخ بهلول، كى يتحقق بنفسه من أخبار بنسيون الست قشطة.

جمع الشيخ بهلول أبناء العمد الأربعة. دعاهم إلى بيته المطل بالمدينة على بحر مويس، وقبلوا دعوته. وجاءوا فى الموعد بعد صلاة العشاء، وأكرمهم الشيخ، وحادثهم فى كل أمر، وعرف عنهم ومنهم كل شيء، حتى أمنوا له.

وظنوا أن الدعوة لوجه الله، وأن الشيخ لا يريبه من أمرهم شيء، هكذا روى المجاور الفضولي. وفجاة، وعلى غير توقع من المجاورين أبناء العمد. قال لهم الشيخ بهلول:

- حان وقت الصدق والجد معي. أنتم شباب، والمال فى أيديكم ميسور، فقط أريد أن أطمئن عليكم. لا. لا. لا تحرجوا. لا يقل أحد شيئًا الآن. أريد فقط زيارتكم فى البيت الذى تعيشون فيه مع الست قشطة.

وجم الأربعة فى حضرته، وصمتوا، وأطرقوا. قال لهم الشيخ بهلول، فيما رواه الفضولى المجاور:

- غدًا الجمعة. أريد أن أزوركم بعد صلاة العشاء. اطمئنوا. لن يرانى أحد وأنا قادم إليكم. فقط افتحوا لى الباب، لأرى بعينى، وأسمع بأذنى. ويفعل الله بنا وبكم خيرًا إن شاء الله.

وعلانية، فى الظلام القمرى، ذهب الشيخ بهلول من بيته إلى بيت الست قشطة، يحف به من جانبيه أبناء العمد الأربعة. وكان المجاور الفضولى لهم بالمرصاد، فتبعهم من بُعد إلى باب بنسيون الست قشطة. وعلى ما رواه الفضولى المجاور فتحت الست قشطة لهم الباب بنفسها وفى يدها مسبحة. كانت محجبة من الرأس إلى القدمين. وصافحت الشيخ بكف مستور بطرف طرحتها الوردية. ودخل الشيخ ومن معه وانغلق الباب. حدث الفضولى المجاور أنها فعلا كاسمها. بل وصفها بأنها مثل قطعة المارون جلاسيه التى لم يذقها فى حياته. وسهر الشيخ مع الست قشطة وبناتها وأبناء العمد الأربعة.

كان الفضولى المجاور لا يزال كامنًا فى عز البرد، بغيط الفول. ورأى الشيخ وهو يخرج. ويغادر الحى مع أبناء العمد الأربعة إلى بيته بشارع عباس. وبعد أيام بحث الشيخ عن الفضولى المجاور وقال له:



- ولا تجسسوا.

ثم قال له:

- بنات الست قشطة متزوجات من زملائك المشايخ الأربعة، ويقيمون معًا فى بيت واحد. ولكى تجد ما تتحدث به فى المجالس، ينبغى أن تعلم أننى تزوجت من الست قشطة، وسأقيم معها فى بيتها، وأفرد بيتى بشارع عباس للبنات الأربع وأزواجهن.

ونفذ الشيخ كل ما قاله، وحصل للمشايخ الأربعة على موافقة آبائهم وأمهاتهم على زيجاتهم، ولم يكن ثمة فرح ولا مهنئين للشيخ، ولا لأزواج بنات الست قشطة.

★★★

فى مسكن كفر "أبو حسين" نشب صراع بين المجاور ابن زيدون، ذى الأنف الغليظ الواسع المنخارين والمجاور المنفلوطى، ذى الأنف الرومانى. كان الصراع بينهما صامتًا مكتومًا ودفينًا يسرى فى نفسىْ صاحبىْ الأنفين، كما يسرى الماء تحت التبن. وكان السبب امرأة أرمل سميتها: ليلى. لم أعلم شيئًا من الصراع الخفى بين رفيقى السكن إلا ذات نهار عصر يوم جمعة.

كنت نائمًا وقت القيلولة. وانتبهت من نومى على تشاجر رفيقى السكن لم أفتح عينى حتى لا يتوقف الشجار، وكى أعرف ماذا يجرى من حولى.

تعرف ابن زيدون فى سوق الثلاثاء المجاور لحى الحسينية على ليلى، أثناء تشممه لفتاة من بائعات الهوى. كن كثيرات فى مدينة الزقازيق بسبب معسكر المحتلين الإنجليز الذين كانوا يعسكرون فى فضاء الساحة أمام مسجد "أبو خليل"، وكثرة العمال الوافدين على المدينة للعمل التراحيلى بالياومة والمسابعة والمشاهرة. كانت ليلى ملتفة بملاءة، وعلى وجهها وشاح

مقصب، وعلى أنفها قصبة من الذهب هى جزء من وشاحها، يتبعها حمال فتى يحمل سلة وجوالا. كان أيضًا تابعًا يحسن إغماض عينيه عندما تغمز إليه، ويحسن التحول إلى وحش دفاعًا عن ذهبها على الأنف والأساور والعنق المشرع. وكانت فى ملاءتها الحريرية السوداء ممشوقة القوام، واسعة العينين معبرتهما وضاحكتهما.

تبعها ذو الأنف الغليظ، حتى خرجت من السوق إلى طريق العودة، وكانت تلحظه وتراقبه مع تابعها. همست لتابعها كى يسبقها إلى البيت. وفهم ابن زيدون رسالتها. واقترب منها ابن زيدون، وقال لها هامسًا بصوته المعبر:

– صباح الخير يا قمر.

والبقية مكرورة. تهاديا فى السير حتى بلغت به باب بيتها بكفر النحال. وعند باب البيت قالت له:

– عرفت البيت. تعالى بكره بعد العشا.

وصعدت درجة واحدة، واجتازت بخفة عتبة البيت دون أن تلتفت إليه. وردت وراءها الباب. ولم يبد من واجهة البيت سوى نافذة على يسار الباب الأخضر، مكرنشة الحواف حول شيشها النقى الخضرة. ظل ابن زيدون يرقب باب الهنا الموعود برهة، وملأ عينيه منه، وتملى ما حوله من بيوت ودروب ليعرف طريق الوصول إليه فى ظلمة الليل، وعلّم المكان والبيت بشجرة على مدخل الحارة وبيوتها ذوات العتب. واستدار عائدًا فسمع صوتًا يقول له:

– هنيا لك. مش محتاج مهر يا صاحبى.

تلفت باحثًا عن مصدر الصوت فلم ير أحدًا، وعجب لأن الناس فى هذه المدينة، لا يغارون على جيرتهم مثلما يفعل الجيران فى مدينته هو.



وفى ليلة ذلك النهار سحب ابن زيدون من إفريز جدار نافذة غرفته ديوان ابن زيدون، وراح يقرأ فيه لنفسه، ولنا بصوت عريض وعميق، مرتجف الطبقة والدرجة أشعار ابن زيدون فى ولادة ابنة المستكفى، قصيدة بعد قصيدة، مع أنه كان يحفظها عن ظهر قلب، حتى بلغ القصيدة التى يعتذر فيها ابن زيدون إلى ولادة ويتوسل إليها، فراح يرتل أبياته ترتيلا باكيًا، ودموعه تسح من عينيه، ومخاطه يسيل من أنفه.

وحين بلغ من القصيدة الأبيات التى يهجو فيها ابن زيدون غريمه ابن عبدوس، فاجأه المنفلوطى بصوته المنفلوطى الخطابى والغنائى، مع لمسة سخرية معذبة بإنشاده غيبًا لأبيات الهجاء التى توقف عندها ابن زيدون. فصاح به ذو الأنف الغليظ:

– اسكت. اسكت. فال الله ولا فالك.

عندئذ ضحك المنفلوطى. وقال له معذبًا:

– وقعت فى الحب يا صاحبى. بكرة تلاقى وراك ابن عبدوس. انت تحب على راحتك وابن عبدوس ياخدها منك.

عندئذ أدرك ابن زيدون خطره عليه، وهو الذى لا يعرف من تكون، فغضب وزعق فيه:

– لو قربت منها حاقتلك.

سكت المنفلوطى، ونهض يرتدى ثياب خروجه لمغامرته الليلية، وتعطر بالكولونيا، وقطرات الياسمين، وقال مخاطبًا ابن زيدون، وهو يعقد كرافتته ذات النقوش:

– كلهن يا صاحبى فى الليل والنهار زى بعض. والحب عندهن فى النهاية زى ما عند الرجالة حاجة واحدة بس.

زعق فيه ابن زيدون:

– اخرس. انت من غير قلب. انت حيوان.

رمقه المنفلوطي بعينين ضاحكتين، وأنف روماني ساخر، وقال وهو يغادر باب الغرفة الفسيحة:

– خليك على غماك. بكرة تعيط وتفوق.

نفذ المنفلوطي وعيده الخفي. تبع ابن زيدون ذات ليلة، وقد ارتدى هذه المرة كاكولته، وعمامته الأنيقة التي عممتها له بيدي، ووضع على عقلة أنفه الروماني نظارته السوداء مع أنه كان في ظلام الليل، وقال لي وهو يغادر البيت:

– عندي موعد هذه الليلة مع شيخ الحب.

كان يعرف أن ابن زيدون يجلس على مقهى، ويشد أنفاس حجر الشيشة، ثم يتوجه إلى بيت ليلى. في تلك الليلة تبع المنفلوطي ابن زيدون، ورآه يدلف من باب بيت ليلى المفتوح، ومثلما فعل ابن زيدون من قبل فعل المنفلوطي من بعد. علَّم مكان البيت بالشجرة، وزاد فطوَّف في الحارات من حوله.

وفي تلك الليلة، كما روى لي المنفلوطي ذات يوم على مقهى البوسفور، قرر المنفلوطي أن ينقذ ابن زيدون من خدعة الحب الجارفة، فهو ابن بلده، وهو يحبه. وقد مات ابن زيدون وعصر ابن زيدون المليء بالفراغ لحكايات المحبين، وأطواق الحمائم.

في اليوم التالي عاد المنفلوطي من المعهد، وقال بجد شديد لابن زيدون:

– لازم تسافر السنبلاوين يا صاحبي. أبوك عيان. عيان جامد. ومحتاجك جنبه.

قال له ابن زيدون بانزعاج:

– عرفت منين؟



فقال له المنفلوطي:

– كنت باكلم أخويا المحاسب في التليفون من السنترال العمومي، قال لي الخبر.

ذعر ابن زيدون وارتبك، وبدا حائرًا يقوم ويجلس، والمنفوطي يرقبه خلسة بهدوء شديد، ويتشاغل عنه بأي شيء حوله. ولم يمسك ابن زيدون نفسه، فقد قال محدثًا نفسه بصوت مسموع: "وبعدين. كان عندي معاد مهم النهارده". ولم يعلق المنفلوطي بكلمة. ونظر ابن زيدون في ساعته، وعاد يرتدي بدلته، وغادر البيت.

★★★

في ليلة سفر ابن زيدون إلى السنبلاوين، أوفد المنفلوطي نفسه رسولا من قبل ابن زيدون إلى ليلى، ليخبرها باضطرار ابن زيدون إلى السفر لمرض أبيه. ولم تأخذ ليلى الريبة في تلك الزيارة، بعد أن أخبرها بأنه بلدياته وصديقه الصدوق ورفيقه في السكن. أكرمته ليلى، وراقبت عينيه المحايدتين في النظر إليها، فأمنت إليه، وقدمت له إكرامًا لوفادته عشاء شاركته فيه، وشرابًا شاركته احتساءه. وكان دِهنانًا مدهانًا، فأثنى على جمالها وطيبتها ورقة قلبها، وحسن حظ ابن زيدون بمعرفتها، وجرجرها للحديث عن نفسها.

أخبرته ليلى كما روى هو لي فيما بعد بأنها من بلدة بها معسكر للجيش، وأنها كانت زوجة لمدرس، ووافاه أجله تاركًا لها ابنتها ألطاف التي بلغت الآن سن الزواج، وأخبرته أن ألطاف تعيش الآن مع أختها في بلدها، حتى لا ترى ما هي فيه من حب لا ثمرة له بعد مع ابن زيدون. وشكت له من ابن زيدون، فهو حتى الآن لا يريد أن يسترها بزواج، فسوف تكون وحيدة وفقيرة يومًا، بعد أن تتزوج ابنتها من ابن الحلال، ولا يبقى لها سوى

معاشها من زوجها الراحل، وسوف ترث ابنته ألطاف إيراد الطاحونة التى تركها لها أبوها بالبلدة، وتشاركها هذا البيت الذى تعيش فيه. وانفجرت ليلى تبكى بكاء محرقًا يوجع القلب، وهى تتمتم من خلال دموعها، بأنها رجته ليتزوجها حتى بعقد عرفى لا يعترف به الناس، ولكنه دائمًا يؤجل ويتعلل ويسوف.

وانتهز المنفلوطى الفرصة، فربت عليها مهدئًا ومواسيًا، فتزايد بكاؤها، عندئذ ضمها إلى صدره وهما على كنبة بالغرفة، ولم يتردد فى لوم صاحبه مؤكدًا لها أنه رهن إشارتها، وطوع أمرها فى اللحظة التى تسمح بها له بالزواج منها. وفاح عرقه بفحولته، وفحت أنفاسه فى عنقها وأذنها برغبته فيها، فوجدت نفسها تعانقه، وتستسلم له مستلقية بين يديه. وحين انتهيا تمتمت وعيناها مغلقتان: ألأ. احنا عملنا إيه؟ عندئذ ضحك المنفلوطى ضحكة شيطانية ساخرة، وسبها بعبارة فاضحة وقبيحة، وزاد فمد يده وصفعها، وغادر بيتها مسرعًا، وهو يستكمل فى طريقه إلى الباب إحكام قميصه وسرواله.

★★★

فى اليوم التالى عاد ابن زيدون مع الظهر، وخلع ثيابه، ولم يستطع أن يستقر لحظة فى مكان بالغرفة. راح يجلس ويقف وينظر من النافذة، ويروح ويجيء فى الغرفة الواسعة بين الأسرة الثلاثة، فى انتظار عودة المنفلوطى من المعهد. وحاول أن يصنع لنفسه شايًا على وابور الجاز فى ركن الغرفة ففشل، وكاد يحرق نفسه والغرفة فقد كانت يداه ترتعشان. هب وابور الجاز لكثرة ما دفع به من الجاز، وفشل مرارًا فى أن يشعل عود الكبريت. وحين أفلح هب وابور الجاز فى وجهه، وحين أفلح فى التحكم فى نار الوابور، سقط البراد من فوق حوامل الوابور الثلاثة، واندلق ماؤه على أرض الغرفة.



وجرى على طينها. كانت يداه ترتعشان، بل ترتعدان، فقد سيطر عليه هاجس بأن المنفلوطى أبعده عن ليلاه الحبيبة بسفره ليزور ليلى بدلا منه.

★★★

حين عدت مع المنفلوطى من المعهد، فوجئت بابن زيدون يندفع دون مقدمات أعرفها إلى المنفلوطى، ويصفعه على خده صفعة مدوية، فضحك المنفلوطى ضحكة مستفزة. وظنه يضربه لكذبه عليه فقط فى مرض أبيه، فليلى لا تسمح بزيارته إلا ليلا حين تنقطع الرجل، ويهجع الجيران الذين يعرفون عنها كل شيء، ويعرفون الداخل والخارج من البيت، من وراء الأشياش المواربة، حتى فى ظلام الليل. هم ابن زيدون بصفع المنفلوطى صفعة ثانية على خده الآخر، قائلا:

- حاقتلك. مش كل الطير اللى بيتاكل لحمه.

فأمسك المنفلوطى بمعصمه فى قبضة قوية، ويده فى طريقها إلى خده قائلا:

- ما تقدرش تقتل فرخة. الضعيف اللى زيك، اللى بتضحك عليه واحدة مليان خيبة من كله.

وصوب إليه صدمته:

- رحت لها فى غيابك. وبالأمارة فوق بزها الشمال حسنة سودة.

واستدار عائدًا إلى باب الغرفة، قائلا:

- حاروح اقعد على قهوة البوسفور فى الحر لحد ما تهدى يا صاحبى. يا ابن بلدى.

إثر خروجه. راح ابن زيدون ينتفض غضبًا وقهرًا وهو جالس على سريره. عزمت عليه بسندوتشى الفول والطعمية الخاصين به، واللذين جلبتهما معى من المطعم. لكنه رفض أن يأكل، قائلا لى:

– ما ليش نفس. عندك فى الركن لفة. فكها وطلع منها الرز المعمر والحمام وكل وبر نفسك. ما تخليش حاجة لابن الـ.. ابن قتالين القتلة.

كان للمنفلوطى أخوان أحدهما مكوجى فى السنبلاوين والآخر محاسب، وضبط المكوجى زوجته متلبسة بالخيانة، وتطوع المحاسب مع زوجته بقتلها له، وتقطيعها بالساطور عضواً عضواً، ورميها للكلاب فى ظلام الليل، واكتشف البوليس مصرعها حين عثر على رأسها فى مكان لم تعرف طريقه كلاب المدينة، واعترف المكوجى تحت الضرب بأنه القاتل، وخشى المحاسب أن يعترف أيضًا بدوره هو وزوجته فى قتلها، فدبر تهريبه من البوليس حين نقله إلى محكمة الجنايات، فغطس حيث لا يعرف أحد له مكانًا، وشاع بين أهل السنبلاوين أنه هرب إلى الشام بمساعدة أخيه المحاسب.

وراح ابن زيدون يحكى لى، وأنا آكل من زوادته لأول مرة، قصة حبه، ويشكك فيما يدعيه المنفلوطى عليها. ووجدتنى أتعاطف معه، وأمتلئ سخطًا ضد المنفلوطى، ورحت أتعجب أنا المراهق الغر من المنفلوطى، فهو يحفظ عن ظهر قلب قصتيْ بول وفرجينى وما جدولين المفعمتين بالحب وأشواق المحبين وعذاباتهم.

★★★

فى الليل عاد المنفلوطى إلى الغرفة، وخلع بدلته، وارتدى جلبابه، وراح يتشمم الغرفة. وقال:

– ريحة حمام ورز معمر، ونهض وجذب لفة الطعام، وسحب منه حمامة وطبقًا من الرز المعمر.

وراح يأكل قائلا:

– طبعًا هوه قال لك ابن الـ.. ما ياكلش منه. اللى زيى ما يقولش للأكل لأ أبداً. حتى لو كان من عدوه.



وظل ساهراً وأنا معه، أرقبه خلسة، ويرقبنى خلسة. نواصل التدخين ولا نتحدث. ظللنا على هذه الحال زمنًا، وقد توقفت عن التفكير فى الأمر كله، مترقبًا عودة ابن زيدون من سهرته مع ليلاه. فجأة قال لى المنفلوطى:

– طبعًا انت قلبك خرع زيه. ويمكن أخرع. ولو كنت فى مكانه كان فاتك طبيت زى الرطل واتجوزتها.

لم أرد عليه بكلمة. ووجدتنى أهمس لنفسى فى نفسى: "اللهم قنا شر التجربة".

بعد حين قال لى المنفلوطى بعربية فصحى، وكأنه يتخيل ويرى ما جرى ويجرى:

– أراهن أن الست ليلى ظلت صامتة، حين لقيت صاحبنا الأهبل، حتى فاجأها هو غاضبًا ولائمًا، بأنه قد عرف ما حدث بينى وبينها، عندئذ انفجرت باكية، ونهضت غاضبة بدورها، وأرته ما يدل على أنه قد اغتصبها، وقدمت له ثوبًا ممزقًا من الصدر إلى الذيل، وخدوشًا أحدثتها بجسدها، وهى التى دعتنى ونحن معًا كجسد واحد أن أكون متوحشًا معها.

لزمت الصمت وأنا أحاول فهم ما قاله لى فأنا فتى غرّ، لا أعرف تمامًا بوضوح كل ما يتحدث عنه ويشير إليه.

★★★

عاد ابن زيدون قبيل الفجر مرهقًا وشاحبًا، يكتم غضبه، ويكظم غيظه كما يقول المجاورون. جلس على حافة سريره السفرى، وقال للمنفلوطى:

– من بكره تسيب السكن يا مجرم يا سافل يا بتاع المقالب.

نظر إليه المنفلوطى وضحكة مكتومة تتراقص على شفتيه، ولم يقل شيئًا.

فقال ابن زيدون للمنفلوطى:

– تقطع لها هدومها. المسكينة ما قدرتش تصرخ، وهى وحيدة، حتى لا تفضح نفسها عند الجيران. يا.. يا..

عندئذ انفجرت ضاحكًا، لكننى توقفت فجأة عن الضحك، فقد يكون المنفلوطى قد فعل ما أخبرنى به فعلا، وكذب علىّ. وكان ابن زيدون ينظر إلىّ بدهشة، وبدا فى وجهه أنه يريد أن يقول لى: بتضحك على إيه انت كمان. لكنه قال لى بحدة:

– وانت كمان تسيب السكن معاه. السكن أنا اللى جبته. وأنا اللى اخترتك انت وهوه تسكنوا معايا.

فقال له المنفلوطى بجد:

– دا حصل وتشكر، وانا رديت لك جميلك، علشان أحافظ عليك كشفت ليلى ليك. على بلاطة يعنى. لكن معاك إثبات. معاك عقد إن السكن الغلبان ده باسمك. باقى أسبوع يا صاحبى، ونسيب كلنا السكن، ونبدأ شهر المذاكرة فى السنبلاوين، ولا تشوفنى ولا اشوفك.

فقال ابن زيدون لفوره:

– تسيبوه انتم بعد أسبوع. ما فيش ساعة زيادة. واضح. أنا حاذاكر هنا، واقدر ادفع أجرة السكن خمسة وسبعين قرش لوحدى.

لم يرحمه المنفلوطى. فقد ضحك قائلا:

– طبعًا حب بالليل. ومذاكرة بالنهار، ويمكن نوم بسبب سهر الليل. وي الامتحان يا صاحبى ستكرم أو تهان.

وبات الاثنان يتهارشان بالكلام حتى ارتفع آذان الفجر فى مسجد نا، بعيد، وأذن ديك الصباح فوق سطح غرفة ما، فسكت الاثنان عن الكلام غير المباح، ورقد ابن زيدون وهو ينتفض فى بكاء مكتوم يقطع قلبى، وراح المنفلوطى يغط فى نوم عميق.



فى الصباح، بعد ساعتين لا غير، صحونا وارتدينا ثيابنا الدينية: الكاكولة والعمامة. وسبقنا المنفلوطى للخروج من الغرفة، لكنه توقف عند الباب، وقال مكايداً ابن زيدون:

– بالمناسبة. لو فضلت هنا فى شهر المذاكرة، وانت وحيد ابوك يا روح ابوك، حابلغ أبوك عنك وعن الست ليلى، وعن خيبتك التقيلة فى البلد اللى ما حدش عارفك فيها.

وبرغم هذا التهديد بقى ابن زيدون بمدينة تزقزق فيها طويلا بنات الليل وبانسات القيلولة تحت أشجار بحر مويس فى عز القيلولة. ولم ينفذ المنفلوطى وعيده.

***

فى الصف الأول الثانوى بالمعهد الدينى. كان الامتحان فى علم المنطق الأرسطى، بكتاب إيساغوجى الشهير بين المناطقة العرب. وهو العلم الذى عرفت عنه، فى مقبل العقود من عمرى، أن المنطق الحديث قد نسفه نسفًا، مع أنه كان الأساس الذى قامت عليه علوم الفقه والنحو والكلام. حرت حقًا فى المنطق بين أنوا ع وأشكال كليات المنطق وجزئياته السالبة والموجبة، وما تفرع منها. وهو أمر علينا دراسته بمذكرة فيه وضعها لنا شيخ المنطق بالمعهد، مستمداً مادتها بالطبع من كتاب إيساغوجى.

كانت المذكرة واضحة العرض، حسنة التأليف ككتاب تعليمى مبسط مركز، وكنت مطمئنًا إلى النجاح فى المنطق، لو أن الأسئلة جاءت تطلب تحليل مقدمات ونتائج بعينها، أيًا كانت أطرافها. لكننى قبيل الامتحان فى هذه المادة خشيت من عقلية الحفظ والتلقين المشيخية الكسول المعتادة. سعيت وحصلت على نماذج لأسئلة الامتحانات السابقة، للشيخ طاهر نفسه شيخ المنطق بالمعهد طوال سنوات متتابعة، وكانت كما توقعت وتخوفت.

وبت ليلة مهمومًا أفكر فى غش هذه المادة بطريقة لا يمكن لأحد قط أن يكتشفها سواى، فمفتاح أسرارها أو شفرتها معى وحدى، وفى عقلى وحدى. بدوت فى تلك الليلة سعيداً ومبتهجًا. وفى الصباح سارعت إلى مكتبة، واشتريت مسطرة وبرجلا وفرخ ورق "فبر" مقوى. وجلست على مقهى البوسفور ضحى يوم جمعة. ورحت أترجم كتاب الشيخ طاهر كله، على صفحة الورق الفبر المقوى إلى سطور ونقاط فى خطوط هندسية.

فى المقهى حولت أشكال أرسطو المنطقية على الورق الفبر المقوى، وما يتفرع منه إلى شكل هندسى واحد من مستطيل ذى أربعة أضلاع تتقاسمه خطوط غير مكتملة فى قلب المستطيل. كل خط مكتمل بها يشير ويرمز فى رأسى وذاكرتى إلى شكل معين أو فرع منه، معروفة عندى كلمات عنوانه، وبالتالى تحليله ومثاله. استخدمت فى هذا الشكل المسطرة بالملى والسنتى، وفى الخطوط الضغط بسن البرجل هنا وهناك. ورحت أعاود مذاكرة الكتاب، وحفظ الضرورى المحتوم منه، كما تحفظ القوانين العلمية، وعيناى على تلك الخطوط والنقاط.

وفى صباح يوم الامتحان كان فرخ الورق هو السنادة المعتادة التى يضعها الطلاب تحت ورقة الإجابة حماية لما يكتبونه من تأثير خشب الأدراج تحتها. دق الجرس وتعالت الصيحة على المراقبين من الردهة ذات الأصداء: وزعوا الأوراق. كانت الأسئلة كما توقعت: اذكر، عرف. وفى نهايتها كان سؤال وحيد فى الفهم يذكر عبارة: حلل مع التعليل. كان المراقب يروح ويجيء يرى الطلاب حيارى أمام الأسئلة، يسح عرق الصيف والحرج من جباههم ورقابهم، ويرانى عالى الهمة، أواصل الكتابة والإجابة بتنظيم محكم، وأزيح ورقة الإجابة عن السنادة لحظة لا غير، أو أروح بها هواء على وجهى، وأواصل الكتابة كأننى أنقل من كتاب مفتوح. شك المراقب فى أمرى.



تقدم نحوى. قلب ورقة إجابتى. فتح الدرج وأغلقه. شك فى فرخ الورق. قلبه. لحظ خطوطًا مستطيلة غائرة، تتفرع منها خطوط غائرة. لم يفهم شيئًا. لم ير بالسنادة كلمة.

وأنا أسلم ورقتى للمراقب قال لى:

- إيه الخطوط اللى ع السنادة؟

قلت بيسر:

-لا شىء. باحب اللعب فى البيت.

★★★

اللعبة نفسها فى الغش فى الامتحان، كررتها فى السنة نفسها مع علم العروض، وكان أيضًا علمًا جديداً عليّ، غير أننى استبدلت خطوط المستطيل بخطوط المثلثات. ثمانية مثلثات كبرى متداخلة للتفاعيل العروضية الثمانى التى يكون منها ستة عشر بحراً، تتفرع من زواياها خطوط فرعية يمنة ويسرة، وأعلى وأسفل، لتشير فى عقلى إلى الأوتاد الخفيفة والثقيلة، وتفرعات العلل، وتغير التفاعيل من بحر إلى بحر.

أجبت أسئلة العروض جميعها. كانت كلها أسئلة موضوعة بعقلية الحفظ والتلقين: اذكر. اذكر. وهى طريقة تكفى لتعجيز أى طالب يمتحن فى علم العروض، بل تكفى لقتل شاعرية أى شاعر. السؤال الوحيد، الخارج عن سنادتى فرحت به مع طلاب دفعتى فرحًا شديداً. كان سؤالا خاصًا باختبار المهارة فى تقطيع بيت من الشعر بوضع حركاته وسكناته فى سطر تحته، ووضع تفاعيله السليمة أو المعدلة بما أصابه من علل الزحاف والخرم وغيرها فى سطر آخر.

ومن الغريب أننى حصلت فى الغش غير المباشر لإجابات امتحانى المنطق والعروض على الدرجة العليا فى العلمين.

★★★

قبيل يوم ١٥ مايو عام ١٩٤٨ عدت بعد الامتحانات إلى أهلى بمدينة السنبلاوين، وكانت مصر كلها تغلى بسبب أمرين جديدين عليها. قهر الإقطاعيين للفلاحين، وفرضهم إيجارات عليهم لم يوقعوا عليها. كانت توقيعات الفلاحين على عقود المؤاجرة على بياض، وكان الإقطاعى يكتب عند التحصيل ما يشاء. ويرتفع الأجر المعتاد على الفدان من ١٤ جنيها إلى مائة وعشرين جنيهًا. وعند المحاسبة يتم الدفع أو الحبس والاستيلاء على بيت المؤاجر، وما قد يكون تحت يده من قراريطه الملك، وطرد أسرته من البلد بأسرها إلى حيث لا يعلم أحد إلا رب السماء والأرض. حتى الأمير محمد على ولى العهد الملكى لم ينج من أخذ توقيعات الفلاحين المؤاجرين على بياض. وثار الفلاحون ودارت معارك صغيرة بين الفريقين سقط فيها قتلى من الفلاحين بالضروة على أعتاب أقسام الشرطة وبرصاص الشرطة.

وغطت على ذلك الحدث كله أو زاحمته فى السنبلاوين أخبار الصراع المسلح بين عرب فلسطين ومن بها من يهود مقيمين كانوا أو مهاجرين، قامت الدنيا ولم تقعد بسبب عنف هذا الصراع. وسارع الإخوان المسلمون بالسنبلاوين إلى إرسال متطوعين إلى فلسطين، وتنادى الناس للحرب وللجهاد بالنفس والمال. وتوارت إلى حين جريمة الإقطاع مع عبيد الأرض من الفقراء المساكين. وتحت ضغط رأى عام عارم فى أرجاء مصر سيرت مصر جيشها لنصرة عرب فلسطين فى الخامس عشر من شهر مايو. وتعجيلا لتحقيق هذا النصر وتأكيداً له، سرت فى السنبلاوين فتوى سمعتها لأول مرة، ولعل المتصوفة أو كتاب التعاويذ هم الذى أطلقوها. كانت الفتوى تقضى باجتماع المسلمين فى المسجد بعد صلاة العشاء، ونطقهم المرتل المتتابع أربعين ألف مرة لكلمة واحدة، يوجهونها بقلوب ضارعة إلى الله هى كلمة: يا لطيف، وكفّيها على العدو، ففيها مفاتيح النصر بمشيئة الله.



سارعت إلى المسجد لأشاهد وأشارك وأرى، وراقنى المشهد كله، والناس يهتزون أمامًا وخلفًا برتابة مع الإيقاع مرددين: يا لطيف. يا لطيف. ومع مشاركتى راحت عيناى تتجولان فى المسجد وتشبان نحو ثلاثة رجال معممين وجوههم تواجه الناس الناظرين إلى المحراب. يتوسطهم إمام المسجد، وفى أيديهم سبح مئوية الأعداد. أحدهم يضبط بمسبحته عدد المئات، والثانى عدد الألوف، والثالث وهو إمام المسجد يضبط عشرات الألوف. ومع نهاية كل عد من العدادين الثلاثة كان من عليه إعلان عدده أن يرفع مبسحته، وهو يزعق: يا لطيف معلنًا ذروة من ذرى عدد مئوى أو ألفى أو عشر ألفى.

بدا لى الجو من حولى مكهربًا يتردد صداه المكتوم بين جدران المسجد، وشعرت به ينداح خارج المسجد عابرًا شوارع السنبلاوين وحاراتها، وسيطر علىّ شعور غامر بقرب النصر لا محالة، فطلب اللطف من الله يسير اللحظة فى ركاب المجاهدين، ومن حولهم، ومن أمامهم، ومن خلفهم، ومن يمينهم، ومن شمالهم.

وراح الناس صباح اليوم التالى يتابعون أخبار تقدم الجيش المصرى وفتكات المتطوعين فى الكمائن بأعداء العرب والدين. حتى جاء الخبر المخيف بتراجعات الجيوش العربية المتوالية، وصار دعاء الناس فى الصدور وحدها: يا لطيف. نجنا مما يخيف.

(٧)

طوال شهور الصيف بالسنبلاوين كان ابن زيدون لا يزال يشكو إلىّ من أفاعيل المنفلوطى السابقة معه فى عام سابق مطين فى نظره بطين، وعشرة زفت مع نفس ملوثة. وكان يمهد لأمر ما، أن أسكن معه فى غرفة بالبيت عند الست ليلى، لأكون له أنا الفتى الطيب سترًا وغطاء، فلن يكون مقبولا أن يسكن وحده عندها ليمارس أمنًا حبه وعشقه فى ليالى الخريف والشتاء والربيع. لم يقل لى عن نيته هذه حرفًا، فقط قال لى إثر عودته له من الزقازيق، وكان كثير التردد عليها كل أسبوع مرة طوال الصيف، أنه قد اختارنى للسكنى معه فى غرفة ببيت الست ليلى، فأنا مأمون الجانب، وأتفهم حرقة الحب، ولذعة الجوى.

وكان ذلك ما حدث. طاب لى وأنا شديد الفضول، مغرم بطبعى بمراقبة وملاحظة ما يجرى من حولى، أن أرى وأعرف عن قرب علاقة ابن زيدون وليلى.

رأيت الست ليلى، عرفتها من قرب. امرأة سمراء واسعة العينين. قارحتهما نعم. لكنها كانت ممعودة العود، نصف مستهلكة، تكمن وراء طيات جلدها، هى التى تقترب من سن اليأس، نار خفية كامنة مستعدة لمجرد اللمس للاشتعال والتوهج. ولم تثر فىّ أية رغبة. بدت لى مثل تلك الشجرة الوحيدة، على رأس حارة بيتها، متوجة الرأس بأوراق نصف مخضرة، وليس تحتها نبتة حتى من عود واحد. راق لى أن أسمى تلك الشجرة هى الأخرى: ليلى. وحين ذكرت اسم الشجرة عندى لابن زيدون. نظر إلىّ طويلا ولم يفهم شيئًا، أو لعله فهم وآثر ترك اللحظة تمر. فقط قال لى:



- انت بتخرف واللا بتألف.

ولم أقل شيئًا.

***

لا أذكر من تلك السنة، وكانت السنة الأخيرة لى بمدينة الزقازيق ومعهدها الدينى سوى أننى كنت أذهب إلى المعهد وأعود من المعهد، وأتردد وحدى على دور السينما ومقهى البوسفور، وألعب الطاولة والشطرنج والدومينو لقتل الفراغ، وأبحث عن كتاب أستأجره من فاترينة الشيخ جودة، وأنتظر أول الشهر لأشترى مجلة الرسالة أو الثقافة أو الكتاب أو الكاتب المصرى، مع أول نزول نسخها القليلة ظهرًا من القطار، من متعهد بيعها بميدان المحطة خشية نفادها.

كانت الست ليلى تسافر بين شهر وآخر إلى بلدتها، وتغيب أيامًا ثم تعود، وذات مرة سألتها من باب المجاملة عن ابنتها ألطاف المقيمة عند أختها، كيف حالها، فنظرت إلىّ بدهشة، ثم قالت لى:

- من قال لك إن لى ابنة. ألطاف ابنة أختى وليست ابنتى.

ارتبكت وقلت لها محرجًا فلا أريد أن أسبب لها ولا لنفسى ولا لابن زيدون مشكلة ما:

- لا أحد. اتهيأ لى كده.

فقالت لى بحزن:

- لم أرزق من زوجى بابن ولا ابنة. حظى كده، وحظه.

وصمتت لحظة ثم ضحكت وهى تقترب منى، حتى بدا لى أنها تتحكك بى:

- حاعرفك قريب بألطاف. حتيجى هيه وأمها عندى. انت شاب طيب، وخام، وابن حلال، وألف واحدة تتمناك.

هممت بالكلام، لكنها قالت لى، وهى تجلس آمنة لى على طرف سرير ابن زيدون، وكأن ما ستقوله قد أصبح أمرًا ممكنًا وواقعًا لا مفر منه:

– شفت الشاب أبو عمة اللى فى البيت اللى قدامنا. أهو ده بقى متجوز من بنت صاحبة البيت الست أم سنية. هوه الراجل الوحيد فى البيت، وعنده من سنية اتنين، وأهله ما يعرفوش انه متجوز.

ولم تكذب الست ليلى خبرًا، فقد جاءت الست ليلى إلى غرفتى، ذات ليلة، وقالت لى ضاحكة:

– اتفضل اشرب شاى معانا. عندى ضيوف. إنما مفاجأة ليك.

وألحت علىّ، فتبعتها بجلباب البيت، وبرأسى عاريًا، ودخلت غرفتها. كانت بها حفلة الشاى، وبضع نساء متشحات بالسواد. قدمت لى من بينهن أختها وابنتها ألطاف. وخرجت ألطاف وعادت وقد حملت لنا صينية الشاى، ثم جلبت لنا طبقًا به حلوى شامية، ورمقتُ ألطاف خجلا بنظرة خاطفة. لحظتها الست ليلى وأختها. وجلست ألطاف وهى تختلس النظر إلىّ بفضول بوجه محايد. وقالت لى ليلى ضاحكة:

– إيه رأيك فى اسم ألطاف. مش اسم جميل بذمتك.

فقلت لها دون أن أنظر إليها ما حضرنى من الكلام:

– عاشت الأسامى.

ولذت بالصمت. دخلت داخل نفسى بسرعة، وتحصنت، وأغلقت كل الأبواب المفتوحة. لم يرق لى الموقف كله. اعتذرت عن الحلوى على حبى لها، كأنها ستقودنى إلى حتفى لو فعلت. وكان الشاى قد برد، فدلقته فى حلقى فى جرعات متلاحقة. قررت الفرار وإيقاف الموقف كله عند ما جرى. وتصرفت بجلافة. نهضت فى مكانى واقفًا، وقائلا:

– ما علش عندى مذاكرة.



وغادرت غرفة السيدات المتشحات بالسواد. تركتهن جالسات على الكليم فوق الحصير وطرف السرير والكنبة العديدة الوسائد للجنب وللظهر. كانت تلك هى غرفة الست ليلى، وغرفة ساعات ليالى الحب العذرى وغير العذرى لابن زيدون، حتى بت أسأل نفسى: "لم لا يعيش معها فى غرفتها الليل والنهار، ويريحها، ويريح نفسه، ويريحنى معهما؟"

دخلت غرفتى، ورددت بابها ورائى، ورحت أستعيد ما جرى، دون أن أفكر فى شيء محدد. ولم تفتح معى الست ليلى ذلك الموضوع مرة أخرى، ولم تقل لابن زيدون شيئًا، ولم أقل له بدورى أى شيء. مات الموقف كله كما بدأ، وربما قبل أن يبدأ. ويخيل لى أنه كان ميتًا فى قلب معلق بحب جارتى القريبة قربًا نائيًا فى السنبلاوين، والبعيدة بعدًا لا يطاق.

★★★

حين كان ابن زيدون يسافر إلى السنبلاوين، أو كانت ليلى تسافر إلى بلدتها كنت أتعرض فى الحالين لحال من التوتر تثير الغيظ والقلق. ففى أيام غياب ابن زيدون، كنت أتعرض لمشاغبات الست ليلى مرة أو اثنتين فى اليوم. تدفع الست ليلى الباب فجأة، وتطلب منى شيئًا ما مثل ورقة جرنان قديم، ويداها لزجتان من تخريط البصل، أو تقشير السمك، وتسألنى سؤالا عابرًا خطر ببالها عن ابن زيدون، أو عن البنت التى أحبها من بعيد لبعيد فى السنبلاوين، فألزم الحذر، ولا أعطيها عقادًا نافعًا فى الحالين عما أسأل عنه.

لكن أغرب مرة كانت حين دخلت علىّ فجأة، ورائحة الثوم الفاغمة تفوح من فمها وأصابعها مع رائحة السمك، وتقول لى:

– اقرا لى الجواب ده.

اكتشفت فى تلك اللحظة أنها لم تكن تعرف القراءة والكتابة. نظرت إلى

يديها اللزجتين المرفوعتين الفارغتين إلا من أثر الطعام. كانت تأكل وقطعت أكلها. قالت لى وهى تومئ برأسها وعيناها تشيران لى إلى جيب صغير بجلبابها البلدى الأبيض المنقوش بنقوش صغيرة خضراء:

– هنا.

كان الجيب بفستانها على بطنها على يمين السرة. ترددت لحظة. كيف أفتح جيبًا لامرأة، وصغيراً هكذا، ولاصقًا قرب الصرة. وكانت قد اقتربت لتمكننى من جيبها وأنفاسها الأنثوية تلفح وجهى، وكانت على وجهها بسمة توشك أن تنفجر ضحكة. واهتديت إلى حيلة اللصوص فى الزحام والقطارات قبل أن تنفجر ضحكتها، وحتى لا تقول لى: يا خيبتك يا خيبتك. مش عارف تمد إيدك لجيب واحدة ست. مددت إصبعين لا غير، وواربت بهما أعلى الجيب، ثم دفعت بهما داخل الجيب برفق قبل أن ينغلق الجيب، محاذراً أن يشعر بهما جلدها، فقد تحس أننى أزغزغها، وتضحك، وتلقى بنفسها علىَّ. وعدت بالإصبعين خاليين فلم يكن بجيبها شيء، سوى ملمسه القطنى الساخن بحرارة جسدها. قلت لها:

– ما فيش جواب فى الجيب.

فقالت لى متضاحكة:

– الله. يبقى نسيت. أكيد هنا.

وأشارت برأسها ويداها لا تزالان مرفوعتين، وأومأت بعينيها إلى نحرها، وراء قبة ثوبها المفتوح تحت النحر الهضيم. وحين رأت ترددى وحرجى ضحكت. وقالت:

– مالك. مد إيدك ما تخافش. كلنا بنعين حاجتنا الغالية هنا. جوابات. فلوس.

ورقعت ضحكة معلمة. هممت بمد يدى لكننى توقفت. وجدت نفسى كمن



يرفع لها ثوبها عن ساقيها، وأدركت فى تلك اللحظة أن المنفلوطى كان صادقًا فيما قاله لى. قلت لها بجد قاطع:

– إلا هنا. لما تغسلى إيديكى ابقى هاتيه واللا اقريه انتى.

قالت لفورها:

– ما باعرفش القراية والكتابة. ياه دا انت بتتكسف موت.

وتلفتت حولها فرأت ورق صحيفة فمسحت يديها بها، وعادت إلىَّ، ومدت يدها إلى نحرها، وراء فتحة ثوبها فوق نهديها، وعادت يدها بورقة. فتحت طيتها. كانت ورقة بيضاء، لا حرف بها، ولا حتى الخط الأخضر أو الأزرق. قلت لها بدهشة:

– فين الجواب. دا ورقة بيضا.

وكأنها كانت تعرف أنها ورقة بيضاء، فقد قالت لى بلا تردد:

– الله. يبقى وقعت منى، وأنا باقلع فستانى التانى.

لم يرق لى ملعوبها، فقلت لها بهدوء واحترام بالغين. فقد سقطت من نظرى:

– روحى كملى أكل الأول.

انكسفت ليلى لما قلته لها. استدارت إلى الباب. وعند العتبة توقفت. والتفتت قائلة:

– هوه صاحبك حيرجع امته.

خشيت أنا المستأجر المقيم فى بيتها إلى حين أن أغلق وراءها باب غرفة أنا بها ضيف، ملحق بضيف، وتملك هى أن تطردنا منها شر طرد. فاكتفيت برد الباب مواربًا، وجلست على حافة سريرى. ولست على يقين من أننى كنت لا أنتظر عودتها برسالتها. وتمددت على سريرى متناوماً.

وانتبهت حين سمعت صوتها يقول، وقد دخلت من الباب لتوها:

– باقول لك إيه يا جميل. ما تعلمنى القراية والكتابة.

أحسست من أنفاسى المنتظمة أننى قد نمت فعلا بسرعة. وسمعت صوتها يقول:

– دا انت نمت فعلا... يا بختك.

وأغلقت هى الباب بيدها. ووقع فى خاطرى أنها لن تأتى إلىّ فى غيبة ابن زيدون مرة أخرى. ولم أحدث ابن زيدون مرة واحدة بشىء مما يحدث بيننا أو لا يحدث، فلا شىء فى الحالين قد حدث أو لم يحدث على الإطلاق. كنت ماهرًا بطبعى فى كتم السر عن الغير، حتى لا أضع أية أحطاب على النيران الخفية فى الصدور، المستعدة أبدًا للتأجج فى أية لحظة حين تثار.

★★★

وحين كانت ليلى تسافر كنت أعانى الأمرين من ابن زيدون. كان ابن زيدون لا يطيق الخروج من البيت، ولا الغياب عن البيت فى غياب ليلاه. يعود من المعهد فيقضى عصر كل يوم فى رقدة القيلولة، والليل فى ترتيل أشعار لابن زيدون فى ولادته. ينشدها لى قهرًا، سواء كنت أستمع له أو لا أستمع، حتى بت أكره ابن زيدون وولادة وشعر ابن زيدون وغريمه ابن عبدوس والأندلس كلها. ومن العجيب أن دموع ابن زيدون لم تجف قط من عينيه، ولعاب أنفه لم يتوقف قط مع أى بيت، ومنديله لم يكف عن التردد فى يده بين أنفه وعينيه، لا فى ليالى الصيف، ولا فى ليالى الربيع أو الخريف، وكأنه يبكى حبيبًا غائبًا لا يعود.

كنت أشعر أنه يمثل التريّل والتباكى والتشاعر فى وجود أحد معه ليبرهن على تفرده الثقافى والغرامى معًا، وبت على يقين أننى لو هربت فى ليالى غياب ليلى إلى المقهى، فلن يرتل وحيدًا شعرًا لسميّه، ولن يذرف دمعة، أو يسيل لعابًا، وسيحتاس مع ساعات وقته فى وحدته. ولكن كيف المهرب



وإلى أين المهرب حين تكون الليلة فى مدينة الزقازيق تحت رحمة المطر، ووحل الحارات، وسفع الهواء البارد.

وبدا لى أن عذابات حب الاثنين، وتمثيليات غرامهما اللافح المتلافح، تصب فى رأسى وتخنق روحى أنا، وأروح أقول لنفسى: "هانت." وأنا أحسب فى نفسى لنفسى ما بقى لى من شهور عامى الدراسى فى تلك الغرفة، سجينًا فى غرفة أنا الوحيد فيها السجين. وأثور على نفسى فأقول لنفسى: "أنت وحدك المسئول. وأنت حيث تضع نفسك، ولأنك أنت هو أنت فسيظل غيرك يضعك حيث يريد، ما دمت لا تريد بل لا تجرؤ على الرحيل." وسرعان ما تخمد ثورتى وتهمد إلى حين. وأدركت أنا المراهق الغر، فى ومضة خاطفة، أننى موجود فى هذه الدنيا وغير موجود.

★★★

كانت أسعد ليلة عشتها فى بيت الست ليلى هى ليلة الضحك. فى وقت واحد خلا البيت فيه من ابن زيدون ومن الست ليلى. سافرت أنا أولا إلى السنبلاوين أول شهر لأرى أهلى ويرونى، وأبيت ليلة الجمعة مع أهلى، وآكل من طهى أمى أكلة غنية وشهية لا أنال مثلها فى مدينة الزقازيق، ثم عدت إلى مدينة الزقازيق وبيت الست ليلى عصر يوم الجمعة.

وضع الشيال قفة الزوادة أمام الباب، ودفعت الباب فلم يندفع مصراعه. طرقت الباب مرارًا فلم يفتح لى أحد. بحثت عن المفتاح فى سيالة جلبابى، وأخرجت مفتاحين فتحت بأحدهما الباب، وحملت قفة الزوادة بين يدى، ودفعت بركبتى باب الغرفة فلم ينفتح، وكان الليل يبدأ إظلامه بسرعة فى فضاء ساحة البيت الصغيرة. دسست المفتاح الآخر فى ثقب باب الغرفة، ودفعت الباب وحملت الزوادة ووضعتها فى ركن الغرفة بجانب الحلل والأطباق ووابور الجاز. كانت الغرفة شديدة الحر مكتومة الهواء فسارعت بفتح النافذة.

فكرت أن ابن زيدون قد تكرم على الست ليلى وصحبها معه إلى السينما لأول مرة منذ عرفها. كان يخشى أن يراها أحد معه أو يراه أحد معها، ويخشى أن تسير بجانبه، أو حتى أن تسير وراءه بمسافة ما، وهى ولادته التى يحبها. وقعت عينى على ورقة على سرير ابن زيدون تقول لى إنه اضطر إلى السفر، وأن الست ليلى اضطرت إلى السفر بدورها إلى بلدها لمرض أختها، وأن البيت فى حراستى، وعلىّ المحافظة عليه إلى حين عودتهما أو عودة أحدهما. شعرت إثر قراءتى لرسالته أننى تابع لهما، وأنه يتحدث إلى كرب بيت، وهو مثلى مجرد ضيف فى بيت الست ليلى.

انتهزت الفرصة، وأخذت دشًا باردًا على الواقف فى حمام الست ليلى. وجففت الماء بالفلاية فى أرض الحمام، حتى لا أترك ورائى أثرًا. كان الحمام متاحًا لابن زيدون وقتما يشاء ليلا، ولم يكن متاحًا لى، وكان علىّ أن أستحم دائمًا خلال الشهر فى حمامات المعهد، مرة أو مرتين فى الأسبوع.

فردت ورقة صحيفة على مقعد خيزرانى أمام السرير، وأخرجت مطايب أمى العاجلة، وجلست أتعشى وبجانبى قلة ماء. كان العشاء أمامى حمامًا محشيًا محمرًا، خمسة فرد عدًا، ومحشرة بها محاشى الكوسة والباذنجان وورق العنب، وقد حشرت بها حشرًا، وحمر وجهها بنار الفرن. طاب لى الطعام، وخطر لى أنه سيفسد لو بقى منه شيء وبات ليلته. أتيت عليه كله خمسة فرد حمام، حمامة بعد حمامة، ومحشرة المحشى كلها محشية بعد محشية، وعينى على نفسى باردة. فاللهم لا حسد.

أحسست بالتخمة، وشعرت بالظمأ، ولم يكن فى بطنى متسع للماء، فاكتفيت منه ببعض رشفات، وسارعت بالخروج من البيت. وأغلقت ورائى بالمفتاح باب البيت. وكان جيبى عامرًا بجنيه ونصف مصاريف الشهر،



فشربت فى الطريق زجاجة كوكاكولا كبيرة لأطفئ حر التخمة، وحين تكرعت استرحت، واستطعت التنفس.

وذهبت إلى أول سينما صادفتنى، وكانت بها ثلاثة أفلام شاهدت منها اثنين، ونمت مع الفيلم الأخير فى مقعدى، وصحوت حين أضيئت الصالة، وتحركت بها الأقدام، وعلت الأصوات.

فى البيت سارعت بالنوم، وطوال الليل كنت سعيدًا سعادة لا توصف بداخلى. لم أحتلم كعادتى حين يمتلئ بطنى، لكننى كنت نائمًا أضحك من قلبى، وأواصل الضحك، وصحوت من نومى فجأة من شدة ضحكى فى نومى، فوجدتنى لا أزال أضحك. وضحكت على نفسى من جديد لضحكى بغير سبب. وهكذا واصلت الضحك حتى نمت مرة أخرى وأنا أضحك.

★★★

حين صحوت، كان الضحك قد ذهب، وكان الوقت ظهرًا، ورأيت ابن زيدون واقفًا فوق رأسى، يجمع فى ورقة الصحيفة أنقاض الحمامات الخمس، وبقايا أوراق محشى الباذنجان، قال لى عاتبًا:

– لم تترك لى شيئًا.

اعتذرت له فأنا لم أكن أعلم متى سيعود من سفره، والطعام إذا بقى سيفسد كله فى حر الغرفة، وهونت عليه من شأن الطعام، فقال لى ضاحكًا:

– يا مفترى. خمس حمامات. عددت رءوسها.

ولم أرد عليه. وأخرج مطايب زوادته قائلا:

– طبعا إنت لسه شبعان. وفى الحقيقة أنا جاعين أحسن حاجة فى الزوادة لليلى فقد تعود اليوم.

قلت له:

– أنا شخصيا لن أتغدى ولن أتعشى. فين وفين على ما أجوع تانى.

ضحك عليّ، واستمر يأكل. ولم يبق بدوره شيئًا مما أمامه، ولم تعد ليلى إلى البيت فى ذلك اليوم. وفى الليل عاودت صاحبى روح ابن زيدون. فشعرت بالأسى، وتذكرت ضحكًا ولى البارحة، ولا أعرف متى سيعود. لكنه فى تلك الليلة قال لى ما يريحنى وما سيقلقنى فى الوقت نفسه. لم يتباك فى تلك الليلة، ولم يتمخط، ولم يرتل شعر ابن زيدون، وكأنه العارف الوحيد به فى الدنيا. فى تلك الليلة قال لى:

– اتفقت أنا وليلى على أن نتزوج عند عودتى إلى المعهد فى العام القادم طبعًا انت سعيد علشانا. بس حتخسرنا يا صاحبى. حتسكن لوحدك. لكن حتنورنا طبعًا وتشرفنا بالزيارة.

لم أجبه بحرف. لم أقل له أننى سأستريح منها ومنه، ولم أراجعه فيما قال إنه قد قرره. ولم أقل له رأيى فى أن هذا الزواج لن ينجح قط، لأنها هى هى ولأنه هو هو، ولن يغير أحدهما الآخر، فهما مجرد غريبين جائعين وظامئين التقيا.

★★★

ذات نهار، عاد ابن زيدون من المعهد، وقال وهو يضع عمامته على مقعدها الخاص بها، ويعلقها على مشجبه ومسماره الخاصين بهما، ويلبس جلبابه الأبيض المكوى بيد الست ليلى:

– ابسط يا عم. فرجت. سنوات الغربة حتطير، وتعيش مع أهلك.

نظرت إليه مستفهما: كيف؟ فراح يخبرنى بخبر ذكره له المشايخ الكبار فى المعهد اليوم. ولم تنشره الصحف بعد. فى المنصورة عروس النيل ومدينة نجم الدين أيوب وشجرة الدر، يجرى الآن الإعداد لافتتاح معهد دينى بقسميه الابتدائى والثانوى، وسينقل كل طلاب مديريتى المنصورة ودمياط وما حولهما إليه.



فى الحال، قفز ذهنى إلى لحظة نهاية مرتقبة بين ولاَّدة وابن زيدون. ويبدو أن تلك اللحظة كانت تشغل ابن زيدون طوال عودته فى الطريق من المعهد، فعلى الغداء لم تكن له نفس لمد يده إلى الطعمية، وطبق الفول المطيب بالزيت والليمون والمبهَّر بالصلصلة، والخبز الطرى الشهى العبق التخمير والرائحة. ونهض وراح يروح ويجيء فى الغرفة. ثم قال لى بحيرة بصوت عال، ومحدثًا نفسه فى الوقت نفسه:

– مش حظ مهبب ليَّه وليها. متجوز هنا، وعايش فى السنبلاوين مع أبويا، ورايح جاى فى القطر كل يوم من السنبلاوين للمنصورة، ومن المنصورة إلى السنبلاوين.

والتفت إليَّ، وجلس قائلا:

– دبرنى يا وزير.

قفز إلى ذهنى ابن عبدوس. قلت لنفسى: ابن عبدوس هو الحل. لكن كيف؟ ولم أجرؤ أن أقول له ذلك.

تمدد ابن زيدون على سريره. وقال لى وهو يحدق فى سقف الغرفة لجيرى الأصفر:

– لحد ما اعرف لها حل، من فضلك ما تجيبش لليلى سيرة معهد لنصورة، ولو سألتك قول لها إنها إشاعة.

★★★

بدت ليلى سعيدة إثر عودتها من إنشاص. أخذت موافقة أختها وأهلها. وراحت تستعد للزواج من ابن زيدون. حدثته عن عزمها على بناء غرفة لهما. خاصة بهما على ناصية البيت فوق السطح، وتسوير السطح بسور، وعمل تكعيبة على السطح أمام الغرفة، يسهران تحتها، ويتناولان فيها غداءهما وفطورهما وعشاءهما. ويستقبلان فيها ضيوفهما "الحلين"، وسمعت صوتها

لأول مرة تغنى فى غيبة ابن زيدون، وهى فى الحمام، وهى فى غرفتها وحدها، وهى فى المطبخ. لم يكن فى غنائها غناء، كانت فيه فقط سعادة. وأحسست بها ذات ليلة وهى ترقص لابن زيدون، فقد كان يطبل لها بكفه، وينقر بأصابعه على ظهر صينية الشاى النحاسية. وملأ الحزن قلبى لأجلها وليس لأجله.

★★★

ذات نهار، عادت ليلى من سوق الثلاثاء، وقد جلبت معها من السوق عامل بناء، وصعدت به إلى السطح، وراحت تحدثه عما تريده منه، وزادت فطلبت منه فى عجلتها، أن يقيم على السطح حتى لا يضيع وقته ووقتها ووقت الغرفة والتكعيبة فى المرواح والمجيء، فأقام لنفسه عشة مؤقتة على السطح، ولم يبد ابن زيدون قبولا لعامل البناء فى البيت، وراح يلومها لأنه بوسعها أن تؤجل ذلك كله إلى شهور الإجازة الصيفية، فقالت له كما روى لى ضاحكة:

– خير البر عاجله. يمكن تشور بحاجة كده والا كده فى البنا، والا فى التكعيبة وكراسى القعدة، وسقفة التكعيبة. وأكيد حاحتاج شورتك. ومين عارف، يمكن تغير رأيك، ونقدم الزواج، ونكسب الصيف، بدل قعدتك هناك فى أوضتك، وقعدتى هنا فى أوضتى.

واستسلم ابن زيدون لجنونها، لكنه رفض أن يصعد إلى السطح، أو يجلس مع عامل البناء، أو يتناول معه غداء أو شايًا. أنا وحدى، من باب الفضول لا غير، قبلت دعوتها لى على الغداء معها ومع عامل البناء. كان الغداء غدوة سردين عصر عليه الليمون، وجرد قشره، ونظفت بطنه، وبصل أخضر، فى يوم سافر فيه ابن زيدون لزيارة أبيه فى مرضه.



بدوا لى على الغداء من طينة واحدة، ومستوى طبقى واحد، عدا أنه كان يقرأ ويكتب وفق حاجته هو كعامل بناء. وبدوا لى أليفين معًا فى الحديث والضحك على تحفظهما. ورأيتهما فيما تخيلت يسيران معًا، ويد أحدهما فى يد الآخر، ويجلسان معا متجاورين فى السينما، ويأكلان معا ترمسًا، وفولا مدخنًا متبلا، وحلبة منبتة، ويمصان قصبًا فائق الحلاوة بزعازيعه المسكرة عند محطة الكهرباء، ويضحكان من قلبهما لهواء كورنيش بحر مويس. ووقعت عيناى على عينيه فجأة، ونحن نشرب الشاى، وهو ينظر إليها نظرة راغبة متقدة محمرة بياض العينين، ووجه يحمر لحظة، ويشحب لحظة.

كان السطح قد خلا من أحجاره المحروقة، وكانت الغرفة قد تم بناؤها، وبقى بها فراغ نافذتيها ينتظر جلب شباكين جاهزين بزجاجهما وشيشهما وتركيبهما، وفراغ السقف ينتظر شد أخشابه وعروقه فوقها، وبياض الغرفة من الداخل والخارج، ثم يأتى دور التكعيبة الخشبية، وعندئذ ينتهى دور عامل البناء فى العمل ببيت الست ليلى.

تلقت الست ليلى رسالة العينين وانفعالات وجهه، وبدت مرتعدة، فنهضت فجأة قائلة بحرج لعامل البناء:

– أنا نازلة تحت. ابق نضف الحتة، ورتب المكان.

ولم تنتظر لتدعونى للنزول معها. وتركتنا وحدنا، منحدرة على درج السلم الحجرى المسفلت. ورأيته يطرق ناظرًا إلى حجره مكسوفًا من نفسه، والكوب يسقط من يده. ثم ينهض إلى الغرفة الخاوية تحت فضاء الغروب، وعتمته الزاحفة. وسمعته ينشج نشيجًا مكتومًا. وخطر ببالى أن عامل البناء هو ابن عبدوس، وأن القدر الآن يضحك.

كعادتى لم أقل لابن زيدون كلمة، ولم أنطق بحرف. تفكرت وقدرت وقررت أن أدع المقادير تجرى كما الخيل. ورحت أرقب بروح من الرغبة فى

الشر، ربما، وبروح من الأمل فى الخير، ربما، لها، وربما لهما. ورب القلوب وحده يعلم الغيوب.

★★★

على السطح مرض عامل البناء مرضًا شديدًا. حين ذهبت إلى المعهد صعدت الست ليلى إلى السطح تحمل للسيد عامل البناء فطوره، لقبه ابن زيدون بلقب "السيد" لإغاظة الست ليلى، وربما لشعوره بالخطر منه. وجدته الست ليلى ملقى محمومًا بالغرفة المكشوفة، يهذى ويرتجف، وتصطك أسنانه وركبتاه. جست جبهته بكفها فوجدته كما قالت لى "سخن نار". نزلت هلعة، وسحبت ورقة القطن التى عندها، وزجاجة الخل، وصعدت إليه وراحت تبدل كمادات الخل على جبينه، وسمعته يهذى باسمها. شعرت بالانزعاج، وخشيت أن يسمعه أحد، وبخاصة ابن زيدون. وراحت تفكر فى أنه ينبغى أن يشفى ليتم ما بدأه، ويذهب إلى حال سبيله، حتى لو لم يكمل عمله فى الحجرة والتكعيبة. ولاحظت أنه كان يتوقف عن الهذيان باسمها، وبأى هلوسة أخرى عن الأحجار والأخشاب، وأسماء سواها، للناس والأشياء، حين تترك يدها فوق الكمادة على جبهته بعض الوقت، كأن فيها شفاءه. بين لحظة وأخرى كانت تسقيه جرعة ماء باردة، مقطرة من ماء الزير فى حوش البيت، ترفع رأسه لتسقيه، فتلفح أنفاسه الساخنة رقبتها ونحرها. قدرت أنه مصاب بحمى ما لا تعرفها قد تكون حمى راجعة من التى تروح وتجيء، أو حمى معدية قد تصيبها، وتنتقل منها إلى ابن زيدون، وتتلاشى الجوازة لغير رجعة.

فى اللحظة التى أحست بأنه قد نام فيها نزلت، وذبحت له فرخة صغيرة ليشرب شربتها، وفيما الفرخة تنضج على الوابور، أسرعت إلى صيدلية الميدان، وطلبت النجدة من الصيدلى، وحكت له ما حدث، فأعطاها برشامًا



لتعطيه واحدة، كلما ارتفعت حرارته، ونصحها بطلب الإسعاف ليذهب به إلى مستشفى الحميات، فلا أحد يعرف أى نوع لديه من أنواع الحمى. ومد يده إلى يد سماعة التليفون ليديرها، لكنها سارعت بمد يدها لوقف يده قبل رفعه للسماعة، قائلة:

– ما لوش لزوم. نستنه شوية. يمكن يخف ونشوف.

كان بالها فى أنها لا تعرف له اسمًا بعد، ولم تسأله عن اسمه من ساعة سؤالها له فى السوق دون سواه عن حرفته. فقال لها: محسوبك بنًّا، فظلت توجه له الخطاب من يوم قدومه إلى بيتها بقولها: يا ريس. يا معلم. يا اسطى. يا ابن الناس. ولم تسأله قط عن اسمه. كان عندها أى أحد يؤدى عملا، ويذهب لحاله.

وراحت تلوم نفسها فى الطريق: يا خيبتك التقيلة يا ليلى. حد يشغل واحد عنده وما يسألوش عن اسمه، ويأمنه وما يسألوش عن بلده وأهله. وفكّرتْ فى أن السؤال عن الاسم مودة وتعارف، وربما لهذا السبب لم تسأله عن اسمه، خشية أن يظن لحظة أنها سهلة المنال، أو يتجرأ عليها ويناديها أو يخاطبها باسمها. وضحكت فى سرها على نفسها، فهى تجلس معه، وتساعده أحيانًا بمناولته: حجر، أو كوب ماء أو شاى، أو المسطرين. وهى تفطر معه، وأحيانًا تتعشى معه.

رفعت ليلى رأسه، ودست فى حلقه الحبة المسكنة لحرارة الحمى. وجلست ترقبه وقد نام بعد فترة نومًا عميقًا، وغمره العرق، فغطته بلحاف قديم، ورجت أن يكون عرق العافية ليكمل الغرفة، ويقيم التكعيبة، ويرحل بسرعة قبل أن يدمر علاقتها بحبيبها. وخيل لها للحظة من شدة سكونه أنه قد مات، وأنها ستحتاس به، وهى لا تعرف له أهلا ولا بلدًا ولا اسمًا، ويجلب بموته عندها النحس لها إلى نهاية العمر.

★★★

أحست ليلى وهى فى الغرفة الخاوية وحيدة معه بمن يفتح باب البيت، فنزلت مسرعة، وحين رأتنى أدخل الغرفة، لحقت بى قائلة:

– الحمد لله انك انت مش هوه.

وجلست تلهث، وراحت تحكى، ورق لها وله قلبى. فطلبت منها أن تكفى على الخبر ماجور، وسوف أقوم أنا بتمريضه، وسألتها عن اسمه، فهزت رأسها نفيًا بأنها لا تعرف له اسمًا، فأكدت لها وأنا فى دهشة من أمرها أننى سأعرف.

صعدت إليه بعد ساعة، فوجدته لا يزال نائمًا، وظللت أتردد بين السطح وغرفتى، وابن زيدون يسألنى حائرًا:

– مالك؟ فيه إيه؟

فلا أجيبه بشيء، سوى أننى أحب جلسة السطح مع الأسطى البنَّا، لكى ينتهى بسرعة، ويرحل عن البيت، ويريحنا من أصوات الجرجرة للأشياء، والخبط، والدق، والرزع.

ثلاثة أيام مرت. وهو فى وقدة الحمى تنزل ساعات، وترتفع ساعات، ولا تكاد تبدأ حتى أسارع بإخمادها. وفى اليوم الرابع فارقته الحمى، ووجدته جالسًا مهمومًا يدخن. هنأته بسلامته، وتوددت إليه حتى أنس لى، فسألته عن اسمه فقال لى:

– على محمود.

وذكر لى اسم بلدته، وعائلته، وحدثنى عن فشله فى التعليم لفقره وفقر أهله. وقفز إلى رأسى خاطر حين سألنى مترددًا عن ست الستات، الست ليلى. هكذا لقبها. خطر لى أنه قد وقع فى عشقها، وأن حُمَّاه كانت بسببها، وقد واتته الحمى فى اللحظة التى كسرت فيها خاطره ونحن نشرب الشاى. رجوته أن يستريح حتى يشفى تمامًا، وطمأنته أن ست الستات ستعاود



الصعود إليه حين يتأكد لها شفاؤه، ويعاود العمل. فلم يكذب لى قولا، وتمدد وغرق فى النوم.

★★★

حين خلا البيت من ابن زيدون، خرجت إلى حوش البيت، واقتربت من باب غرفتها، وتنحنحت كأننى فى طريقى إلى الحمام، وعدت لأقف على باب غرفتى. كان ذلك سيمًا بينى وبينها. لحقت بى فى الغرفة، فأخبرتها باسمه، وقلت لها ضاحكًا:

– وبلده يا ستى قريبة من بلدك واسمها.. يعنى بلديات.

ولا أدرى لِمَ صاحت بى:

– تف من بقك.

وسارعت بمصارحتها مداعبًا، حسب ظنى، بأن مرضه كان بسبب حبه لها، وكسرها لخاطره، فلطمت لفورها خديها، وقالت:

– يا خيبتك التقيلة يا ليلى. بيحبنى.

ونهضت غاضبة، وهى تقول لى:

– يبقى حاطرده. أنا ناقصة هم ومشاكل. كفاية اللى بيَّه.

طلبت منها أن تتصرف بهدوء وحذر معه، وألا تتسرع بطرده فتدمره. وتعالج المسألة برفق وحكمة. واكتشفت فيما بعد أنها لم تكن بحاجة إلى نصائحى.

★★★

لا أعرف كيف جرت الأمور بينها وبين على البنا فوق السطح. فى الغرفة التى لم تستكمل على يديه وجودها وشكلها. والسقيفة التى توقف مشروعها كله عند ليلى، وكأنها قد عدلت عنها، ولم تعد بحاجة إليها. ولاحظت أن ابن زيدون لم يعد يرى ولادته ليلا إلا كل حين ومين. ولاحظت أن ليلى صارت

تصعد كثيرًا إلى السطح فى غياب ابن زيدون حاملة معها لعلى البنا، ولنفسها ما لذ وطاب، من طعام وشراب، ولاحظت أن على البنا كان يغنى فوق السطح غناء خفيضًا أغانى من أغانى المحبين، فى أوقات الضحوات والعصارى، وعندئذ تنتصب أذنا ليلى كما الفرس، مصغية إليه، ولا تلبث أن تصعد إلى السطح بيد تحمل شيئًا من طعام أو شراب، أو بيدين فارغتين، مصطحبة معها وجهها المنظف من كل زغب، تحت الأنف، أو حول الرموش والحاجبين، ورائحتها العطرة، وعينيها المشرقتين السعيدتين.

ثم حدث ما دفع بالأمور كلها بين ابن زيدون وولادة إلى ذروتها وانحدارها فى وقت واحد.

★★★

ذات ليلة، رأيت ابن زيدون جالسًا عارى الذراعين فى فانلة حمالة بلا ساعدين، يدهن بطون وظهور ساعديه وعضديه بمرهم ما تفوح منه رائحة دوائية مزعجة كرائحة كبريت الجرب. سألته عن مرضه مرارًا، فلم يجبنى مرارًا، وحين زهق منى قال لى اسم مرض سرى لا أذكره، وربما كان هو الزهرى. وفى مرة أخرى باح لى بأنه أخذه بسبب الضعف والدناوة، من بنت ليل من الواقفات تحت أشجار بحر مويس، ناسيًا أن يأخذ احتياطه كما يفعل الكثيرون بدهن نفسه بعصير الليمون، وإجبارها على وضع حبة اسبرين باير فى جوف موضع اللقاء معها هى ابنة الليل. كما اعتاد الكثيرون أن يفعلوا. ورأيته مرة واقفًا بشاربه الكث متخفيًا فى جلباب وطاقية بطابور الرجال أمام مستشفى الأمراض السرية. وفى مرة باح لى بأنه لا يستطيع الاقتراب من ليلى، ولا الذهاب إليها.

ومرت الليالى من بعد ومن قبل عليَّ فى الغرفة معه، مستريحًا من بكائياته وترتيله لأشعار ابن زيدون، أراه وهو يدير بيده مفتاح محطات



الراديو حتى يعثر على أغنية عربية ترثى الهوى الذى ولى، وتعترف على لسان الحبيبة أو الحبيب المغنى بأنه يستاهل كل اللى يجرا له. وأخمد الراديو ذات ليلة، وتمدد وأدار ظهره لى موليًا وجهه نحو الحائط، تحت سجاف النافذة. وهمس من مكانه لى:

- أنا ضيعت بحماقتى حبًا عظيمًا. أنا اللى ضيعت ولادة. وفاز بها ابن عبدوس. دناوتى هى السبب. دناوتى هى السبب.

وأجهش ببكاء مكتوم، واقتربت منه. جلست على سريره، ورحت أواسيه وأهون عليه الأمر، ورائحة مراهمه تقرفنى. ولا أعرف متى استغرق فى نوم عميق، وعدت إلى سريرى وقد استولى عليَّ خوف مزعج، فإذا كان ما بذراعيه مرضًا معديًا، فقد انتقلت إليَّ العدوى، وسوف أبيت متهمًا عند أهلى وطلاب المعهد بالدناوة والفجور.

★★★

فى الصباح، خرجت عفوًا إلى باب الحمام. عبرت الساحة المكشوفة الصغيرة، ورأيته واقفًا مع ليلى، وهى تقول له بصوت هامس مرتفع بعض الشيء:

- بعد إيه؟ بعد إيه؟ مستحيل. ما كنت قدامك ليل نهار. عمرى قلت: لأ. تجيب لنفسك بلوة ليه. تخونى ليه. عياك معدى ووسخ، وكمان فضيحة. تنسانى خالص، وتروح فى حالك يا ابن الناس، وتسيبنى فى حالى، وتريحنى من شعرك اللى لا يودى ولا يجيب، ولا عمرى فهمت منه كلمة.

فى الأعلى، فوق السطح، توقف الغناء الضحوى لعلى البنا. وفكرت أنه كان يرهف السمع، وأنه يعرف أن ليلاه كانت على علاقة بصاحبى الذى لم يجلس معه يومًا. وقدرت أن ليلى قد اعترفت له بكل شيء لتضعه فى النور. ام يكونا قد رأيانى فى وقفتى على غير قصد أنظر إليهما وأسمع، وأنتظر

فراغهما من التلاوم، لأدخل الحمام على مضض وعجل. حين رأتنى دخلت غرفتها، وأغلقت بابها فى وجه ابن زيدون، فسارع بالعودة غاضبًا إلى غرفتنا.

فى غرفتنا قال لى ابن زيدون:

– على إيه وجع القلب دا كله. دى معضمة ومكارة، وبتاخدنى على قد عقلى، وجاهلة كمان. حاولت أعلمها كتابة اسمها بس فشلت. أحسن اللى حصل. أحسن اللى حصل.

وراح يردد لنفسه مؤكدًا: أحسن. أحسن. أحسن. وجلس على طرف سريره قائلا لى بتوجس:

– يا ترى حتحكيله إيه عن ليلى، وعنى، وعن الواد البنا الصعلوك اللى فوق. مش عايز حد يشمت فيَّه. أنا اللى سبتها مش هيه اللى سابتنى. اوع تشمته فيه.

كان واضحًا أنه يشير إلى صاحبنا المنفلوطى. ولم أقل له شيئًا.

★★★

فى الصباح، جاءت ليلى إلى غرفتى. وجلست مطرقة برأسها على طرف سريرى، وقالت لى:

– أنا بنت أصول. جاهلة نعم. لكن بنت أصول. خليكوا فى الأوضة لحد ما تسافروا. بس قول لصاحبك إن مش عايزاه يورينى وشه وهو فى البيت ولا يخش حمامى. لو شفته مرة واحدة، أو شافنى مرة واحدة حاطرده من البيت.

وأحسست بالحرج مما قالته، فقالت لى وهى تنهض:

– الأوضة من النهارده أوضتك، لو مشى ولو قعد. انت راجل طيب ونضيف. وبوش واحد. والأسطى على حبك قوى.



وهى عند الباب قالت لى:

– أنا والأسطى على اتفقنا على الجواز. هوه من توبى، وأنا من توبه. يحكى لى حكايات ورا حكايات. وبيخلينى أموت من الضحك. وزى الخاتم فى إيدى.

★★★

قبل موعد عودتنا إلى مدائننا الصغيرة للمذاكرة، ضحكنا نحن المجاورين من سكان حى كفر "أبو حسين" من قلوبنا. على مجاورين اثنين، من قرية واحدة. يسكنان معًا غرفة فى بيت، ويذهبان معًا إلى المعهد ويعودان معًا من المعهد إلى الحجرة التى يسكنان بها، والتى لم تطأها قدم أحد سواهما، ويذهبان إلى المسجد معًا ويعودان معًا، ولا يرى أحدهما إلا مع صاحبه ورفيق سكنه دون سائر خلق الله. ولا أظن أنهما قد سارا معًا على كورنيش بحر مويس مرة، أو ذهبا إلى السينما مرة. كانا بالنسبة لنا نحن المجاورين وكأنهما لا وجود لهما فى الحى.

ذات عصر، سمعنا أصوات شجار ومطاردات فى الحى. جذبنا الشجار إليه، وحين عرفنا السبب ضحكنا من قلوبنا، وضحك معنا أهل الحى، وراح الكل يضرب كفًا على كف. كان سبب الشجار هو الخلاف بينهما على اقتسام مليم، بقى من ميس الشهر المشترك بينهما، ولم يكن مع من بيده الميس فكة مليم، فطلب من صاحبه تأجيله إلى حين، فأبى صاحبه إلا الآن، أو يعطيه هو المليم ولا يستكرده وينام هو عليه.

ودبت الخناقة. وتطورت إلى عناد أحمق، فالمليم على المليم يساوى جنيه. وأبى الاثنان الحصول على فكة المليم من أى أحد من المجاورين فى الحى، أو يقبل التبرع من أحد المجاورين بمليم آخر لفض المشكلة بينهما، وإيقاف ضحك أهل الحى عليهما وعلينا. وأبى كلاهما أن يترك الغرفة لصاحبه،

وعندئذ قدم من بيده ميس الشهر المليم كاملا لصاحبه، وهو يستعوض الله فى نصف المليم، لكنه أصر على اقتسام الغرفة، وباب الغرفة أيضًا بينهما بالطباشير، وكأن الطباشيرة كانت جاهزة فى جيبه، فقد أخرجها من جيبه، وقسم بها الغرفة قسمين. وقسم مدخل الباب من عتبته قسمين. وشرط ألا يدخل صاحبه من مصراعه بالباب، وألا يطأ بقدمه نصفه الخاص به فى غرفة السكن. وقبل الآخر. وانتهت المشكلة، ولكن ضحكنا نحن المجاورين، وضحك أهل الحى بكفر "أبو حسين" لم ينته فى تلك الليلة، ولا ليالى أخرى بعدها.

***

انتهى آخر امتحان لى بمدينة الزقازيق، ورحت أودع فى روحى مدينة التيه إلى غير عودة، فوق سطح عربة من عربات قطار الدلتا، وأودع معها ذكريات قطارات العساكر الإنجليز، ومستشفى الأمراض السرية، ومقهى البوسفور، وحى الوسعة الذى لم أره إلا عن بعد ولم تطأه قدمى، والبنات الضائعات الواقفات تحت الأشجار على رصيف كورنيش بحر مويس، فى وقدة حر القيلولة، أو ظلام الليل، ينتظرن الزبون من راغبى الجنس على الواقف، سقطت فى نفسى سبع سنوات عجاف كسنوات فرعون، أو لعلهن سمان كسنوات يوسف.

لا أعرف كيف قفز أو انحدر إلى رأسى فجأة المجاور خضر دون سائر المجاورين، وأنا على سطح قطار دلتا يقترب بى من مركز ديرب نجم فصحبته.

كان الولد أو المشيوخ خضر، من المترددين على وسعة الزقازيق كل خميس، والمرددين دائمًا لشعار: الإنسان ليس مسئولا عن نصفه الأسفل. النصف الأسفل يتحرك وحده، ويفكر وحده. وكان من المتغنين بمسرات



الحرام ولذائذه، على الأقل لاختبار رجولة الرجال، قبل أن يصابوا بفواجع الربط والعنّات فى ليلة العرس، وما بعد ليالى العرس. وبدت نهاية خضر المجاور بائسة ومضحكة.

السطوحى صاحبه وبلدياته ورفيق سكنه، ضاق به، وبنزقه، وبإثارته لمنازغ ومنازع الشياطين فى نفسه، فأرسل رسالة من مجهول إلى أبيه، بقلم غير قلمه، دفع فيها إلى كاتبها عشرة قروش. وتربص الأب المفجوع بولده خضر، فطب سرًا على مدينة الزقازيق، وقبيل التاسعة مساء يوم خميس، كما ذكرت له الرسالة المجهولة، تربص بولده مستترًا بظلام الليل، على رأس الحارة التى بها بيته بكفر الحريرى، ورآه يخرج من البيت، فتبعه من بعد قريب حتى دخل به حى الوسعة، ورآه يتوقف عند باب مفتوح، ويدخل البيت، وظل الباب مفتوحًا ينتظر دخوله بدوره. وانتظر الأب وهو لا يصدق ما رآه، وقد قرر أن يضبطه، وهو متلبس معها على سريرها.

فى اللحظة التى قدرها، خرج من مكمنه، واتجه إلى الباب المفتوح، كانت بصالته الطينية لمبة بشعلة تتراقص ذبالتها مع هواء الليل. ورأى بابًا مفتوحًا على يساره لغرفة مضاءة، وتنصت متسمعًا حتى رأى أن لحظة التلبس تحدث الآن، فنزع كوفيته الطويلة عن رقبته، واندفع هائجًا إلى الغرفة. وقبل أن يفيق المتلبسان المنتشيان كانت رقبة خضر قد أحيط بها كوفية أبيه الطويلة، وكان خضر يجذب بها من فوق السرير، والبنية التى على السرير تصرخ مستنجدة بنساء الحى وقواديه. وراح الأب يضرب ابنه خضر طوال الطريق للخروج من الحى بفردة بلغته، ويسبه، ويسب بذرته الشيطانية، وأمه التى جاءت به إلى الدنيا، والليلة السوداء التى اقترب فيها من أمه. وسمع الكل الأب يقول لخضر:

– انت طالب علم انت. انت فاسق وفاجر يا ابن الصرمة. حترجع البلد

معايا تزرع وتقلع، وفضيحتك وفضيحتى للركب. وإن ما عجبكش الحال يا فرطوس يا ابن الفرطوسة، حاطردك من البيت وتشتغل تراحيل.

وهم القوادون، كما يقول الرواة، بالتجمع على الأب الهائج كما الثور، لكن كبيرهم أشار لهم فتوقفوا. وسأل البنت التى كانت معه: دفع والاّ لأ. فهزت رأسها وهى تضحك، فانصرف القوادون، وعادت النسوة إلى البيوت، وعادت فتاة خضر إلى بيتها تاركة خضراً لمصيره، فهو واحد لا غير ممن يأتون ويذهبون، بموعد وبغير موعد. من الأفندية والعمال والمعلمين وأعيان الريف والمشايخ الصغار المتنكرين فى ليل أو نهار.

واختفى خضر من مدينة الزقازيق، وجاءت الأخبار بأن "خضر" قد هرب من أبيه ومن القرية بعد عام واحد، فقد سدت فى وجهه كل أبوابه وتباعد عنه كل من يجايلونه، ويقولون إنه قد اشتغل ابن ليل، ويقولون إن أول ضحاياه كان السطوحى بلدياته. جرجره خضر وهو لا يدرى إلى الغاب على شط المصرف الكبير وذبحه ورمى به فى المصرف، مع الحمير الميتة.

★★★

حين اقترب بى القطار من مركز ديرب نجم، عائداً بى من سنوات التيه، نفضت عن نفسى الأسى، والرغبة فى البكاء، هببت واقفًا فوق سطح قطار يسعى بين المزارع والقرى كالسلحفاة، ودرت بعينى فى مزارع خضراء فسيحة مترامية على مدى البصر، يحنو عليها أفق جيرى كقبة سماوية. أبهجنى المشهد فى وقدة الحر، فردت ذراعى على جانبى على اتساعهما، ورحت أرقص دائرًا حول نفسى، فوق سطح عربة تتراقص بدورها فى سيرها، وزعقت من قلبى كالأهبل: هيه.. هيه.. أنا حر.. أنا حر.. فجأة لطشنى فى عنقى سلك ممتد بميل بين عمودى تليفون على جانبى الطريق. سقطت أتدحرج فوق سطح العربة، وسقطت معى صرخة الحرية. كدت



أسقط من فوق العربة على الطريق، أسعفتنى يدى وحلاوة الروح، أمسكت يدى بدائرة التهوية البارزة وسط العربة، وتشبثت بها، ورفعت بصعوبة ثقلى المتدلى على جانب العربة. وجلست أتنفس منبهراً ولاهثًا. لا أصدق أننى نجوت. وحين لمحت السلك يتراجع أمامى أدركت ما حدث، ورحت أرتجف، وتحسست لسعة السلك على عنقى. وحين هدأت لم أجرؤ على الوقوف مرة أخرى فوق العربة. زحفت فوقها متأرجحًا معها، ثم تدليت بين عربتين، وقد غمرنى الخوف من السقوط بينهما، أنا الذى اعتدت التسطيح فوق عربات القطارات والعدو فوق عرباتها من عربة إلى عربة.

حين جلست فى مقعدى، لاحظت أن جارى الريفى يحدق فى عنقى، ويقول لى:

- حد ضربك بكورباج؟

لم أجبه. وبكيت، وغفوت.

## هذه الرواية

عالم الشيوخ والمشايخ، على خصوصيته الشديدة، عالم بشرى، مثل عـالم كل الناس، فيـه الخيـر والشر، والفقـر والغنى، والعدل والظلم، والقسوة والحنان، والرحـمة والعنف، والبخل والكرم، والحكمة والحـمق، والذكاء والغباء، تماماً كما في كل عوالم الناس، لا قداسة فيه لأحد ، وإن تأنق وتزّيا، وحمل مسبحة ، وقصّر ثوبا، وطبع زبيبة علي الجبين. **فالكل معلقٌ من عرقوبه** كما نقول ، رهين بعمله لا بصورته بين الناس. **والذكرى وحدها هى السيرة العطرة أو الخبيثة الرائحة** ، فى عقول ونفوس الصالحين والطالحين، فذكريات الخير أو الشر عن الغير باقية بين الناس، الأخيار منهم والأشرار علي السواء. الخير خير، والشر شر، حتى فى نفوس الأشرار الساخرين من الأخيار.

وهذا العمل قسم من ماضىّ الحى **أعود فيه إلى كهوف عمرى**، وكان مسرحه مساكن وشوارع وحارات مدينتين ، وزمنه سنوات من الضياع، وأبطاله الأساسيون من الأهل والجيران والشيوخ والمشايخ، **سبع سنوات عجاف بالمعاناة، سمان بالذكريات .**

سليمان فياض



